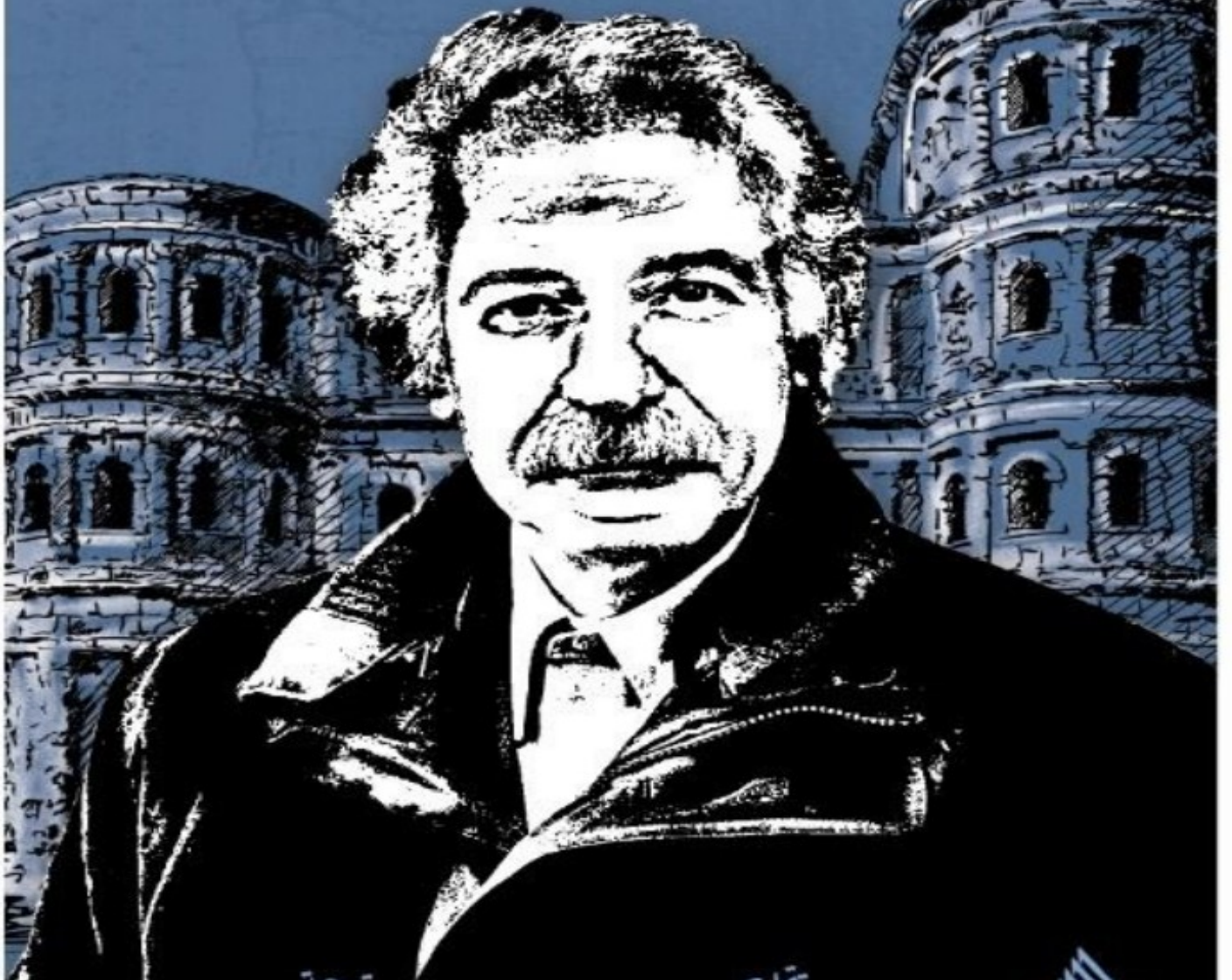


عبد اللطيف اللّعي

يوميات قلعة المنفى

رسائل السجن 1972 - 1980



تقديم
عبد اللطيف اللّعي

ترجمة
علي تيزلكاد



يوميّاتُ قلعة المنفى

رسائل السجن 1972 - 1980

يوميات قلعة المنفى

رسائل السجن 1972 – 1980

عبد اللطيف اللّبي

تقديم: يمنى العيد

ترجمة: علي تيزلكاد والمؤلف

العنوان بالفرنسية: Chroniques de la Citadelle D'exil Lettres de Prison

(1972- 1980) Paris, Denoël, 1983

ترجمة عنوان الكتاب بالانكليزية: Diary of The Castle of Exile Prison

letters 1972 - 1980

By Abdellatif Laâbi Translated by Ali Tizilkad & Abdellatif Laâbi

This Edition الطبعة الثالثة: يناير - كانون الثاني، 2022 (1000 نسخة)

Copyrights@Dar Al-Rafidain2022

(c) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافة نابضة بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخة أصلية من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أي من أجزائه بأي شكل من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.



بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520 / +9647811005860

- | | |
|---|---|
|  www.daralrafidain.com |  daralrafidain |
|  info@daralrafidain.com |  dar.alrafidain |
|  daralrafidain@yahoo.com |  dar_alrafidain |
|  Dar ALRafidain دار الرافدين |  daralrafidain دار الرافدين |

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 97 - 7

عبد اللطيف اللّعبى

يوميّات قلعة المنفى
رسائل السجن 1972 - 1980

تقديم

يمنى العيد

ترجمة

علي تيزلكاد وعبد اللطيف اللّعبى



www.daralrafidain.com

الفهرس

7 تقديم

11 وداعاً أيها الأسر؟

13 تمهيد

15 1972

37 1973

71 1974

115 1975

209 1976

271 1977

327 1978

349 1979

393 1980

415 سيرة مختصرة

تقديم

أدب مقاوم رسائل عبد اللطيف اللعبي. أدب مقاوم، لكنه خاصٌّ ومميّز في ما كُتِبَ من هذا الأدب عربياً.

خصوصيته لا تأتي من كونه جاء بأسلوب الرسالة. لا، ليست المخاطبة، على أهميتها، خاصيته. خاصيته هي في هذه الممارسة الدؤوية لتكوين النفس، الذات، أو الإنسان الذي هو عبد اللطيف اللعبي وقد بدأ آخر في ظروف عيشه الجديد.

السجن. ومسافة المكان والزمان بين عالم كانه وعالم يبدأه. وفي الانتقال قد يقع الكسر، كسر القطع وشرح الانفصال.

حين تقرأ رسائل اللعبي، الرسائل التي كتبها من سجنه، نعرف أنه، ومنذ البداية، أدرك هذه المسألة الهامة. أدرك المعنى العميق لمكان وزمان اسمه السجن: إنه تحويل الإنسان الذي يُدخَلُ إليه. تغييره باتجاه محوه. إلغاء كيانه الذي به كان بإمكانه أن يستمر متطوراً في عالم الخارج، عالم الحياة والواقع.

يتراجع المكان في السجن، يضيق، يتمحي فروقات الأحجام والأشكال والألوان، وتغور المعاني. فقط الجدران ذاتها ومعها يتكرّر الزمن ويلغى. يتكرر كل شيء ويلغى وجوده.. فيعيش المسجون موته: يسقط الإنسان الذي كأنه، يمضي في موته وينتفي منه وجوده.. هكذا يحقق السجن وظيفته. يُعِدُّ دون أن يُقتل، أو، يُقتل، ما لا يريد. ويبقى؟ فقط كائن حي. مجرد كائن يمارس الحياة في حدودها الدنيا.

هذا هو المعنى العميق الذي أدركه عبد اللطيف اللعبي وهو يتأمل في العالم الضيق حوله، عالم السجن الذي راح يعاينه منذ وطأت قدماه ظلمته المديدة.

بفكره القوي، بتبصره الفذ في عالم الواقع، فيه كحقيقة ماديّة معيشة، أدرك الشاعر السرّ. سرُّ الجدلية بين المكان / الزمان من جهة والإنسان / الكيان من جهة أخرى.

يموت الإنسان بعزله عن عالم الواقع المادي. يقول عبد اللطيف اللعبي. وهو، كي يرقى في عالم الحياة، لا بُدَّ له من أن ينشط ويعطي. لا مفرّ للإنسان من العطاء، من العمل باتجاه الناس والواقع نفسه. لا مفرّ من العطاء كي يأخذ حياة أفضل.

التواصل هو قوام هذه الحركة، وعلى أرض هذا التواصل يبرز الحب. حب الشاعر في أجمل معانيه، في أكثرها عمقاً وأشدّها إخصاباً.

بين جدران الزنزانة، وداخل عالم معزول يهيئ لموت الحياة فيه، كان فكر الزائر الجديد يعمل، يقبض على سرّ لعبة الموت الخفيّة، لعبة الموت التي يضمّرها السجن، يرى أين يختبئ الموت. يدرك أن الحياة ممكنة، حياة النمو والعطاء والتغيير.. فتولد إرادتها.

عبد اللطيف اللعبي لا يريد أن يموت، وهو، قوي وقادر.. الشاعر لا يريد أن يصير ما يريدونه أن يكون، لن يصير مجرد كائن حي. لن يقتلوا عبد اللطيف الشاعر الذي كان: المناضل المقاوم. بين جدران الزنزانة وفي زمانها لن يتراجع عاشق الحرية والحياة العادلة لكل الناس.

مدرکاً السرّ، عليه فقط أن ينقّد، أن يمارس، وها هو يبدأ بكسر الطوق، طوق العزلة:

يعيد الشاعر خلق المكان. مربع السماء. مربع التراب. المربع الصغير في السجن يصبح موضع اهتمام فعلي لديه، فتتكشّف تفاصيله، ويلتقط السجن إيقاعه الخاص، زمانه الملموم.. تتغيّر الأشياء. تكبر تصير عالماً، قابلاً وباستمرار، للنمو والمعرفة. قادراً، وباستمرار أيضاً، على الإحالة.

يحيل عالم السجن، وقد أبدع الشاعر حضوره، على عالم الخارج الواسع، عالم الحياة والأحبة، عالم الواقع والناس.. فالزهرة التي يحتال ويجهد ليغرسها في علبه التنكّ تصير رمزاً يمسك الذاكرة، يوقظها، يبت فيها قدراً من النشاط يساعدها على التخيل ومدّ جسور التواصل مع الواقع الحياتي في الخارج. الزهرة ليست بديلاً عن هذا الواقع، بل منطلقاً في اتجاهه.. يمتد المرئي، يتسع، تتراجع الحواجز ويستعيد العالم الحقيقي وجوده.

وجوسلين. جوسلين الحبيبة، زهرة، لكنها تأتي إليه حاملة العالم وهي فيه ذاكرته، مرئية، وحضوره الكثيف.

تراجع العزلة، تموت بدل أن تتقدم وتميت. ينهزم حكم السجن، تفشل لعبته الخفية...

وتنهض الكتابة لتضع، أمام العين المبصرة في الليل، فعل من يكتب، ولتمنح المعاني طابع الوجود الحقيقي.

تزهـر الكـتابـة فـي يد عبد اللطيف اللعبي وتكتسح حواجز العزل.

ونقرأ اليوم في رسائله، وقد عزم على نشرها، جسور التواصل الجميل.. مع المرأة، المرأة الزوجة، الحبيبة الرفيقة، الإنسانة الرائعة. ومع الأولاد، مع الناس.. أولاده وأناس بلده، بل كل الناس الذين من أجلهم يحمل جنون الأمل بالآتي الأفضل.

يبنى الشاعر السجين جسور التواصل، ويبدع رموز عشقه له: الشمس.

وعبارة: أشد على يدك.

ومن هذه الرموز يتسرب حسُّ إنساني كبير، وتنشع حرارة محبة عظيمة. محبة ليست طوباوية. بل محبة لها رغبة التغيير، معرفته وقوة فعله.

في قراءتي لرسائل عبد اللطيف اللعبي التي يضمها هذا الكتاب، قرأت أموراً كثيرة، هامة، وجميلة:

قرأت تثمينه النقدي للشاعر، للشعر والأدب. قرأت احترامه لقدرات المرأة. وعيه لمعنى الطفولة والإنسان. إدراكه لأهمية الفكر النقدي. مفهومه السليم للتربية. ولن أقفز فوق لحظات ضعفه التي قرأت. الضعف والقلق والألم، وزمن السجن يطول. لن أقفز، في كلمتي هذه، فوق هذه اللحظات، وهي، من حياته في السجن، تأكيداً على إنسانيته الفدّة.

قرأت كل هذا فقلت: حياة غنية. هل يعقل أن تكون حياة السجن على هذا القدر من الغنى؟

لن أتكلم على كل هذا الغنى. أدع للقارئ متعة المقاربة الشخصية، وأكتفي بواحدة أعتقد أنها هي أيضاً ما يريد اللعبي أن يقولها للذين يعيشون سجن الاحتلال الإسرائيلي ومقاومته في جنوب وطننا الحبيب. لبنان: «أشدُّ على أيديكم. فأنتم أيضاً تعرفون سرَّ إعادة خلق المكان».

يمنى العيد

بيروت، 1985

وداعاً أيها الأسر؟

وأخيراً، هذا كتاب لطبيّ مرحلة.

ها هي إذن هذه الرسائل «تحمل دمها على كفها»، تحمل قدرها على الأكتاف لتأخذ مكانها في خندق الذاكرة.

المحنة التي تصورها وتؤرخ لها لم تكن ولن تكون أبداً مُقايضةً: شراءً أو بيعاً للصمت. لا. كانت وما تزال وصمة عار في وجه مرحلة، جيل، مجتمع.

أقول بدون هوادة أن جميع الأطراف تتحمل الآن (ولو بتفاوت طبعاً) مسؤولية فاجعتها: • القائمُ لأنه لعب دوره المعتاد.

• المقموع لأنه لم يَرَقَ بما فيه الكفاية إلى الإمام بواقعه ومن ضمنه واقع قامعه، ولم يتحرر بما فيه الكفاية من أغلال ورواسب الإنسان القديم الذي كان يحلم بدفنه.

• التقدمي «الحذر» لأنه قَبِلَ بالمقايضة وتظاهر بالطهارة في الوقت الذي كان فيه مُكَبَّلًا بقوانين لعبة بيع وشراء الصمت.

لهذا أقول إن المسؤولية فيها الموضوعي والذاتي، ما كان قدراً محتوماً بحكم المرحلة التاريخية وطبيعة القوى الفاعلة سلباً وإيجاباً في الحلبة الاجتماعية، وما كان اختياراً محدداً بالمصالح الطبقية والفئوية، ولو أن أصحاب تلك المصالح كانوا يحاولون حجبها بالخطابات المضللة، وما كان قصوراً في التحليل والرؤية من طرف «الطوباويين» العاديين.

هذا الكتاب لطبي مرحلة بإثباتها وجعلها هَمًّا تتوهج في بوتقته جمرة اليقظة والسؤال.

ذلك أن ما يتضمنه، رغم ارتباطه بشخص وبتجربة عينية لها فرديتها وذاتيتها، يجعله خارجاً عن نطاق المِلْكِيَّة الخاصة.

فالشهادة ملك عمومي، تتوجه للعين والفؤاد والبصيرة، لا تروم جزاء ولا شكوراً، حقيقتها في وجودها. من ثم، فإنها واجب أخلاقي.

أقول وداعاً أيها الأسر؟

نعم ولا.

فعلى مستوَي الشخصي، أشعر فعلاً بضرورة، بل بحيوية الانتقال في تجربتي الإبداعية (والفكرية) إلى مرحلة أخرى لا تستطيع إلغاء الماضي، ولكنها تتوجه صوب الحاضر والمستقبل بمسؤولية الانخراط فيهما بشكل أوثق. ذلك أن تجربة الإبداع لا يمكن أن تُحدَّ بتجربة واحدة كيفما كانت قوتها وخطورتها. لا حدود في الإبداع ما دام أفقه هو القارة الإنسانية اللامتناهية الأطراف.

لكن على المستوى الأعم والأبعد من الشخصي، أعرف أنه لا وداع للأسر مادامت شوكته تنخر لحمنا وتدمي معيشتنا اليومي. هذا ما يجعل منه مُكَوَّنًا لواقعنا، تحدّيًا مستمرًا لا يمكن تحويل أنظارنا عنه إلا إذا نحن قبلنا، قليلاً أو كثيراً، بالمشاركة في أبشع تجارة رِقٍّ ممكنة: شراء وبيع الصمت.

ع.ل

الرباط 8/10/1984

تمهيد (1)

مضى أكثر من عقدين على نشر هذه الرسائل لأول مرة. أعترف أنني منذ ذلك الوقت لم أفق على إعادة قراءتها. ما هو السبب في ذلك مع العلم بأنني استطعت إلى حد ما، خلال الأعوام الخالية أن أخذ البعد الضروري عن تجربة الاعتقال لأواجه وقائع أخرى وأنخرط في حيواتٍ أخرى وأضطلع بالمهام التي لم تتوقف الكتابة عن تسجيلها في جدول أعمالِي؟ ربما يعود السبب إلى أن تلك الرسائل لم تكن، على الأقل في قصدها الأول، نصوصاً أدبية أستطيع تذوقها أو الحكم عليها حسب المقاييس الخاصة بالإبداع. لقد كتبت في الأصل إلى مخاطبين مُحدّدين وأحاطت بمعيشٍ محدد في الزمان والمكان، لا يدين بشيء للمُتخيل بل ينتمي إلى دائرة الحميمية الشخصية. وكونها أصبحت رائجة في المجال العام لم يغير في الأمر شيئاً. لقد قبلتُ بذلك في مرحلة ما، وعياً مني بأن نشرها سيكون بمثابة شهادة عن عهد التعسف ومصادرة الحريات، وعن المحنة التي كنت أتقاسمها آنذاك مع مئاتٍ من الرجال والنساء.

لن أتردد اليوم في القول بأن تلك الشهادة، بالإضافة إلى أخريات، قد ساهمت بقسطها في فضح جبروت النظام وفرضت عليه أن يرخي قبضته الحديدية، مُهيأةً بذلك جو الانفتاح الذي تعرفه البلاد منذ بضع سنوات. ومع ذلك، فالمشكل بقي قائماً لأنني كل مرةٍ حاولت إعادة قراءتها، لم أكن أفتح مجرد صفحة من التاريخ، بل جرحاً قديماً. إن التأثير لم يكن يترك مجالاً للعقل، بل يذهب بي إلى منزلق الرأفة بالذات، مما كان يزعجني إلى أبعد حدّ. وكنت أخلصُ إلى أن الوقت لم يحن بعد لمراجعة هذا الجزء من تاريخي الشخصي بكل صفاء.

هل اكتسبتُ الآن «النضج» الكافي؟ يبدو أن نعم، بما أنني صاحب المبادرة في وضع هذه الصيغة الجديدة لـ يوميات قلعة المنفى، بعيداً عن أي استعجال، ومعتبراً إياها «نهائية». فكان التاريخ استعاد سلطته دون أن يضايقني ذلك في شيء. إن النظام الجائر الذي كانت تفضحه هذه الرسائل قد تصدّع، والقيم التي دافعت عنها بقوة أصبح معترفاً بها كحجر الزاوية لأي مشروع يستهدف أنسنة مجتمع لم يعد يطبق أغلاله ويعمل على استعادة أحلامه العادلة رغم جلبة المتاجرين باليأس. لقد ارتقتُ إلى نوع من الحقيقة العملية. أستطيع الآن أن أتصفحها من جديد بعيداً عن الآلام التي أنتجتها، وأكثر من ذلك أشعر بحاجة الاعتراف لها بالجميل. بدونها، بدون الأحباء الذين كانوا منبع إلهامها، فإن الحلم الذي قادني إلى السجن كان من الممكن أن يتحطم داخلي، وبالتالي من حولي. وها أنذا، وقد تحرّرت من سلطة التأثير، أجد فيها علاقة فريدة ما بين

الأدب والحياة عندما تعني هذه الأخيرة النضال الذي يروم تحقيقها الكامل وانتصارها. لذا، فإن اقتسامها اليوم مع القارئ يأخذ معنىً مغايراً.

ع.اللعبي

كريتيبيّ. 2004

9 فبراير 1972 (2)

جوسلين،

أن أكتب لك رسالة كان هذا يعني دائماً بُعدي عنك وحبّي لك بحدة موجعة. كم رغبت في مكاتبتك وأنا لا أزال في غياهب المكان الأول الذي سجنّت فيه. كنت أود مكاتبتك لأتحدث عننا نحن الاثنين لأنني كنت أشعر بأن ما يربطني بك هو الحبل السُّري نفسه الذي يصلني بباقي الأشياء الأخرى، تلك «الأشياء» التي قد يتراءى لك أحياناً أنها وحدها تستأثر باهتمامي.

أنت تعرفين أنني خجول معك عندما يتعلق الأمر بالحديث عننا نحن الاثنين، أي أن أرانا من الخارج. اليوم أريد أن تكون رسالتي قصيرة. إنها لا يمكن أن تكون غير ذلك لأنني أشعر بك داخلي بقوة.

أحبك. سوف أكون معك بكل جوارحي عندما سيتأهب المهدي أو قُدس للخروج إلى عالمنا.⁽³⁾

22 فبراير 1972

يتصدى الفجر لتيهان الأرق

يَدُكِ الحلمُ تنبعث في مضجعي الجريح

كانت رقابنا مشرعةً للريح

تتسابق نحو النجوم

والأرضُ تلهث في صدورنا

كوكبةُ جياذ نافرة

الينابيعُ تنفجر عند أقدامنا

وينتصب النخيل أقواس قرح ونصر
وتسير غابة الذكريات
يعدنا البحر بجزره
بزبدٍ أشرعته
جنباً إلى جنب، غير منفصلين
صباح الخير محبوبتي
شهامتي وبيرقني
حربتي الصاعقة
وصدق صوتي
أعيدُ خلق العصافير النادرة
وسحر الغسق
وأنتصب
كي أستحقك أكثر
كلّي لك.

28 مارس 1972 (4)

ياسين، هند، طفلاي العزيزان، (5)

أكتب إليكما هذه الرسالة لأقبلكما بحرارة بالغة، لتشعرا أنني أفكر فيكما كثيراً.
أعرف جيداً أنكما أنتما كذلك تفكران فيّ وترغبان في رؤيتي. لم يسمحوا لي
حتى الآن بمقابلتكما. لكنني أستطيع رؤية جوسلين، وفي كل مرة أطلب منها
أن تقبلكما بحرارة وأن تطلعني على ما تفعلان، هل أنتما حزبان، وإن كنتما

تعملان جيِّداً في المدرسة. كما أنني أستفسرها عن أحوال قُدس حيث أعلم أنها سمنت كثيراً منذ أن غادرتُ المنزل.

لا بدَّ أن جوسلين قد أخبرتكما أنني الآن في سجن الدار البيضاء. السجن مثل دار كبيرة تحتوي على عدة حجرات، وما يميزها عن دار كدارنا هو أنه لا يمكن للمرء أن يخرج منها حسب مشيئته.

إنني آكل وأنام جيِّداً هنا وأسكن مع أصدقاء لي في الحجرة نفسها. هل رأيتما يا أحبتي؟ السجن ليس أمراً خطيراً. فكثير من الناس مثلي، في كل البلدان ومنذ زمن بعيد دخلوا السجن. هؤلاء الناس مثلهم مثلي، كانوا يعملون دائماً ليتمكن كل الرجال والنساء والأطفال من أن يأكلوا جيِّداً، لكي لا يرتدوا ملابس وسخة وممزقة، وحتى يجدوا منزلاً نظيفاً وصلباً وبه ضوء (ولكي لا يسكنوا منازل «وقعت لها حادثة» كما قالت هند، ذات يوم، ونحن نمزُّ بأحد الأحياء القصديرية). عندما نعمل من أجل ذلك، يكون السجن نصيبنا أحياناً. لأن الناس الأغنياء لا يقبلون ذلك وإلا فإنهم سيصبحون أقل غني. على كل حال، سوف تفهمان هذه الأمور شيئاً فشيئاً كما ستفهمان أشياء أخرى أكثر تعقيداً. وأنا متيقن من أنكما أنتما كذلك ستدافعان عن الناس الفقراء، لأنني أعرف فيكما قلوبكما الكبيرين.

طفلاي العزيزان. أنا هنا حيث أنا جد فخور ولي ثقة كبيرة في المستقبل. وفي يوم من الأيام – لا أستطيع تحديده بالضبط – سوف أخرج من هنا ونصبح من جديد مع بعض. وإذا كنا لا نستطيع اليوم أن نلتقي فإن كل واحد منا يفكر في الآخر وبذلك نحسُّ وكأننا مع بعض لأن المحبة التي تجمعنا قوية وعظيمة.

اكتبا لي أنتما كذلك رسالة صغيرة لتقولا لي فيما تفكران وما تفعلان. أقبلكما بكل حرارة وأطلب منكما أن تقبلا قُدس عني.

سأكتب لكما في مرة قادمة. أبوكما.

15 أبريل 1972

حبيبتي،

(...) في هذه اللحظات التي أكتب لك فيها بدأت تظهر تباشير نهار جديد. لقد استنفقت منذ مدة حيث كان الظلام مازال دامساً. الرفاق ما زالوا نياماً. أفكر

فيك. يستهويني هذا الصمت حيث أستطيع أن أتفرّغ إلى نفسي وأن أفكر فيك. في مثل هذه اللحظات. أنا لك بكل كياني (...).

ها أنت تمتزجين فجأة بالمدينة الكبرى التي تستيقظ من سباتها، بل أنت هذه المدينة التي أغرق فيها بكل حمية. إنها ليست أزقة أو بنايات بل مدّ محجوز يخفق في الأعماق، هناك وراء كوة زنانتني، هنا في قلبي وأحشائي.

أنت ذلك الوعد بالزلازل والعيد الكبير، أنت الأمل على مرمى الهذيان.

مدينتي الشاسعة النضرة، ها أنت تتفجرين ينابيع – معجزات تنحلُّ فيها عُقْدُ جراحي. ألتئم بدفق ينابيعك وأحترق. كم يشبهك هذا الصمت الذي يخنقني. كم يؤلمني.

لقد عجزت دائماً عن وصف لون عيونك بدقة. أهى زرقاء، خضراء، بنية مشوبة بالرمادي؟ ذلك يرجع لكوني كلما نظرت إليك أجدني قد ابتعدت عميقاً وأنا سرنا بعيداً مع بعض. وإذا ما خفضت أحياناً بصري فلكي أتأمل مسيرتنا (...).

19 ماي 1972

زوجتي الحبيبة،

منذ يومين وأنا أرغب في مكاتبتك. لكنني لم أتمكن من ذلك. لقد عشت منذ الأربعاء الماضي نوعاً من الانقباض نتيجة التأثر البالغ لرؤية أطفالنا ونتيجة خروجي للمستشفى قصد إجراء بعض الفحوص. كنت تحت الحراسة المشددة لذلك النوع من البشر الذين يرتدون زيّ الغاب والذين تكفيني نظرة خاطفة لهم كي أشعر بالغيثان. بالإضافة إلى هذه الحياة اليومية الرتيبة والتي تطرح أحياناً بعض المشاكل الصغيرة، فالحساسية تتضخم هنا إلى حد كبير نظراً لضيق المجال الحيوي ولمستلزمات الحياة الجماعية.

لكن هذا الانقباض بدأ يتلاشى الآن، ربما لأنني أخاطبك منذ هنيهة، وأنت تعرفين كم هي متميزة لحظات حوارنا هذه (...). الأطفال. ماذا عساني أقول؟ يبدو لي أن ياسين قد كبر. لقد أحسست من خلال الكلام القليل الذي سمعته منه أنه قد نضج بشكل كبير. أما هند، فإنها كانت جدُّ متأثرة وكأنها تائهة. ولكنني تلمست عندهما نوعاً من السعادة والقوة. على كل حال هذه مجرد انطباعات أولية وكل ما يمكن قوله هو أنني واثق منهما، واثق منك (...).

2 يونيو 1972

تحية صغيرة لوردتي، لأجمل وأعزّ وردة على قلبي في غمرة هذا الربيع الجريح.

كم كانت استفاقاتنا حلوة، وكم هي حلوة الآن بذاكرتي.

لماذا أفتقد الآن يديك؟ أظافرك التي تقضمينها وأنت تناهزين الثلاثين! هكذا أحب أصابعك. العروق البارزة على يديك التي تستمد خضرتها من ذاك الاخضرار الغابوي عند الأفق. هكذا أحب يديك. ينبوع حنان يروي أحلامي الظمأى برشقات صغيرة من الهيجان. عطشي لم ينطفئ بعد.

تحية صغيرة لوردتي، لأجمل وأعزّ وردة على قلبي في غمرة هذا الربيع الجريح.

كم كان هذا الصباح رائعاً. وعندما رفعت رأسي، وجدت أن راية العودة ما زالت خفاقة.

1 يوليو 1972

حبيبتني،

أكثر فأكثر، أستطيع لجم الضجر وإخضاعه لتطعيم الغضب الأعظم، ذاك الذي يشيّد الصروح ويؤسس الإنجازات، ذاك الذي تختمر فيه الوثبات القادمة. وها أنت تتربعين على غضبي. كلمات الحب التي تنطقين بها هي قصيدة هذا الغضب وآية هندسته. ثم تزمجرين في داخلي كبحر يتلهف لمامسة شطآنه، يتلهف للرمال الدافئة ولطراوة بطن الأرض. جسدي موضع الزوابع، موضع اللقاء والانطلاقات، موضع التآكل، الانصهار والولادة، موضع الصاعقة والزلازل. وأنت تعتلين مركز الحركة. نفسك يُلهثُ نَفْسِي. نحن لسنا من مادة بائدة ولكننا جزء حيٌّ من كل ما يتحرك باستمرار نحو بعث أشكال عليا للحياة.

ماديتي ليست مبتذلة. إن وجهتها لا تفارق أبداً درب الإنسان، قدره الذي لا يُضاهي.

منصهران نحن في هذه الملحمة. كيف نخاف هذا الرشح التافه من الزمن ما دمنا متيقنين من تواصلنا اللامتناهي؟

أحبك فيما بعد الزمن المعيش والقابل للذكرى، إلى أن تُصَيِّحَ ذرّات رمل لا تنفصم. أحبك. وأحبك هنا والآن، لحمة منزوعة من كبدي وقلبي. أبداً منصهران.

8 غشت 1972

حبيبتى،

كيف أشعرك بحضوري الكامل بدون أن أحدثك عن الحالات التي أعيد فيها النظر في ذاتي وأشحد من جديد كل أسلحة النقد كي أعيد تقييم كل شيء: الأسس، الركائز والبنيان بكامله. تلك الحالات الصعبة التي يهزني فيها القلق ويدفعني للتمرد على كل مكسب أشك في صلابته أو أكتشف فيه بعض التسرع أو التساهل.

حقاً، لست من طينة البُناة الذين يشيدون باطمئنان تام ويتأكدون من حين لآخر من نتيجة أعمالهم ومستوى تقدم إنجازاتهم. بل إن لي طبع الزارع المهووس دوماً بالأرض، بالناس، بالشمس، بالماء. اللاهث من موسم لآخر والذي عليه أن يعيد الكرة دون انقطاع. منذ وضعوني هنا وأنا أحاول أن أتأمل، أفهم، أقيم موازنة لِنفسي وللذور. ما أقوله لك في رسائلي، هو ما أستطيع أن أنزعه من العاصفة الداخلية ليصبح مكسباً لا يندثر. لكن العاصفة مستمرة وتدفعني نحو أصقاع لا منتظرة تصعقني بأجديات غريبة. فأصارع، أفتح عيني، أفتح القلب والذاكرة وكل ملكاتي مجتمعة كي أفهم، أتقدم، كي أتغلب على العاصفة، أتمكن منها وأجعل منها منبع قوة تساعدني على اجتياز التعثر والعجز. إنه ليفزعني أحياناً أن أكتشف محدودية الإنسان خصوصاً إذا اعتبرنا كل ما يمكن له أن يستشعر، يتخيل، يتلمس من إمكانيات على امتداد الماضي والمستقبل. إن التفكير بهذه الوتيرة له مخاطره. فقد يتحطم المرء أو يفقد كل صلة بالواقع. هو ذا حدّ الشفرة الذي تتم فوّه الرحلة، ينبجس البنيان ويأخذ شكله. البنيان الأدبي طبعاً. لأنني لم أتخلّ ولن أتخلّى أبداً عن العطاء الأدبي. فالأدب الذي أريده، والذي حددته كمهمة لِنفسي، إما أن يقتلني أو ينقذني من استبداد العدم. لكن، ما أحس به أكثر فأكثر هو أن الإلهام وحده لم يعد كافياً. إنه لصراع مرير وطويل النفس هذا الذي بدأ. ولهذا لن أسمح لِنفسي بعد الآن أن أتسرع أو أعتبر عندما أنجز عملاً ما أنه منته، غير قابل للاستبدال. لا لهالة القدسية، لا للوحي! علي أكثر من أي وقت مضى أن أستمّر في التعلم، أن أنفذ لكُنّه الواقع لأكون جديراً بالكلمة.

ما هو رأيك في هذا كله؟ إن رأيك أمر أساسي بالنسبة إلي. هل تعلمين أنني اكتشفت في الأيام الأخيرة – لست أدري إن كان هذا الشعور صائباً أم واهياً –

أنني قد كتبت «العين والليل»⁽⁶⁾ لأجلك أنت؟ والدليل على ذلك هو أن أي أحد لم يستطع أن يفهم هذا العمل بعمق كما فعلت أنت، حتى ولا أصدقائي القدامى، شعراء و... إلخ... الذين كان يفترض فيهم أنهم أقرب من «أسرار الأدب». أشعر وكأنني كتبت هذه الرحلة كي أحكي لك عن نفسي، عن معاناة الطفولة والمراهقة، عن وحدتي وتمردتي، ولكي أقدم لك تاريخنا، وطننا، آمالنا. كل ذلك بصوت خفيض، بين لمستين ونظرتي حنان. أقول هذا دون أن يخفي علي أن «العين والليل» كانت صرخة مدوية، سلخاً للجلد أمام الملاء، حديثاً فوق التل... مع ذلك، أشعر اليوم، كما قلت لك، أنه كان أيضاً مناجاة وقرباناً للمحبة. وقد يكون هذا هو سبب إحجامي عن أي إهداء (...).

24 غشت 1972

عزيزتي هند،

بدأ الدخول المدرسي يقترب. لم يبق لك إلا وقت قصير لكي تتعلمي أوليات الكتابة. لقد وعدتني بذلك، لهذا أنتظر أول رسالة تكتيبينها لي بخط يدك. أعتقد أن جوسلين على استعداد لمساعدتك. يلزمك فقط شيء من الإرادة والتمرس وسترين أن الأمر سيصبح سهلاً. تعديني أن تحاولي، أليس كذلك؟ ماذا تفعلين هذه الأيام؟ هل شاهدت أفلاماً جديدة؟ هل تعرفت على صديقات جديدات؟ وُقُدت هل تلعبين معها الآن؟

بالنسبة لي، لا شيء تغير هنا. كل ما هناك، أنني أفكر فيك. أكثر من السابق وأرغب باستمرار في أن أحضنك وأتحدث إليك. كما أنني أقرأ بعض الكتب وأكوّن كثيراً من القصائد في رأسي، تلك القصائد التي سأكتبها عندما أرى البحر من جديد والرمال الدافئة وكذا الأشجار والناس وهم يمرّون في الشوارع، عندما أراك أنت وياسين وُقُدت وكذا أجمل وأرق إنسان عندنا جميعاً: جوسلين.

أحبك كثيراً. أنت تعرفين ذلك جيّداً. أقبلك كما لو أن ذلك حقيقة.

8 شتمبر 1972

زوجتي الحبيبة،

عذوبة الصباح. المدينة تفتح أبواب مراقدها وخيامها القصديرية، تحتذي
شرايين آلتها الغامضة، تدفع بالمنبوذين فيها بحثاً عن الملح والماء. ألمُ الجذور
عندما يتشنج هذا الجسم الزاخر، المطعون في صدره بصليب المِخَن.

عذوبة الصباح. وَخَدَهُ النشيد يعيد الاعتبار للأرض، عندما تأتي الشمس لتطبع
فوقها لوحة الأمل القُرْحية.

عرقوب الحبيبة يبزغ فوق تموجات سوداء، برتقالية. القد الثالث للجسد،
بياضه العذري. لم يتغن به أحدٌ مثلنا نحن الشعراء العرب، وجدنا رصَّعناه
بحليات موسيقية، تخيلناه عنقاً منحنيّاً على الأرض ليخصبها بأهازيج نسائية.

عرقوب الحبيبة، لا يزال منتفخاً نعاساً حيث تهاجر غرناطة وحيث «راية
العودة» ترفرف فوق برج بابل أو قلعة «الباستيل» شامخة أكثر مما لو أنها
ترفرف في فضاء حر فعلاً.

لتلتفت، وها هي تبعث في باقي الجسد إيقاع قصيدي، حُمَّاهَا، كما لو أنها
شعرت بأن نظرتي تعيد رسم تعرجات عروقها المزرقة. العرقوب الذي كان
مستسلماً والذي يتهرب الآن لأن «عودة» تستفيق تبتسم لي وتهمس الكلمة
الأولى من قاموس النهار: أحبك.

تأملتك بكل قواي.

صباح الخير، وردتي. لقد أخطرتُ الشمس أن تسلمك هدية الصبح هذه. إليك
دائماً.

18 شتمبر 1972

حبيبتني،

يوماً بعد يوم، تستمر المسيرة، وترعد الجذور، تسمق الشجرة وتخفق راية
العودة دون أن تنال منها تجاعيد الزمن. لقد وصلنا إلى المنعطف الذي لا
نخشى فيه استعمال حروف البداية والذي تأخذ فيه الكلمات الأكثر بساطة
والأفعال الأكثر تواضعاً بعداً جوهرياً.

أعود من جديد إلى مسيرتي نحوك وأقول:

القصيدة السرية (تابع) (Z)

«وإذا كنتُ مجنوناً

وعطشي صحراء لا متناهية مهجورة

عطشي

مستراح القوافل المحرومة من الملح

مجنوناً

ولا تتبدى لعيني خيام

أبي أثرٍ لمطية أو نار

ولا أستطيع تخيلَ واحات حلمي

إلا في الليل الجليدي لكواكب معدنية أخرى

مجنوناً

والكلماتُ نفسها تنمرد

والأبجديات تنسحب إلى ذاكرة ما وراء التاريخ

مجنوناً

والرمالُ نفسها تنكمش

حاملةً سراها الأخير

مجنوناً

الصمت يعم الأرض

بينما يترعب الليل على كتفي

مجنوناً

أترنج

لا أترك شيئاً من حيرتي يظهر

أتوغل ببطء في المغارة

ومن هنيهة

دفنتُ آخر المعجزات...

سأتابع إذن. هذا المقطع هو لحظة تشبه مدخل المعلقات ك: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» لامرئ القيس. لقد تمعنت كثيراً في معمارية المعلقات، في منطقتها الشعري، وليس هذا من باب «الرجوع إلى الأصول» أو التعامل مع التراث كموضوع للإثارة والغرابة، لكن وبغض الطرف عن هذه الاعتبارات لأنني أتجاوب مع هذا الإيقاع المحدد للقصيدة، هذا العطاء من الحرية الذي تسمح به (ذلك طبعاً إذا ما استطعنا تفجير قشرتها الخارجية من قوالب شكلية ومواضيع ثابتة) (...).

هنا، ونظراً لافتقار الممارسة، لا نستطيع دائماً التغلب على نوع من الرتابة والجفاف. بل إن الفكر نفسه يفتقد حركته الدؤوبة ونشاطه المعتاد. لا يمكن كذلك أن نفلت من قبضة الابتذال الملازم للمعيش اليومي المحدود الآفاق. لكن الأهم في كل ذلك هو أن نستطيع الإمام، وفي الوقت المناسب، بآليات التجبر من أجل تعطيلها. وسلاحنا في ذلك هو الحلم، الضحك، التأمل، والتطلع إلى كل ما سيأتي. ومن حسن حظي أنني أتوفر على حوارك، على هذا الحب الذي ما فتئ يكبر ويكبر، على أطفالنا وثرواتهم التي تفعمني، على كل الأفكار التي لا يمكن أن تموت.

لذا، فإنني لا أقلق أبداً ولا أستسلم. إنني أبحر في «موجات اليقظة الكبرى». فمجال الزمن والانتظار يصبح نسبياً «والحياة الحقيقية» مؤجلة فقط. ولكن حتى هذا نفسه ليس مفروضاً عليّ، فأنا الذي أقوده، وأكتفي حالياً بإشعاع النار الكبرى التي تسطع، ليس بعيداً أو قريباً وإنما تسطع، إنني متأكد من ذلك وهذا يكفيني، كان الأمر يتعلق بعهد معقود ولا رجعة فيه.

وأنا أقول هذا، عودة يا روعي، يمكن أن أترأى لك قاسياً بعض الشيء، بل ربما «لا إنسانياً». لا تعتقدي ذلك، حبيبتي. فالعهد الذي أتحدث عنه، لا يستمد مشروعيته إلا من المسيرة التي أنتجته. وهذه المسيرة هي مولد حياستينا وحلبة الامتحان بالنار الذي نجتازه (كما قلت لي ذلك في يوم ما). حقاً، لقد كنت مُهيئاً إلى حد ما لمشاق هذا الدرب: سبق لي أن تعرفت على سماته وقاسيته في أعماقي وفي ذكرتي قبل أن أعاني من المحنة الجسدية نفسها.

ومن الممكن أن يكون هذا هو مغزى جزء كبير من «العين والليل» وكذا من بعض النصوص الأخرى كـ «غداً الزلزال» التي ذكرتني بها مؤخراً. لقد كنت مهيناً بالفعل وكذلك كنت أيضاً دون أن تعبّرني دائماً عن هذه الأشياء. أذكرك في هذا الصدد بما كنت تقولينه لي عن «العين والليل»، بالافتسام والإبداع المشترك اللذين كنا نمارسهما في تلك المرحلة.

لهذا كله، لن يستطيع القلق أن يستبدّ بي. أعرف أن الوقت يعمل لصالحنا كما يقال، أي لصالح كل ما يؤسس الإنسان ويجعل منه السيد والمالك وأيضاً أحلى كائن في هذا الكون، خصوصاً إذا كان يحب ويتذوق الشعر بالفعل (أقول هذا كي أظفر بابتسامتك).

ماذا أضيف اليوم؟ لن أقول شيئاً لأنك بدأت تشعرين بأن يدي تتوجه نحو شعرك وأنني مفتون بعينيك. لمسة أريدها في أتم العذوبة والرقّة كفجر محمّل بالندى نشاهده من فوق قمة ما بينما يحبس العالم أنفاسه. هكذا أنظر إليك ثم أفرغ كل قوتي في عينيك.

22 شتمبر 1972

زوجتي الحبيبة،

هذه الصباحات الغنية. مُرَبِّعُ السماء المُسَيِّجِ يحمل لي عبيرَ نَفَسِكَ. مدينة شاسعة أتخيلها وقلبها ينبض في صدري. رمال الينابيع الطرية. قبل يومين، صوتك من جديد، ضحكتك، عيناك، أناملك المحرقة. كنت ملتحفة بزي التراجيديا في ميلادها، معطرة بأبهى مستقبل. كم من وعود أعطيناها هوية دون أن نتوقف المسيرة. كم هو مُشوق هذا المرتجى الذي يوفّق كل الأحلام. في أي عالم نحن؟ وفوحان الحياة القوية هاته؟ على أي شيطانٍ ساحرة سوف نحط الرحال يوماً ما؟ أهتك المخيلة وأعلن الواقع الذي نبتغيه، صخراً ملموساً سنُخْضِعُهُ بدوره.

جميلة كموعده الانتفاضة، كأرجوان الحريق العادل.

نعم، وردتي العذبة، سنستحق الكلمة. سنستحق هويتنا البشرية سنستحق الحرية. هكذا أريد أن أكتب إليك ولا أستطيع مغادرة القصيدة، لأنها وحدها تستحقك. كيف العمل مع الكلمات المبتذلة؟ بينما مجال الكلمة هو برج مفتوح على كل الآفاق المحررة من اللغات الميتة والعواطف المُحتضرة، من الألوان العاقرة والأفعال السمجة. ها هنا بالضبط، نقطة تماس قلوبنا. ها هنا نسترجع

كينونتنا. ليس مثاليًا كل هذا. إنه تفجر الروح في المادة! كم من مرة تذكرت فيما يخصنا عبارة الحلاج وهو يحترق: «أنا من أهوى، ومن أهوى أنا». لا أتذكر باقي قولته لكنها تعبر عن ذلك التلاحم والانصهار الخارق الذي أحس به كل الناس من هذا النوع مثل رابعة العدوية والقديسة «تيريز دافيللا».

بطبيعة الحال، ما يهمنا نحن من هذا المثال، ليست هي الأجسام المادية أو اللامادية التي تصل إلى هذا الانصهار، بل خط السير، الرحلة، مساحة المحنة والتوتر الخلاق. أليس كذلك؟ إلي بكامل كيائك. أقبلك في ملتقى الروح والجسد، في نقطتي التقاء الألم والإشراق. كم أحبك.

5 نوفمبر 1972

جوسلين،

اليوم تسطع شمسٌ تشبهك. استحمت بأشعتها. من النافذة هنا، أرى في البعيد كتلة من المنازل والعمارات، بعض الأشجار: نخلة قصيرة وعلى الخصوص شجرة من نوع الصفصاف كثيفة الورق. هذا الصباح، أخذت بمنظر هذه الشجرة، بفيض الأغصان والأوراق التي تخفي جذعها وتتدفق إلى أسفل كشلال نافورة. إنها منتصبه نحو السماء على شكل موجات مترابطة، تلتقط من حبور نور الشمس الدافئ. هذه الشجرة، هل هي أنا أم هي أنت منبعثة أمام عيني؟ ربما يهطل المطر على الرباط أو ربما تغمر الشمس غرفتك وتجعلك تتخيلين الرؤى ذاتها، تشعرين بوخز الحنين ثم تحمل إليك تَفْسي.

سأحاول في المستقبل تعميق كل هذه الأشياء التي يمكن أن نشعر بها في هذا الوضع: الحياة خارج الأسوار، داخلها ومجمل الترابطات، العين والقلب، الأحلام المتفردة، وظيفة كل حاسة أو عضو، النبض والإيقاع، الموسيقى (لأن كل وضع ترافقه موسيقى معينه أو إيقاع ما). أحياناً أشعر وكأن هذه الموسيقى تخرج من صدري فأسمعها بكل وضوح. نعم، يجب تعميق هذه الأشياء، في المستقبل.

أما الآن ودائماً كأول مرة في العمر، عندما يجفُّ الحلق ويخفق القلب بعنف، أقول لك أحبك، أنت خزان الحنان، يا امرأتي العذبة. كلي لك.

1 ديسمبر 1972

حبيبتى،

(...) مساء اليوم الرابع⁽⁸⁾، اختفى الجوع، جسمي يدهشني. صَحُّ تام. قدرة تامة على الحركة إلخ.. وكأن شيئاً لم يكن. من الغريب حقاً أنه في ظروف أخرى، يكفي أن تنقص وجبة واحدة فيختل كل شيء! (...).

4 دجمبر 1972

حبيبتى،

ليلة أخرى شعرت فيها بحضورك، بحضور ياسين وهند كذلك. ثم أقبل الصباح ليحمل إلي حضورك بشكل أقوى. كل شيء علي ما يرام في هذا اليوم السابع. فقط كان الأسبوع طويلاً بعض الشيء. أنتظر يوم الأربعاء. أنتظر أن أقرأ لك أيضاً. أفكر فيك بملئي.

8 دجمبر 1972

جوسلين،

لست راضياً عن نفسي لأنني لم أكتب إليك منذ الأربعاء. ربما قلقت بسبب ذلك. لحد الآن، أنا على أحسن حال. لا شيء تغير. أتمنى أن أبقى قادراً على الوقوف إلى حين لقائنا القادم. سأقوى على الوقوف. ثقتك تساعدني وتطمئنني (...).

أحس مع ذلك بفراغ في رأسي. لكن الليل أكثر خصوبة لأنني أحلم. أشعر برغبة في الكتابة. إنما فيما بعد.

6 مارس 1973

زوجتي الحبيبة،

(...) بعد أيام قلائل، تنقضي سنة كاملة على وجودي في هذا السجن. زمن طويل وقصير في الوقت نفسه، صعب التحديد.

لا شيء يدهشني إلى حد أن ينزع مني الصبر. لقد تعودت على هذا الفضاء الضيق، على الجدران والقضبان، على رفاق المحنة وعلى هذا المربع الصغير من السماء، على الأشجار والمنازل القليلة التي أستطيع رؤيتها من بعيد. لكن العالم الخارجي يزمجر مع ذلك في داخلي. إنني أستورد منه ما هو جوهرى وأزرع كل الورود التي تحمل اسم الأمل، الثقة والتجدد. أتوَّجُّ وسط هذه الباقية وردتي الأرجوانية التي لا تكف عن نداء هبوب العودة. لك بكليتي.

21 مارس 1973

حبيبتى،

لقاؤنا منذ قليل، أمدده بهذه الرسالة. لدي رغبة في المزيد من الحديث إليك وترديد الكلمات التي لا يليق بها إلا الهمس. حضورك حرك أحاسيسي بعمق هذا اليوم. لقد هممتُ معك وُثِّهتُ في كل جزء منك سَمَحَتْ به القضبان فمَنَحْتِنِي إِيَّاهُ. كم هو عذبٌ أن أرى يديك وعنقك، أن أرى شعركِ وثغركِ الجنوني، أن أرتمي في أعماق عينيك، بحرهما الصاخب المحرق، سفينة خمر وأعراس. أستعيدك كاملة في مثل هذه اللحظات، أَلْقُنَا الحميمة، المحمومة، السعيدة، المنشرحة، عواصفنا البركانية، نجومنا التي لا تحصى، أمطارنا وروائح أجسادنا. ثم هدوء اكتمالنا وأحلامنا في أعالي الحنان. وحتى دفؤك يجلدني. حقاً، إنهم حرموا أيدينا من التلاقي. لكننا سنغرف دون كلل من ذخائر الماضي والمستقبل، من فيض توحُّدنا. أشعر أنني قوي فيك وأشعر بك كاملة فيّ. أريدنا وثوقين، دائمي الثقة في حلول العيد الكبير الذي سيكون عيدنا أيضاً، عيد دموع الفرح والرغبة الجامحة في العطاء.

أريدنا صبورين، محيطين بأدق الأمور، مُسَيِّدِينَ، أريد لنا عناد النحل والنمل، أريدنا زهراً أبدي الفرح.

أريدنا متبصرين ومتفهمين، منظمين وحالمين بكل الوعود الممكنة. أريدنا ربيعاً متوجعاً بالخصوبة، نُهوضاً أكيداً.

إنني سعيد. يا للمفارقة بالنسبة للطغاة أعداء الشمس! الأمر كذلك، لأن الإنسان الجديد يترعرع يوماً بعد يوم، في خضم المحن والجراح، ضد الشيخوخة ومحاكم التفتيش، ضد الجثث. أنا سعيد بفضلك، بفضل حبك المتألق، بفضل السلام المنقذ لعينيك.

أعطيك يدي. نحن هكذا على الدوام. كيف حوّل «يوكونغ» الجبال؟⁽⁹⁾

4 أبريل 1973

زوجتي الحبيبة،

توصلت منذ لحظة برسائلك الثلاث وكذا رسالة من ياسين كتبها يوم الاثنين الأخير. كل هذا مباشرة بعد الزيارة. كم من أشياء طيبة وجميلة بعد كل أيام الشدة والوحدة هاته.⁽¹⁰⁾ اغرورقت عيناى بالدموع وأنا أقرأ رسالتك لشدة ما كنت أشعر بحضورك ولشدة ما كنت تبعديني عن التفاهات التي يعتبرونها مصدراً لقوتهم. وكم كنت رائعة منذ هنيهة.

بعد الزيارة، خرجت للفسحة (عشر دقائق حقيرة في ممر ضيق). كانت الأسوار ترسم فوق رأسي مربعاً من سماء نادرة الزرقة. وتذكرت قصيدة لناظم حكمت يتحدث فيها عن السعادة، إلا أن سعادتي في تلك اللحظة كنت أعبّها من بحر عينيك، ومن امتلائي بك. أنت تعرفين أن قوتي تنبع من قوتك التي تنبع بدورها من قوتي. ولهذا يجب أن نتحدى الصعوبات بالثقة نفسها. يجب أن نتصر عليها (...). لا أقدر على التركيز هذا المساء. إنه على كل حال لأمر صعب العيش في زنزانة منفردة. إنما لا يهم، ما دمنا نحس أن حرارة الرفاق تخرق الجدران، وأننا نحلم، نصون نار الغضب المقدسة ونغور في أعماق ذواتنا. لكي تتسمي، أحكي لك هذا خلال الليلة الثانية فوجئت بوجود فأر كبير داخل الزنزانة. لقد استطعت التغلب على التخوف الذي اعتراني للحظة وتمكنت من صده إلى جحره (وهو ثقب المرحاض). وبما أنني لا أرغب كثيراً في مثل هذه الزيارات، وضعت فوق الثقب إناء مليئاً بالماء. من حين لآخر كان الفأر يحاول الخروج ولكن بدون جدوى. هكذا شعرت بطمأنينة تامة بعد هذا الاحتياط.

أعرف أن الأحاديث حول هذا النوع من الحيوانات لا تعجبك بشكل خاص. ولكن كان ذلك لأجل أن أسليك قليلاً (...).

18 أبريل 1973

جوسلين، حبيبتى،

(...) علاقتي بالعائلة، أضعها في مستوى آخر. هذا أكيد. أنا لا أُوأخِذُ أحداً. بل أكثر من ذلك، فإن كل هذه «اللامبالاة» لا تؤلمني. أنا أفهم سلوكهم. قد يضيق المجال كي أتحدث عن كل هذا (يمكن أن يكون ذلك موضوعاً لرواية من النوع المفضل في الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية!). لكن، وبسرعة، سأركز على الأهم. أنت تعلمين أنني كنت منذ المراهقة شخصاً متمرداً (قدر محتوم!). كنت أعني حسياً كل ما أرفض أن أكونه وأسلكه: جن، شعوذة، حسابات، محددات سلوكية، ثرثرة، هيستيريا، قمع على جميع مستويات الكائن، وصولية، تواطؤ شامل، تحجر. تألمتُ من جراء كل هذا وألمت الآخرين (لنقل ضايقتهم). وعندما غادرت فاس كان ذلك بمثابة قطيعة غير معلنة ولكنها حاسمة. زيارات متباعدة، بدأت الروابط تتلاشى شيئاً فشيئاً. كل ما قمت به منذ الخامسة عشرة، وبعد ذلك منذ أن غادرت فاس، كان خارجاً عن المحددات السلوكية والروابط، وعن كل ما يمكنه، من قريب أو بعيد، أن يتماشى مع شيء اسمه الاندماج أو التنازل. حتى الزواج الذي يشكل في هذا الوسط عنصراً فعّالاً حاسماً في عملية الاندماج أو على الأقل في لمّ الروابط من جديد، حتى الزواج إذن كان شيئاً مغايراً في حالتي الخاصة (لقد كان من أجمل ما قمت به في حياتي). إذن، تَبَاغُذُ آخر، سبيل آخر. لم تكن هناك أي ثغرة للعودة المألوفة إلى الينابيع (...).

2 ماي 1973

زوجتي الحبيبة،

(...) لا أريد أن أخلق لديك انطباعاً عن شيء اسمه القساوة الأحادية. أحرص على ألا تكون هذه هي صورتني عندك. يحدث لي بطبيعة الحال أن أعرف عذاب الحيرة والقلق والاختناق. وهو أمر طبيعي على مستوى قلب وجسد إنسان. لا يمكننا في بعض الأحيان أن نصدّ عنا سيل التفاهات: سباق الزمن، الشك، فكرة الشيخوخة والموت، «كيف سنجد بعضنا البعض»، كيف سيصير الأطفال، ما يمكن أن يصيب الحالة الصحية من تدهور مفاجئ. وعلى مستوى

أشمل منا نحن، مستقبل هذا الوطن، استمرارية وصلابة الرجال. كل هذه الأشياء، أترين؟ لهذا لا تتخيليني كبطل منحوت من قطعة واحدة أو كُمبشِير متهوس لا يعرف التناقض أو الحيرة (أعرف أنك لا تتخيليني بهذا التبسيط)، بل تتخيليني دائماً حياً ومُصارعاً، في التناقض والوحدة ولكن أسير دائماً إلى الأمام، صارعاً من حولي وفي داخلي ترسبات الإنسان القديم وحتى بعض الأوهام التي يمكن أن تكون عندي حول الإنسان الجديد. على هذه الصورة أتخيلك أنت كذلك: نفس اليقظة، نفس العناد، نفس الصحو (...)

3 ماي 1973

حبيبتى،

أعتقد أنني لم أصف لك إلا نادراً أو بشكل مختصر حياتي هنا. ذلك لأن الأساسى في هذا المعيش ليس هو الآلية المفروضة علينا. أما الديكور فهو محصور في حد ذاته. لقد فضلت حتى الآن أن تتصوريني في لحظات الحدة الحيوية، عندما أفكر فيك وفي كل الأشياء الهامة. تلك اللحظات التي لا يمكن أن أكون فيها إلا حُرّاً، لأنني أكون فيها بعيداً عن هذا المكان ولا أعرف فيها أية حدود.

مؤخراً، شعرت بالحاجة لأن أحدثك حتى عن هذه الأشياء البسيطة لكي لا يبقى أي شيء مني غريباً عنك. إلا أن وجودي هنا أصبحت له قصته الخاصة. كما أن حياتي عرفت تحولات منذ مارس من السنة الماضية. وأنت تعرفين معظمها. لهذا لن أتحدث لك إلا عن الوضعية الراهنة.⁽¹¹⁾

الزنزانة التي أوجد فيها مع اثنين من رفاقي صغيرة بعض الشيء. لكننا استطعنا أن نتكيف، فبقي مجال صغير للقيام ببعض الخطوات. هناك رفاً من الإسمنت ملصقان في الحائط نضع عليهما أمتعتنا وبعض الأواني والزاد. في إحدى الزوايا يوجد المرحاض وصنبور الماء. الزنزانة لا تتوافر إلا على نافذة واحدة، عالية. مما يضطرنا إلى استعمال الإنارة طيلة النهار. لدينا كذلك حصير وأربعة أغطية (اثنتان نفيترشهما ونستعمل الباقيتين كغطاء) يبقى الباب مقفلاً طيلة الوقت ولا يفتح إلا لكي نأخذ «الحساء» أو عندما نخرج للفسحة. حتى الآن، لا نخرج إلا مرة في اليوم ولمدة ربع ساعة فقط. هناك ثلاث ساحات للفسحة: إحداها واسعة شيئاً ما توجد بها قطعة أرض تنبت فيها شجيرة فلفل وبعض الأعشاب، أما الأخرى فهما ضيقتان جدّاً. في بعض الأحيان يسعدني الحظ فأخرج إلى الساحة الكبيرة وأحياناً أخرى لا أتمكن من الخروج إلا لإحدى الصغيرتين. يمكننا أن نحلق أو نقص الشعر متى شئنا نظراً لكون الحي يتوافر على حلاق دائم. وكل يوم ثلاثاء نذهب إلى الحمام. نستيقظ في الساعة

السابعة والنصف أو الثامنة صباحاً، وننام (أو بالأحرى يطفئون الأنوار) حوالي التاسعة ليلاً.

فيما يخص «الحساء»، تتكون وجبة الغذاء من حمص ومرق أو عدس أو لوبيا بيضاء حسب الأيام. في المساء تشتمل الوجبة على حساء بالمعكرونة أو بالأرز. ومرتان في الأسبوع يقدم لنا الكسكس مع قطعة صغيرة من اللحم. كما يقدمون لنا ماء ساخناً للشاي أو القهوة ثلاث مرات في اليوم. أما زيارات الطبيب فتم يومي الاثنين والخميس. هكذا أكون قد أطلعتك على كل شيء تقريباً.

إذن «فأعظم اللحظات» في اليوم هي أوقات الفسحة والوجبات، وحسب الأيام، أوقات الزيارات وعند قدوم أحد المحامين وكذا يوم الحمام. ما تبقى من الوقت نخصه للقراءة، ومنذ أن أصبحت في صحبة رفيقين نقضيه في استرجاع الذكريات أو التسلي ببعض المواضيع الطريفة. ومن حسن الحظ أن الرفيقتين المقيمين معي في الزنزانة كثيرا المرح: فقد أضحكنا «ح» كثيراً وهو يحاول أن يصور لنا مجتمع مدينة أزرو بقوافل المتعاونين الأجانب غربيي الأطوار وعدد آخر من النماذج الاجتماعية، ووعدنا أن يستمر بالأسلوب نفسه هذا المساء.

من المستغرب أنه في كل الظروف التي عِشْتُها هنا إلى الآن، وحتى خلال فترات العُزلة لم أعرف أبداً شيئاً اسمه السأم. فقد كان رأسي دائماً مملوءاً حتى التُّخمة، وكذلك كان قلبي. حتى أنني، في بعض الأحيان، أجد صعوبة كبيرة في العودة من عالم رؤاي وأحلامي. ثم هناك الأشياء التي تعرفينها جيداً، تلك التي أحدثك عادة عنها والتي تعلو على الباقي.

شيء آخر. قد يعتقد البعض أن الوقت في السجن أطول من غيره. أعتقد أنني أحس بالعكس تماماً. فالنهار يمر بسرعة لا بأس بها، ربما لأن لا شيء يحدث أو ربما لأن العمل شيء مفقود. أظن أن للقراءة والحلم دوراً كبيراً في ذلك. ثم إن الوقت غير موزع على شكل ساعات ودقائق، زمن اجتماعي وزمن اقتصادي وآخر ثقافي إلخ. إنه زمن غير قابل للتوزيع ينقضي من خلال قطع من الانفعالات والأحلام والحوار الأخوي الإنساني. بالنسبة لي كذلك، فهو زمن يصلني بك دون انقطاع. إنه زمن الحب والزخم.

لقد جعلتك تعيشين معي بشكل مختلف هذا المساء. إن حياة السجن حياة متواضعة. ولكننا استطعنا ألا نكابدها ككابوس «أو كهوان وضعف». جعلناها أهلة بقيمنا الأكيدة واحتفلنا فيها بانتصار الحب.

هل أحزنتك حبيبتى؟ لا، لا أريد ذلك. كنت أريد أن أجعلك تلمسين خفقات قلبي في تتابع المعيش العادي.

4 ماي 1973

جوسلين،

(...) خرجت للفسحة مرتين، صباحاً وعشية. تحسنت الوضعية. أعطونا برتقالاً مع وجبة الغداء. عيني على وشك الشفاء.

كم هي غريبة هذه الأصوات التي تأتي من الخارج وكم هي بعيدة، حركة المارين، التجارة، المقاهي، الناس وهم يلتقون، يتبادلون التحية وبعض الكلمات، الضحكات، النداءات، المدينة العملاقة، معاملها وأقيبتها الهمجية. وأنا فوق هذين المترين المربعين، جاثم بكل عضلاتي وأعصابي، أتقصي هذا الحلم في اليقظة، مفصوم عن كل هذا. الحديد مادة عازلة. لكن علي أن أشد حواسي الأخرى لأعوض عما ضاع مني.

أرى الآن بشكل أحسن تناقضات هذه المدينة، وأبعد من ذلك مستقبل هذا البلد، ما يجدُّ الناس في البحث عنه (...).

22 ماي 1973

امراتي الحبيبة،

كم كان سخيماً أن أحدثك عن الشيخوخة. نحن لم نكف أبداً طوال هذه المحنة عن استعادة شبابنا وإعادته للعالم. الشيخوخة هي ما نتركه وراءنا كلما حققنا انتصاراً على نواقصنا، كلما كسرنا حلقة أخرى من أغلال العالم القديم. الإنسان القديم هو الذي مازال يزرع دون حراك تحت وطأة عهد البربرية، لكن الإنسان الذي يتكون داخلنا يكتسب طاقة التجديد والشباب الدائمين. كيفما كان عمر حينا، ستبقى دائماً فاتنة بالنسبة إلي. نحن لا منفصلين. الشيخوخة، هذه إحدى أسباب حيرة الإنسان المبتور من أسمى قيمه. لن تنطلي علينا الحيلة.

تحدثيني عن الأسفار! نعم كم سيكون ذلك رائعاً. أتعرفين، أحياناً أرتعش لمجرد فكرة الطريق، أي وسيلة للنقل، الريح وهو يعبث بشعري. أتخيلك وأنت تسوقين، وهذه الصورة وحدها تسكرني. كم أود أن أكتشف معك بلداناً أخرى،

لكن الأهم من ذلك كله هو أن أكون بجانبك، أن نعيد الحياة الحقيقية من شُطآنها البعيدة. أن نكون جنباً إلى جنب، تلك قمة الروعة (...).

منذ أن دخلت السجن ومسألة تربية الأطفال تستأثر باهتمامي. تستهويني فكرة كتابة العديد من الكتب للأطفال: حكايات، مختصرات «فلسفية» تبسط لهم «المشاكل الكبرى»، كتابات عن قضايا شتى كالصداقة والعلاقة بالآباء الخ... هذا النوع الأدبي يكاد يكون منعزلاً عندها، ربما لأننا نعتبر عملياً أن الأطفال «كائنات بدون روح» (على غرار النساء). هذا عمل من الأهمية بمكان أمل أن أحققه في يوم ما. ما رأيك؟ (...).

27 ماي 1973

زوجتي الحبيبة،

أحس ببعض النرفزة منذ يوم أمس. تحريك الملف من جديد قلب نوعاً ما نظام الحياة اليومية. ولكن، مهما كان المال، فإن هذه الوضعية الجديدة فيها جانب إيجابي، إنها ستضع حدّاً لمرحلة من الانتظار وعدم اليقين. ولكنني أشعر بالثقة، ثقة مستمدة من أقوى واقعية ممكنة.⁽¹²⁾

لا أتمالك من التفكير في لقينا مهما كان الأجل. وهذه الرؤيا تغمرني سعادة، تستنفر حماسي.

في أحلامي يتعايش المستحيل مع اليقين. أرى كل المحاسن: مراعي بحجم قارات، شمس، محيطات من الزهور. ألقى من جديد الزبانية تارة بوجه متجهمة متوعدة، وتارة في حالة من الوهن تثير الإشمئزاز. أرى عمراناً ومدناً أصبحت أليفة لكثرة ما تتردد على أحلامي. وغالباً ما نكون حاضرين، جنباً إلى جنب في عطاء متبادل، تارة نسرق من كل المحرمات والتهديدات لحظة انتشاء ولذة، وتارة أحراراً من كل شعور بالمحرم نواجه باطمئنان مشاغلنا اليومية كما كان يتم ذلك في الماضي.

شيء يتكون، هكذا، دون وعي لنا به، قصيدة. حياة جديدة، محنة، ثم ماذا أيضاً؟ خلال النهار أستعرض المستقبل. أتعلم كيف أرتبه بدقة. أو أضيء الماضي، أغربل، أختار، أدعك الأوراق الذابلة وأرميها، أقتلع الأعشاب الطفيلية.

أكثر فأكثر، أكتشف الطيبوبة، كل خصوبة هذه الفضيلة. أنصت، أفهم، أعشق، أمسك باتجاه الحركة عوض اللحظة، بالشمولية عوض العنصر المعزول. أتعلم

الإنسان من جديد، التاريخ، العالم.

كم أحلم بربيع الإخاء والحب والحرية.

أتعلم من الصمت بقدر ما أتعلم من الجلبة.

وردتي الأرجوانية، أحملك في داخلي كجنة تعم الأرض ليعيش فيها كرام
الرجال ذو الأيدي الخشنة، أحملك في داخلي كمنجل الفاتحين البسطاء
والعنيدين، أحملك كالأمل الحار. لك كاملاً.

28 ماي 1973

حبيبتي،

(...) فيما يخص الأطفال، أعتقد أنك تعلمين أننا نعمل لأجلهم كل ما هو ممكن.
ولا يجوز أيضاً – أعتقد أنك تشعرين بذلك جيداً – أن نعمل أكثر مما يلزم. مهما
كانت النيات الحسنة، يمكن للأطفال أن يشعروا بسببنا بالاختناق والضييق
والحيرة. فالأطفال هم كذلك يرغبون في أن تكون لهم تجاربهم الخاصة وأن
يكتشفوا الأشياء وقيموا أحكامهم بوسائلهم الخاصة. وكما هو الشأن بالنسبة
لأي تجربة، لا بد أنهم سيقعون في بعض الأخطاء والتجاوزات... ولكنهم
سيطورون أيضاً طاقاتهم الخاصة ويتمكنون من فرز الصالح من الطالح، من
استشفاف الإشراقات الحقيقية ومن خلق قيم جديدة. إن دور الموجه هو
بالفعل صعب ودقيق. لأنه يفرض تجنب التوجيه القسري والقمعي الذي يؤدي
إلى «تكوين» كائنات مشوهة إلى هذا الحد أو ذاك. كائنات يطبعها ضيق الأفق
لدرجة ينعدم معها لديهم أي استقلال ذاتي فتصبح ببغاوات محافظة... أن
نوجه، فذلك يعني على الخصوص، وهذا رأيي، أن نحاول تنمية القدرات
الكفيلة ببناء استقلالية الشخصية، وتنمية روح الجرأة والثقة في النفس،
والوضوح والإصرار والميل إلى الملموس. أعتقد أكثر فأكثر أنه يمكننا أن
نحاور الأطفال محاورة الند للند، دون أي عُقد. كل هذا لأقول أنه لا داعي
للقلق على أطفالنا. وعلى عكس ذلك، ما يتوجب عمله هو أن نعيد تربيته نحن
كمربين! أن نطور لدينا طاقة الفهم، والملاحظة، وأن ننطلق دائماً من
المشاكل الملموسة دون تهويل وأن نتخلص من فكرة أي أسرار لا يمكن
النفاد إلى كنهها، وكذا من فكرة أي جبرية ميتافيزيقية، أي تشويهات أصلية أو
موروثات لا طاقة لنا بها.

كل ما هو إنساني لا يمكن أن يكون غريباً عنا. أليس كذلك؟

ذلك صعب ودقيق كما قلت. إنه مضجر بالتأكيد. ولن يكون الأمر غير ذلك إلا في مجتمع لم تعد تُعَبَّرُ فيه تربية الأطفال «صناعة منزلية» وحيث تعم فيه القيم التي تلهمنا. إن هذه المهمة هي إذن من بين المهام التي يثقلنا بها المجتمع القديم. ولكنها مع ذلك لا تخيفنا! (...).

6 يونيو 1973

هند، عزيزتي،

تسلمت البارحة رسالتك. كتبتها بأناقة، وتقولين لي فيها أشياء أثرت فيّ كثيراً. نعم بنيتي الحبيبة. يجب أن تتحلى بالصبر إذا أردنا الوصول إلى مبتغانا. وهي الأمور دائماً هكذا: لكي نحصل على ثمار، الثمار الطيبة التي نتشهاها، يجب أن نغرس شجرة صغيرة ونعتني بها باستمرار، نسقيها، ننتظر السنين قبل أن تكبر. ثم تأتي الثمار في النهاية، ونكون قد كوفئنا على أتعابنا. إذن علينا أن نعرف كيف ننتظر وألا نخاف أبداً من هذا الانتظار، لأننا نعلم أنه في آخر المطاف، هنالك شيء نرغب فيه من صميم قلبنا سنتمكن من تلمسه بأيدينا. أعرف أنك أصبحت الآن فتاة ناضجة وشجاعة وأنه يمكنني أن أعتد عليك كي تعتنى بتلك الشجرة الصغيرة وتنتظري الوقت اللازم لكي تكبر وتعطينا ثماراً.

أفكر فيك كثيراً ولكن باطمئنان (...).

12 يونيو 1973

حبيبتى،

(...) بالنسبة للوقت، فهو حقاً يمرُّ بسرعة، أحياناً نتنفذ بقوة ضد هذا النهب، ضد سرقة كل هذا الحنان متاً، والحياة تجري وتجري. لكن الأهم والأصح هو أن نفكر ونشعر وتتأكد من أن الزمن هو السندان الذي نصهر فوقه كامرأة ورجل حقيقيين. ماذا كان يقصد هؤلاء الرجال الحقيقيون عبر التاريخ عندما كانوا يتحدثون عن هبة حياتهم؟ نقرأ ذلك مراراً في الكتب ونسمع عنه أيضاً في الحكايات العجيبة فيبعث ذلك على الإعجاب ويملأ القلب غبطة وأملًا ويجعلنا نحلم ببشرية أمثل وعالم أفضل. ثم يحدث أن ما نسمع عنه أو نقرؤه يصبح واقعاً ولو في مستوى محدود. إذاك، نكتشف صعوبة أن يرقى الإنسان إلى مستوى إنسانيته، فنضطلع بمسؤوليتنا ونختار. صدقيني، لن أستبدل ولو دقيقة واحدة مما أعيشه هنا مقابل أطنان من ساعات الفرح المزيف وشبه الحياة

التي يعيشها آلاف الأحياء – الجثث. أنا هنا، وأنت هناك نعيش آلام وآمال البشرية الحقة. كل حركة تصدر عنا هي تجلّي من تجليات كرامتنا، كل فكرة هي خطوة في المسيرة، إسمنت في البنيان وبقاوة ورد في العيد الذي سيأتي. يجب أن تكون الأمور هكذا. السعادة لم تعد ملكية خاصة، ولو كانت كذلك فستكون إجراماً في حقّ المستقبل.

17 يونيو 1973

حبيتي،

مرّرت إذن خمسة عشر شهراً منذ مارس وأكثر من ذلك منذ التمزق الأول. هذا بعيد وقريب في الوقت نفسه، حيّ فينا. لقد عشنا وأعدنا تقريباً تجديد كل شيء ونستمر الآن بالقلب الثابت نفسه، بالخطى الثابتة نفسها في شقّ طريق الفجر وفي الاقتراب من منابع الإنسان. لقد برهنا بذلك أن الأمل ليس لفظة مجانية وأن مملكة الإنسان الحقيقية ليست يوطوبيا وأنه لا شيء عبثي في التجربة الإنسانية سوى الاستسلام. وما يثلج الصدر هو أننا نعرف أن هذه المعجزة ليست شيئاً خارقاً ولا استثناء بعيد المنال أو امتيازاً. بل من الممكن أن تصبح شيئاً عادياً وأن تحدث حيثما يستطيع الإنسان أن يصون اليقظة ويتحول بكليته إلى حبّ وعطاء.

أقول هذا وأنا أتذكر يوم أمس: كنتُ مزهوبين كأبهي ربيع لوطننا، غنيين بالوعود ولقد توحدنا خلال لحظة حضور تام. أنت قصيدي بكل ما في الكلمة من معان وقوة. أحس بسعادة عارمة وثقة كبيرة. لا أشعر البتّة بأنتي على هامش الحياة. غريبة تلك الأفكار التي ترسخت عند الناس حول السجن، الوحدة إلخ... أغلب الكتابات حول هذا الموضوع باهتة وتنم عن حساسية زائفة. قبل قليل لم أتمالك من إطلاق صرخة إذ اكتشفت فجأة ما يلي: إننا هنا جزء لا يتجزأ من حركة التاريخ. إننا شجرة من الغابة البشرية التي تسير. تلك هي هويتنا وذلك هو انتماؤنا عبر العالم والأجيال. وهذا كله يحصل ونحن نقبع في زاوية من زنازة ما، فوق بضع أمتار مربعة من الإسمنت، وراء باب موصل. أين هي إذن القضبان، الحدود؟ أين هو العجز والبكم؟ على العكس من ذلك، كم تتدفق الحياة، كم ينتشر النّفس! هكذا، من يخاف من؟ أليس كذلك؟

اليوم، الأحد. هدوء تام. شمس لسْتُ في حاجة للنظر إليها، لأن شمساً أخرى تشرق من بين عينيك وتطلع على قلبي. أعطيك يدي.

1 يوليو 1973

امرأتي الحبيبة،

يوم أحد عاد. الصمت شامل. كأن الأشياء هكذا كانت منذ زمن بعيد. لم أعد أنتبه لمربع السماء العمودي الذي تحاصره الأسوار فتحجب الأفق، للأبواب الحديدية التي تفتح وتغلق بألية، لصدى الجلبة البعيدة. لم أعد أنظر فجأة من حولي وأستغرب وجودي في هذا المكان. لقد تكيف جسمي مع محيطه وتعودت عيناى على غياب الألوان. تعودت على عدد الخطوات المحددة وفضاء الحركة، على نبرة الصوت والضحكة. كأن الزمن قد أفرغ من الداخل. أشعر وكأنني أتحرك في أجواء انعدام الجاذبية. لكن سرعان ما أسترجع صحوي فأعود إلى ينباع الغضب، تدب الحركة في دماغي، تقفز ذاكرتي إلى أقاصي وأعماق المستقبل. قلبي يلتقي بنبضات أخرى، يتحدد الإيقاع ويتشكل الحلم، دقيقاً، متطرفاً. الحياة تغلي في داخلي بزخم جديد أختنق من جرائه قبل أن أشعر تدريجياً بانسراح كبير.

يوم أحد عاد. ذكراك، حبيبتى العذبة. أنت كجرح ينفث كي يلتئم لتوه لمجرد تخيل صورة من فيض حنانك. أشعر بك قربي. نفكر الواحد في الآخر (...).

7 شتمبر 1973

جوسلين،

أعتذر لكوني لم أكتب لك في الأيام الأخيرة. رغم أنه لم تكن هناك أية مفاجأة، كان علينا أن نستوعب بشكل صحيح الوضعية الجديدة. أشعر الآن ومن جديد أنني مستعد لمواجهة المستقبل. إن شجاعتك، تعبتك الدائمة وثقتك الصلبة تدعم إلى أعلى حد تفاؤلي وإيماني.⁽¹³⁾

خبر موت أمي صدمني اليوم.⁽¹⁴⁾ عيناها كانتا خضراوتين. لم تكن أبداً مسنة بالنسبة لي. إنها تمتزج دائماً بالطفولة والشباب، بتلك المدينة البيضاء ذات الينابيع الناطقة والطراوة النادرة. وسوف تبقى حية في ذاكرتي. موتها يذكرني بشكل حاد بانتمائي إلى آخر عرق للنساء والرجال الذين سيشفون في يوم ما وسيستعملون لغة الحقيقة القاسية والمسؤولية. سوف أكون دائماً جنهم بكل حبي وصحوي. لا، لست حزينا. إنها جذوري ترتعش وقلبي الذي يكبر من جديد (...).

9 شتمبر 1973

حبيبتى،

(...) عشر سنوات. هكذا نطقوا كأنما يريدون إعلان الطوفان، بتر الجذور، محو الطريق وكنس المسيرة. ورغم ذلك استمرت قلوبنا في الخفقان بالتناغم نفسه ودموعنا كانت من أجل أنشودة الأمل (...). سوف نتحدث مستقبلاً عن الزمن المادي وعن الحياة اليومية. هذا الزمن وتلك الصعوبات، سوف نتحملها وبشكل أحسن من الماضي. ولكن، قبل هذا، قبل كل شيء، علينا أن نرجع إلى منابع قوتنا التي لا تنضب. أريد دائماً بسمتك، يدك، إباؤك.

9 شتمبر 1973

ابني العزيز ياسين،

مرّ وقت طويل دون أن أكتب إليك. لكنني كنت دائم التفكير فيك وكم كنت سعيداً عندما علمت أنكما – أنت وهند – قد قضيتما عطلتكما على أحسن حال: الجبل ثم الشاطئ. الأسفار. لا بد أنك قد استرحت جيداً وجددت قوتك ونشاطك.

أنت تعرف الآن ما أسفرت عنه المحاكمة. جوسلين قد تكون أفهمتك ذلك. المهم أن تبقى دائمى الأمل وألا تتخلى عن شجاعتنا.

فكّر فيّ باطمئنان وثقة. لا شيء سيتغير بالنسبة للماضي. سوف نستمر في رؤية بعضنا من حين لآخر وتكتاتب أيضاً. وسوف أحاول من جهتي أن أساعدك قدر المستطاع وكلما كنت في حاجة لذلك. أعتمد عليك كثيراً كي تستمر في عمك المدرسي المثابر وفي مساعدتك لجوسلين.

أنت تعرف كم أحبُّك. كن قوياً يا شمسي الصغيرة وابني الحبيب.

16 شتمبر 1973

زوجتي الحبيبة،

(...) أنا كذلك، أشعر بقساوة غيابك في الأيام الأخيرة. لقد كنت قريبة جداً مني طوال هذه المحاكمة. وكم كان محمساً أن أعرف ذلك، أن أتأكد منه في كل لحظة، أن آخذ عينيك في نفس اللحظة التي كانتا تبحثان عن نفس الشيء. وجهك، حركاتك، صوتك، كل قدك، نعم رجلك اللتين كنت أتأمل فيهما حتى الاحتراق. كوننا تمكنا من ضم أيدينا وضم ما لا يمكن أن أتغنى به إلا من أجلك.

والآن، أن أفكر فيك، أن أفكر في كل ما كان وسيكون، نعم ذلك من القساوة بمكان. ولكنه يعني كذلك أن وعينا سيكون أكبر من ذي قبل وسنخرط في المغامرة الكبرى ونأخذ على عاتقنا مِحَتَهَا. زوج يمر، السعادة البسيطة، الحياة بكل بساطة، ما تقوله الأغاني، ما توحى به الموسيقى، ثم ذكرى الامتلاء، كل ذلك في لحم الغياب. بالنسبة لنا، كل شيء تغير، لم يبق أي شيء عادياً، جامداً، متعارفاً عليه. إنه كتكوين قصيدة عظيمة نُوجَل كتابتها باستمرار، لكننا نعيشها دون كلل في كامل عنفوانها، حُمَاهَا، جدتها وقدرتها على إبعادنا مما هو حقير في المعيش اليومي، ونحن نعرف أن هذه القصيدة ليست محصورة في الذات، إنها قصيدة تاريخ جديد بمنشأته ورجاله ووعوده بالفرح النادر. نحن نقبلُ آلام هذه الولادة. ولولا هذه التعبئة، هذا العطاء، عطاؤنا وعطاء الكثيرين والكثيرين من غيرنا، لن يكون هناك أي معنى للاستمرار في العيش، في الشعور بالسعادة. لولا ذلك ما أحقر ذلك الرضا عن النفس والمملكة الصغيرة التي يشيدها كل واحد من حوله. الرفض هو الذي يجعلنا جديرين بالكلمة، بالحب وبإنسانيتنا. كم هو جميل أن أقرأ في رسالتك الأخيرة أنك «لا تؤمنين بالتعاسة الفردية»، وأن أرى إلى أي قمم تصعدين عندما يتعلق الأمر بعلاقتنا. ليس هذا مثالية، إنه فقط مؤشر حلول المستقبل فيك وفينا.

حبيبتي يجب أن يصبح حوارنا أشمل من ذي قبل كما أكدت نفسك على ذلك، يجب أن تحطم كل الحدود المضروبة من حولنا أو تلك التي تفرضها علينا رواسب الرجل والمرأة القديمين. أريد لحبنا أن يبعث قارات أخرى للقلب والفكر. ومن أجل ذلك يجب أن نتحلى بالحزم والتفتح في أن معاً. سوف نتحول معاً. صحيح أن المبادرة يجب أن تبقى لك في غالب الوقت نظراً لأن ممارستك أغنى من ممارستي ولأنك تجابهين مشاكل أكثر تعقيداً، وملموسة أكثر. ولكنني لن أتخلف عن اتخاذ مبادرات أخرى وأن أجعلك تشاطرين كل اهتماماتي.

من الآن فصاعداً، سوف يكون يوم الجمعة عيداً⁽¹⁵⁾ عيد بسمتك، صوتك، عيد عينيك الزرقاوين. إليك حناني.

3 أكتوبر 1973

حبيبتى،

تسلمت رسالتيك المؤرختين في 28 و30. أما أنا فقد كتبت لك أمس وقبل أمس. كما وعدتك بذلك، سوف أبذل قصارى جهدي كي أحافظ على الانتظام في المراسلة لعلمي أننا نحن الاثنين في حاجة ماسة لذلك. إن حيوية المراسلة تظهر أكثر في ظروف الأسر حيث نواجه باستمرار نوعاً من تخدير الحواس. فبقدر ما يتعد المرء عن الممارسة الحية وعن الواقع الحي بقدر ما تبدو الأنشطة المحدودة التي يقوم بها (قراءات، نقاشات، تأمل) معلقة في الفراغ ومحدودة من الجانب الإبداعي. الدماغ نفسه يبدو وكأنه يعمل ببطء كما أن جرأة الفكر تتقلص بدورها. لذا يجب الحرص على استمرارية التوتر الداخلي كما يجب محاربة كل أسباب التفكك أو الفراغ الذهني أو التكرار. إنها وضعية الأسد في قفص. عندما أسجل هذا، أستبعد طبعاً أية مرارة. يهمني فقط أن أكون في تمام الوعي، أن أقر بالواقع بحيث لا أسقط في حالة تشاؤم غير لائق أو في تفاؤل مفرط. ما أريد قوله على الخصوص هو أن التعبئة الداخلية مسألة حيوية بل ضرورة كل لحظة. فالأمر يعني ألا يغيب عن بالنا ما هو جوهري، وأن نعيش التاريخ ونحن على علم بأن مساهمتنا فيه هي رمزية ليس إلا. ومع ذلك، وفي الوقت نفسه يجب أن يكون تأهبنا دائماً ومتواصلاً كما لو أن كل يوم جديد يمكن أن يكون إيذاناً بمحو حبة اللسان وبعودة الحرية نفسها. لن أحيّد أبداً عن التيقظ، وحين يأتي اليوم الذي أرى فيه بزوغ الشمس بجانبك سأكون في أتم صحوي وسأقفز لملاقاة فجر جديد (...).

15 أكتوبر 1973

حبيبتى،

إلى اليوم لم أتلق منك شيئاً بعد رسالتي 7 و8 من الشهر الماضي. أشعر بكل قسوة الوضعية الحالية. أن أكون هنا، في الوقت الذي يتقرر فيه مصير أمتنا وربما مصير العالم وأنا لا أستطيع تتبع الأحداث إلا بشكل متقطع! (16) لا علينا. المهم أنني أعيش بكل حدة هذه اللحظة والآمال التي تبعثها من جديد. مهما كانت النتائج فإن تجربة جديدة تكون قد حصلت ووضعية جديدة ستخلق على صعيد شعوبنا. إن التاريخ يستأنف مسيره. بعد كل الجمود والهزائم. ثم إن أسطورة الدولة – الدركي التي لا تقهر قد تزعزعت وهذا هو الأساسي بالنسبة لشعوبنا. كما تزعزعت أسطورة العربي العاجز عن سبر أغوار التكنولوجيا والعلم...

بطبيعة الحال، هناك أم كلثوم (دائماً)، والذين يتحكمون في خيوط اللعبة، هناك حدود «الأبواق» والمتناقضات التي لا يمكن أن تتجاوز.

على كل حال لن تكون هذه «الأبواق» هي المستفيدة من الوضعية الجديدة. على المدى المتوسط. باختصار، إنه الأمل الذي يتجدد، الأمل الأقوى (...).

18 أكتوبر 1973

حبيبتى،

هذا المساء، كان فرصة لاسترجاع بعض الذكريات. استعدت لحظات سعادة عارمة لمجرد تخيلنا جنباً لجنب. ذلك العبور الطويل لإسبانيا ثم فجأة، لا أدري لماذا، أرانا في إحدى ساحات «مدريد» وأنا أشد أزرار معطف ياسين، ثم «بورديو»... الصور لم تعد واضحة. إنها حدة الذكرى، تهزني. حماسك للأسفار، نشوة الفضاءات الجديدة التي تحملها الرياح وتفوح بطيب الزعتر والكروية. ماذا كان، زمن البراءة والحمية هذا؟ عرس اللحظة التي تناغم الحركات والنظرات. جميل ومشروع، شيء من الحنين قبالة هذا الليل المتحجر.

أحس بشوق كبير للأطفال. أحياناً أشعر بغصة في الحلق لعدم تمكني من مداعبتهم والرد على بسمااتهم وأسئلتهم أو التملّي بمنظرهم وهم نائمون، إعطائهم يدي أو أخذ يدهم.

هل أنا حزين؟ ليس الأمر كذلك أبداً. إنني أعرف فقط بعض القوت من معين مكنسياتنا حتى لا يُنكس أبداً علّمنا ولكي تصبح تلك النار فوق الجبل أكثر قرباً ودفئاً. إنه قلبي الذي ينبض ويهتز، إنها الحياة التي تجلديني، إنه الحنان، حناني الذي يتوجه نحوكم (...).

4 نوفمبر 1973

جوسلين، حبيبتى،

أعود إليك في كل يوم يسمح فيها الهدوء بالتفرغ الضروري لحناننا. يسود الاعتقاد أننا نقول كل شيء عندما نصف السجن، من الخارج، بأنه «عالم الصمت». هذا الحكم بعيد تمام البعد عن الواقع. فكل ما يتعلق بالإنسان هنا يكتسي حدة بالغة ويأخذ طابعاً درامياً. العواطف والأفكار «تتفجر» عوض أن يتم التعبير عنها بالطريقة الاعتيادية، إنها تنبجس فجأة لتتكشف بأضواء قاسية

معاقل الإنسان الأكثر حصانة ثم تغيب ككوكب صامت. السجن موضع للصحو والكرامة والصرامة أيضاً. كما أنه موضع تأخذ فيه الأشياء طابعاً غير اعتيادي. فتصبح بذلك قابلة للتشويه والكاريكاتور.

كل هذا يجب أن يحكى. ولكن هل أستطيع ذلك؟ منذ وقت طويل، وأنا أوجل صياغة هذا الواقع المعيش. ولا أدري إلى متى ستستمر هذه الوضعية. قد تتطلب هذه الصياغة شروطاً أخرى. ولكن أليس من الصواب أن أحاول مع ذلك؟ لست أدري بعد، فلم أكن أبداً منضبطاً فيما يخص الكتابة. في الماضي كانت كثيراً ما تفرض نفسها عليّ، أمّا في وضعيتي الحالية، فعليّ أن أتحدى بقدر أوقّر من اليقظة (...).

13 نوفمبر 1973

زوجتي الحبيبة،

رسالتك ليومي الخميس والسابع من نوفمبر. شعور بنوع من الثاقل، هذه الأيام. أحس وكأني ألفتُ هذه الوضعية الجديدة، كاني أقلع في رحلة طويلة. الطقس جميل لكن البرد شديد مع ذلك. ملابس الشتاء أصبحت ضرورية. الجلاب. رفيق كل المحن يتعذر الاستغناء عنه الآن.

لم تعد تأخذني الدهشة. كما في الماضي، لكوني هنا. جسدي وكل حواسي تكيفت مع الأوضاع. حينما أسمع في المساء صفارة قطار أو منبه سيارة ما، ينتابني شعور أن هذه الأصداة آتية من قارة خيالية. أعرف الآن كل رقعة من هذا المكان: الزنزانة، ساحة الفسحة، وعندما يتعلق الأمر بالذهاب إلى المزار – مما يجعلني أقطع مَمَرًا بكامله – يتهياً لي أنني قمت بسفر صغير. لكن الغريب في الأمر هو أنني لا أشعر جسدياً بهذا الضيق. لقد تعودت ذلك. لا أنتظر مفاجآت ولا مناظر جديدة خارقة. الحركة والألوان أجدها في أحلامي (نعم، الألوان!). أصبحت أتحمل حتى تشابه الأصوات (عثرت في كتاب لـ «سولجنتسين» على ملاحظة صحيحة: في السجن كما في الحرب لا تسمع مثلاً أصوات الأطفال). هي الأمور هكذا: ملزّمة لخنق وتدمير طاقة الحياة، لكنها لا تستطيع النيل سوى من القشرة الخارجية لأولئك الذين يراد إخضاعهم. الكرامة هنا، ليست هيئة أو شكلاً تتخذه حينما نمشي في الشارع وسط الحشد الذي نريد بهره باستعلائنا. من الممكن أن تكمن الكرامة في أي حركة: أن تقف ورأسك مرفوع عندما يخضعونك للتفتيش الذي يعتبرونه إهانة لك وأن تفكر في شيء آخر غير هذا، أن تنظف رقعتك الصغيرة وتفرش الأرض بالأغطية، أن تضع كتبك وسجائرك في متناول يدك، فتشعر أن لا شيء قد

انتهى وأن كل شيء مستمر، فتقرأ وتفكر، تلتصق بالتاريخ، بكدح وكفاح
البسطاء. إنك ستحلم، ستألم، ستعشق وتأمل.

حبيبتى، اشتقت إليك ولو أن حضورك يغمرنى بكاملى. سوف انتظر بكل أناة
ذلك الفجر الذي سيجدنا ملتحمين كقسم عظيم والذي سيعيد لعيوننا، ببعض
دموع الحنان، ذكرى هذا التمزق الذي نحياه الآن.

أبدأ لن نُنكس رايه العوده. إليك يدي.

1974

11 فبراير 1974

حبيبتي،

لقد كنت رغم كل شيء قلقاً فيما يخص صحتك. أتمنى أن تكوني أحسن الآن. اعتني بصحتك جيداً وحاولي أن تأخذي قسطاً من الراحة.

الزمن يشق طريقه كقطار عبر تسلسل الأيام والليالي التي لم تعد سوى مؤشرات، لكن ما ضاع شيء من هذا العبور ولا من مغزاه. من كل الآفاق تنبجس فجوات ضوئية، صور قاسية إلى حد ما هي واضحة، رؤى الأعياد القادمة، إشراقات متفرقة للحظات تسترجعها الذاكرة فجأة لكلمات وحركات، لتاريخ بأكمله مختصر بشكل عنيف في رحلات مضيئة، معقولة وفي تناول التعبير.

أن نعيش داخل الجسد والذاكرة، داخل الحركة اللامتناهية، وأن نتقدم لولياً بأرجل وقلب أثقلهم الحنين، بأعين مشعة بالأحلام. ونكتشف هكذا أننا نعيش لبّ الألم والأمل وبأن الغضب المقدس يرعد في صدورنا.

يدك لا تفارق يدي، في حضور اليقظة وفي أحلامي المتعمّدة. أعشقُ حبنا. إليك.

17 فبراير 1974

زوجتي الحبيبة،

هذه الزيارة المرهقة بعض الشيء، نتيجة الازدحام والضوضاء. ولأول مرة أرى الأطفال من وراء القضبان. لست أدري كيف كان شعورهم بالضبط، لاحظت بعض الحيرة عند ياسين، خصوصاً في بداية الزيارة، هند كانت حزينة بعض الشيء. لكن، أليس أفضل أن يكون الأمر كذلك؟ لن يبقى عندهما أي غموض بعد الآن وسوف يعتادان على هذه الوضعية الجديدة. هكذا، سنقتسم معهما ما هو مؤلم في محنتنا، وهكذا أريد أطفالنا، متفتحين على كل التجارب وممرسين، قادرين على فهم كل الأشياء، مؤهلين بذلك لضبط هويتهم ومشاعرهم الحقيقية.

لا جديد هنا، ولو أن حالة الطوارئ هذه تشكل عبئاً في بعض الأحيان. الاستفزازات ليست منعدمة هي الأخرى. لكن نوعاً من «صبر أيوب» يفرض نفسه حالياً (...).

18 فبراير 1974

عزيزي جسلان،⁽¹⁷⁾

لقد سررت كثيراً برسالتك وبهذه النفحة من الأخوة التي تضمنتها، تلك الأخوة التي لازلت أشعر بها تجاهك. ثلاث سنوات منذ أن غادرت المغرب. سمعت أنك عشت تجربة جماعية في البادية وأنك نشرت رواية لم أقرأها حتى الآن. أما من جهتي، فلقد مرت عليّ الآن سنتان في السجن وتنتظرني ثمانية أخرى. هذا بعدما اجتزت مرحلة «محاكم التفتيش» وآلاماً أخرى. لكنني الآن غني بكل ذلك، كرامتي مصانة، وأملي قوي. إنني متجدد وحيّ. الشعر، كما تعلم، يقود هو أيضاً إلى كل هذا، يكتشف من خلال هذه المعاناة حقائق أخرى، مبررات ومرتكزات أخرى للوجود. لهذا، لا يحق لي أن أشتكي. فحيثما نوجد، على قمم المعطرة بالنجوم أو في زناناتي المظلمة كما في فيلم رديء، الأهم، هو هذه التعبئة الداخلية المستمرة التي تجعل منا شيئاً آخر غير جثث مترنحة في حلقة البشاعات.

ماذا أفعل هنا؟ أقرأ كثيراً: أدب، فلسفة، اقتصاد، علوم. جوسلين تأتي لزيارتي مرة في الأسبوع، زيارة نصف ساعة. أما الأطفال فمرتان في الشهر تقريباً. الفسحة تتم مرتين في اليوم في ساحة صغيرة حيث الشمس، مربع صغير من الأرض تنبت فيه بعض الأعشاب. المجموعة التي أنا من ضمنها تتكون من 27 شخصاً. أقطن مع رفيقين في الزنانة نفسها. أحلم كثيراً، ليل نهار، لا أعرف ما يسمونه السأم أو الحزن. ولا أستطيع وصف السعادة التي تغمرني عندما أفكر في رفيقة عمري، وفي كل البسطاء الذين يصنعون التاريخ وفي ذلك العرس الكبير الذي سيأتي لا محالة (...).

ليس من قبيل المصادفات أن تفكر فيّ. وهذه الأخوة التي حدثتني عنها هي التي تسمح للبشر الحقيقيين أن يعانقوا مستقبل انعتاقهم. أشدُّ على يدك.

7 مارس 1974

زوجتي الحبيبة،

أخيراً، توصلتُ بالأغراض التي بقيت بسجن البيضاء⁽¹⁸⁾ بما فيها رسالتك ليوم 20 فبراير ورسالة 22. وهنا كذلك، توصلت برسائل يومي 27 فبراير وفتح مارس. أما أنا، فقد كتبت لك ثلاث أو أربع رسائل منذ نقلنا إلى هنا. كل شيء بدأ ينتظم. تعودت إلى حد كبير على وضعيتي الجديدة. نسيت أن أقول لك أنني فحست من طرف طبيب السجن الذي أعطاني بعض الأدوية. سأتابع علاجي إذن بشكل عادي. تريدني مني أن أحدثك بشيء من التفصيل عن حياتي هنا. ما يمكن أن أقوله هو أنني أشعر بارتياح أكبر من ذي قبل. فالساحة الكبيرة تسمح لي بأخذ حمامات شمس منتظمة وبالمشي كيلومترات في اليوم. أستطيع أن أقرأ فيها وأن أقوم بالتمارين الرياضية. وفي الزنزانة، من جديد، أكتب لك وأثرثر مع الرفاق، وبما أننا سبعة فيمكننا، من وقت لآخر أن نرتجل ما نسميه «أمسية» نغني أي شيء: أم كلثوم، عبد الوهاب، فيروز، الأغاني الشعبية المغربية والموشحات الأندلسية، نغني بالعربية والبربرية وبالفرنسية أحياناً.

بفضل ما استعدناه من كتب بعد نقلنا وتلك التي حصلنا عليها مؤخراً، توجد لدينا الآن خزانة صغيرة لا تنقصها إلا الكتب التي تهمني على الخصوص: الشعر ونظرية الأدب. أتمنى أن أدارك هذا النقص دون صعوبة. على كل حال وفي المدى المتوسط، سوف أطلب منك أن توفري لي بعض المؤلفات الشعرية. لقد بدأت أشعر بحاجة ملحة للشعر (...).

1 أبريل 1974

حبيبتي،

لا أريد أن يكون هناك سوء تفاهم بالنسبة لرسالة البارحة. فعندما طرحت المشاكل بنوع من الحدة، كان حافزي هو أن تعي أكثر بضرورة التعمق في أسباب حالات الاضطراب وانعدام اليقين التي تتناوبك من حين لآخر. أعتبر أنه من غير الصحيح أن نكتفي بتبادل رفع المعنويات في كل مرة نواجه فيها هذه المشاكل: خصوصاً وأنها بدأت تُطرح بشكل منتظم وبالمواصفات ذاتها. لهذا، أفضل أن نُقَرَّ بأن هذه الحالات تعكس تناقضات حقيقية (من الممكن ألا تكون واضحة بما فيه الكفاية ومبتلورة في الوعي) وأن نتجند لتحليلها وتجاوزها عوض أن نعتبرها «هبوطاً» بدون أهمية أو انعكاسات تذكر.

لقد قررنا أن نتابع الدرب دون كلل ولكن أيضاً في وضوح متصاعد. ولهذا أنتظر أن أقرأ لك لأعمق وجهة نظري حول هذا الموضوع.

من جانبي، ليس لي الإحساس نفسه تجاه هذه الأعوام المتبقية، وأنا لا أقول ذلك ليكون بمثابة مرجع لديك وإنما لتتظري للمشكل من زاوية أخرى. فجواباً على السؤال، «كيف سيصير الأمر بالنسبة لي؟» أقول دون تردد: سوف أكون أكثر تقدماً لأنني سوف أكون أكثر وعياً وأكثر استيعاباً للعالم، للناس وللتاريخ. فالمحنة علمتني شيئاً أساسياً وهو ألا أقيم الأمور انطلاقاً من ذاتي أو أن أمركز العالم حولها. كما علمتني أن أكون متشدداً تجاه تشددي وأن أوجه حاجياتي وأتحكم فيها. فما كنت أعتبره أساسياً في بعض الفترات أصبح أمراً ثانوياً أو ربما عديم الأهمية في الوقت الراهن. وهكذا هو الأمر مع كل أنواع الكماليات والمسرات التي كان مجرد احتمال غيابها، فيما سبق، قادراً على الإخلال بتوازني الشخصي. هكذا، فالحرمان الجسدي، الذي كان يخيفني في المرحلة الأولى، صار شيئاً ثانوياً، بحيث أتحملة الآن كأي ألم آخر. ولكن، وعلى الخصوص، وبالنسبة لكل المشاكل، أحاول أن لا أرجع كل شيء إلى ذاتي، إلى جسدي، أو إلى ما يمكن أن يكون مصلحتي الشخصية ورغباتي الشخصية إلخ.. حقاً، إن الحياة الجماعية والظروف الموضوعية التي تحيط بي تساعدني على فهم الأمور بهذا الشكل. إلا أن هذا التوجه أو هذه المساعدة لم يكن بوسعها أن تكون فعالة لولا تجندي الخاص وبقيني وقراري الشخصي. خوف؟ لا وضوح. لا أبتهج لذلك باستمرار. هذا أكيد. ولكن، لدي ثقة لا تتزعزع. لقد وسَّع الأمل قلبي. لا أحسد أحداً: الأحاد، العمل والمسرات يوماً بيوم. إنه نمط آخر من الوجود، من الحرية والسعادة، هذا الذي أمتلكه، نمتلكه. ومع ذلك، فبكل قواي أتوق إلى العودة، إليك، إلى حناننا ومستويات أخرى من حوارنا. ذلك آت، هذه قناعة أخرى.

لقد حدثتني عني شيئاً ما أيتها الحبيبة لكي تتجدد ثقتك وطمأنينتك فيما يخصني.

انتظر رسائلك. يدي في يدك. سوف تأتي على الليل، هذا الليل نفسه الذي تخترقه إشراقات موحية. أحبك.

30 أبريل 1974

جوسلين،

لم أتسلم أي شيء منك منذ رسالة الثالث والعشرين ولا أعلم هل رفع الحصار عن البريد أم لا. أصبحت مهووساً بمشكل الرسائل. لقد فقدت القدرة على تلمس الزمن. ما ألاحظه لا يتعدى أشياء بسيطة: طقس جميل، سماء ممطرة، صمت شاسع. أيام الجمعة هي محطاتي، واحاتي، أنا الرحالة الحالم بربيع العالم. أيامي، كتب، حياة الناس، فتوحاتهم وآلامهم، صحوهم، ذكاؤهم،

خطواتهم العملاقة وتعثراتهم أيضاً. أتلمس صرح إبداعاتهم، مساعيهم وآمالهم. أنبهر أمام هذا العناد من أجل طرد الظلمات، وتفكيك آليات الخرافة، أمام هذا الوعي بقدراتهم وحدودهم المؤقتة.

أسير على بعد، فتأتيني ذكريات، إحساسات ورؤى من أبعد تاريخي الشخصي. عطر شجيرات الورد يعيد لي الطفولة عندما كنا جماعة من الأطفال الأحرار، نرتع في بساتين «باب الجيسة» في فاس ثم تجنح الشمس نحو الغروب، تعود القطعان، تفوح رائحة الروث والأرض والخبز الساخن. لا أدري لماذا أتذكر أياماً قضيتها في البداية وأنا مازلت طفلاً. ثم أنت، شلال رؤى تختلط، تدور، تُعَدُّ لي كم من أيام، كم من لحظات مليئة، سعيدة فتتركني أعزل أمام محيط السماء الذي تخترقه خطاطيف رشيقة.

أكتب لك ها هنا: ينبوع حب ينزف حناناً. إلى أن أقرأك.

8 ماي 1974

جيسلان،

لقد تسلمت رسالتك الرابعة المؤرخة بـ 25 أبريل. بعثوها لي من سجن البيضاء. أنا الآن بالسجن المركزي بالقنيطرة (عنواني الجديد). أرايت؟ أستطيع الانتقال أنا كذلك!

رسالتك أسعدتني بالرغم من أن الأصدقاء التي تصلني منك هي أصدقاء سجن آخر يتمتع الناس فيه بحرية الحركة، بالشمس ويعيشون فيه وسط صخب العالم. لكن لماذا هذا الليل الطويل، اللامتناهي، أيها الصديق؟ لماذا هذا الشك الذي تلمح إليه والذي يستدعي بلسم الأخوة؟ أليس في استطاعتنا أن نشفي، أن نتدع النشيد الذي سيؤاخي بين الناس؟ أفهم، ولا أفهم. الأمر لا يتعلق البتة بإعطاء دروس أو نصائح متجاوزة. لكن، علينا ألا ننسى الحياة داخلياً ومن حولنا، المخزونة في ملايين الينابيع الدفينة والمثقلة والتي علينا أن نفجرها لنفسح المجال للقاء، عناقيد أيدي وآمال. آه من الكلمات، من هذه الثقافة العاهرة! ماذا تفعل بي هنا وبالآخرين، وبآخرين أيضاً، ماذا تفعل بصرخة البسطاء ذوي الأيدي الخشنة؟ من، ماذا يستحق هذا العناء؟ أقول هذا، دون مشاكسة، لأن كل الأحياء، كل المعذبين هم أخوتي، خصوصاً عندما ينتصبون. اكتب لي دائماً. صداقتي. أرجو أن تكتب أيضاً لجوسلين من حين لآخر لمساندتها.

12 ماي 1974

زوجتي الحبيبة،

متعب بعض الشيء هذه الأيام. ليست لي رغبة في المطالعة أو الكتابة. أتكيف ببطء مع الطقس السائد هنا. ولهذا، عاودني الألم. لكنني أتابع العلاج كالعادة، دون إفراط في تناول الأدوية. فلا مجال للقلق إذن. الأسبوع الماضي انقضى بسرعة مذهلة. هذا يعني أن الزمن الداخلي قد تغير.

لقد تعودنا على لقاءاتنا الدورية الجديدة هاته. كم أصبحت حارة. تصوري أنني خلال زيارة الجمعة الماضية أضعت خيط أفكاري لشدة ما كنت أرغب فقط في الاستمتاع برؤيتك. باحتفال الوفاق والحب الذي نعيشه أثناء تلك اللحظات. سعادة البوح بهذا الحب. بالمعرفة والتأكد من وقعه على الآخر. غبطة الشرود في كثافة الوفاق واسترجاع شمولية الذات أثناء تلك اللحظات، حين أشعر بأن الدنيا والحياة يتانسان، مجنون الأمل.

ثم الأيام العادية، دون بهرجة ولا ضجة. كيف أصفها لك؟ إنها تشبه عبور بحر من الرمال والأمواج المتداخلة مع صحارى أخرى، محيطات أخرى، تتحرك تحت قدمي بينما تسرح عيني نحو كل الآفاق المعمورة بالأيادي الشافية، بالغابات البشرية وهي تسير. إنها واحات غضب تثقب قلاع الصمت والعجز، ليال مختصرة، مشعثة بالأحلام المنسية، مبعثرة كبذور معطاءة في أثلام الذاكرة. إشراقات فجر محمل بتباشير الطيور، فأضواء الذكريات الرقيقة. طاك! طاك! طاك! كما تقول لازمة «الرومانسيون» لناظم حكمت. لَسَعَاثُ الزمن. كل شيء ينساب، يتحول حتى داخل هذه الزجاجية الاصطناعية التي أغلقوها على أجسامنا. الإنسان! يا له من معجزة في قدرته على التكيف والمقاومة، إنه الكائن الذي يخلق معجزته يوماً بعد يوم وهو يتأبط الحدود الهمجية. هل أنا واضح أم غامض عندما يستغيث هكذا عقلي بالشعر؟ وهل الشعر يمثل هذه الفضاءة بحيث يصبح أداة لتعتيم الواقع بالنسبة للبعض؟ كم هو صعب أن يكون المرء شاعراً، أي أن يكون منسجماً مع نفسه، وأن يطرح على الآخرين شكلاً مغايراً لفهم أنفسهم بدون أن يصبح غريباً عنهم أو أن يبدو لهم على هيئة محتال! وكم هو قاس أيضاً أن يرى المرء وأن يحث على الرؤيا دون أن يُنْهَمُّ بالانحياز أو الابتعاد عن الواقع! هل رأيت؟ حديثي مُفَكِّك. كان غرضي هو أن أتحدث إليك دون أن أفرض اتجاهاً على الأفكار والصور، كما هو الأمر حينما تتكئين على صدري وأداعب رأسك وأعطيك يدي.

غداً، سأجيب على رسالتك ليوم 8. سأحدث إليك برزاة الراشد. سوف أكون مُتَعَقِّلاً. أما اليوم، فعيناى تلمعان كما تحبينهما، لأنك بكل كيانك تنبضين داخلي، لأنني أتعمد حُلْمَ أحدِ أيامنا الآتية.

25 ماي 1974

زوجتي الحبيبة،

أمس، كم كنت قريبين من بعض، مفتونين. كانت «العودة»، زهاء ثواني معدودات! بعض الزاد للأمل والطمأنينة. لقد ازددت جمالاً، وجمالك الجديد هذا يستمد إشعاعه من مكتسباتنا، من مسيرتنا ومن عزمنا الأكيد. يسعدني أن أراك مزهرة هكذا، واثقة من نفسك. كنت سعيداً كذلك لرؤية أطفالنا. كم هو جميل ياسين! لقد كبر. إنني أتلمس فيه أكثر ذلك الرجل الذي يشق طريقه، يلاحظ، يفكر، يحلم ويتخيل. كم أتمنى أن أرافقه، أناقشه، أن أتعرف أكثر على اهتماماته وأساعده علي تجاوز جدار الصمت الذي يحمله هو أيضاً في داخله. وهند كم هي حنون ومتأنقة، دائماً هزيلة بعض الشيء مما يضفي عليها خفة ملائكية. لقد أصبحت بدورها امرأة صغيرة تفهم العديد من الأشياء الكبيرة والجميلة وتتهب لغزو الحياة والعالم. أنا معتر بأطفالنا، معتر بكم. لكم تساعدونني على صيانة تلك الشمس البكر داخل قلبي وعلى الإيمان بأثمن ما في الإنسان. إنني غني بك، بأطفالنا. لا يمكن للحياة أن تعوزني ولا أشعر بفقدان الأرض، الأشجار، البحر. أنتم فضائي، أرضي، مائي وجذور فرحي. أنتم قصيدي.

هذه الأيام الأخيرة قضيتها في المطالعة والتفكير. لم أخرج إلا قليلاً إلى الساحة ولم أتحذث إلا قليلاً مع الآخرين. كنت أتخيل ذلك اليوم الذي أستطيع فيه الانبعاث من هذا الفجر العسير الولادة وألج فيه من جديد طرق الحياة الشاسعة. كيف سأكون وكيف سأشهد على المحنة، على كل المحن، ما يجعلها ضرورية وما سيمحي دون رجعة أسسها للإنسانية، ذلك اليوم الذي سأسمع صوتي بين أصوات الناس العاديين وأنزع يدي من صديد شجرة الحديد. نعم لقد تغيرت. الزلزال أت من بعيد. وهزاته القاهرة تمحو شيئاً فشيئاً الإنسان القديم. كل هزة جديدة تأخذني بعيداً عن أفقي المُرَصَّعة. مجنونة هذه الحركة التي تهز كل كيانى في هذا الفضاء المغلق الذي اختاروه من أجل شل مسيرتي. ولكن، واحد ينقسم إلى اثنين. أليس كذلك؟ في ذلك اليوم، سأحاول طبعاً أن أكون جديراً بالكلمة. ولكن كم تبهرني الآن هذه الحركة وهذا

التحول داخل ذاتي. إنني أستمد منهما غبطة الفاتحين في الوقت نفسه الذي أشعر فيه بالدوران. إنه لزلزال. قلت.

في هذه اللحظة ينتشر شفق رقيق. بعض العصافير تغرد عن قرب. إنها تعبر بهذه الكيفية عن الحرية والسكينة الكونية. أفكر فيك بكل حنان. لقد ألفت المستقبل.

25 يونيو 1974

حبيبتي،

(...) لم أشتغل كثيراً منذ الجمعة. بعض القراءات، دون حماس. كنت أكثر نزوعاً للحلم والشروود ولشكل من الكسل اللذيذ. في وضعيتي يمكن التساهل في ذلك. فالحلم مهنة وممارسة. طبعاً، هناك الواقع في حركيته وتناقضاته والرجال الذين يغيرونه. أنا واحد منهم ومشكلتي ستكون دائماً في البحث عن الوسائل التي تمكنني من السيطرة على تلك الحركة واتجاه التحولات الجارية حتى يكون صوتي مساهماً في تشديد عزائم الرجال، توعيتهم وجعلهم أكثر عدلاً، حتى يساهموا في إغناء ترسانة أسلحة النقد وأدوات المعرفة. تلك مسيرة طويلة، ويحدث في بعض الأحيان أن أتساءل أين وصلت منها وماذا في مقدوري أن أعمله؟ وإذا كنت لا أكتب كثيراً في الفترة الحالية فذلك لا يرجع لكوني ليس لي ما أقوله، ولكن لحرصني على ألا أكتب إلا ما هو جوهري وعلى اختيار وسائلتي بكل ما يمكن من الدقة. إنني أتساءل كثيراً عما إذا كان السجن هو الوضع الأليق الذي يسمح بالوصول إلى الاختمار المطلوب وإلى الدقة والموضوعية المنشودتين. لا أعتقد ذلك، على الأقل بالنسبة لعمل شمولي وطويل النفس كالذي أشعر برغبة الشروع فيه. إن هذه الحقيقة تضايقني بطبيعة الحال، ولكنها لا تنال من عزمي، لأنني أعلم علم اليقين أن لا شيء يضع مما نعيشه بصدق ومما ننزعه من الظلمات بقوة صحونا. سوف أتحدى بتجلدنا وعناد النمل لكي أكون جديراً بالكلمة.

حبيبتي، ليس هناك وقت معين للتفكير فيك ولكي أشعر بغمرة حنانك. لقد اكتسبت هبة العيش معك باستمرار والشعور بك في أعماقي.

1 يوليو 1974

جوسلين،

(...) عجباً كيف «ألفت» حياتي هنا! حتى أن جوانبها المشينة والشاذة بدأت تمحى. أصبح في استطاعتي أن أعيش هنا وأفكر وأضع استعمالاً زمنياً على طريقتي الخاصة وبرنامجاً للعمل. لم أعد مهتماً عن العالم، مع العلم أن المهندس المعماري، كما رجل الإدارة وباقي منظمي عالم الأسر، لم يألوا جهداً في صنع شيء مشابه للقبر. لقد حرصوا على إرساء شيء صلب، له صفات المغارة والدير ليكون ديكوراً مواتياً للثواب السريع. أخذوا الأشجار، أخذوا التربة الحية. أخذوا الأزهار التي تنبئ بالربيع. أبعثوا المدينة حتى أصبحت أصدواؤها صماء وشبهية. رتبوا كل شيء ليصاب الجسد بالضمور واللسان بالحبسة. حولوا الكلمات كلها إلى مصطلحات تحريمية، قمة اللامعقول!

ثم جاءت الطيور. خطاطيف وعصافير لا تعد. استغلت كل الثقوب والفجوات. وضعت فيها أعشاشها وزادها. وها أنا أتفرج على ألعابها. عصفور صغير يختبر أجنحته، يتدرب على الطيران. الماء الذي يسيل من صنابير النحاس يبدو وكأنه أت من منابع بعيدة أو من رحاب بحرية. رجال يذرعون ساحة السجن، ذهاباً وإياباً. لهم هموم مشتركة، يحملون في عيونهم رتابة وهموم المعيش اليومي.

لا، ليس هناك من موت سوى الموت الإرادي، أو موت السأم والتخلي. أنا حيٌّ!

حبيتي، كم هو عذب أن أفكر فيك. أكبر لوفاقنا، أظهر. فلتأت شموشنا المتعانقة!

15 يوليو 1974

حبيتي،

(...) أعتقد أن العمل الأدبي الذي لا يتحقق فيه التلاؤم والتكامل والانصهار العضوي بين الإنسان وإبداعه سوف لن يكون عديم الدلالة فحسب (فأدب المهرجين والمرترقة له دلالة على مستوى إبراز استلاب أولئك الذين ينتجونه) بل عديم الصدق والأصالة. إنه سيبقى عاجزاً عن الانخراط في جدلية التغيير. فالإبداع الأدبي هو في حد ذاته مرتع للمقاومة وطرف في عملية التغيير. لهذا فإذا ما امتنعت أحياناً عن الكتابة، فلأنني أشعر في اللحظة نفسها أن ما سأكتبه لا ينطوي على تلك القدرة على التغيير ولا على ذلك الصدق الذي يشعرنني بأني وما أكتبه شيء واحد. ولهذا أستغرب ولا أستغرب في الوقت نفسه. لقد دوّخ الأدب الكثير من كبار وأقزام الكتاب. وفي ميدان كهذا الذي يعد حكراً على الطبقات المستغلة وتملقها، فإنه من الصعوبة بمكان

أن نتخلص جذرياً من كل التأثيرات المضرة ومن مخلفات النظرة القديمة للعالم، للإنسان وللفن المرتبطة بها (...).

25 غشت 1974

زوجتي الحبيبة،

نسيت أن أقول لك بأني تسلمت رسائلك لأيام 13، 15 و17 غشت، بما فيها بطاقات بريدية لمناظر «غرناطة» تتحدثين عن مقعد ثان (لم تجدي صورة له) حيث أكون قد جلست بينما كنت تجلسين على المقعد المقابل. لقد نسيت ذلك. وبالعكس أتذكر جيداً أننا كنا قد دخلنا نحن الاثنين هذا المخدع الذي يظهر في الصورة وبقينا هنا ردهة من الوقت. لا يهم، على كل حال، هذه الصور وتعليقاتك جعلتني أعيش من جديد تلك الرحلة إلى منابع الجمال، هناك حيث الأيادي المعجزات خلّدت إلى الأبد عبقرية الإنسان. نعم، عندما نفكر في هذا الأمر، نجد أن هذه الصروح كانت قد شيّدت للمسرات الأناجية لقلّة من الناس التي ربما لم تكن لها القدرة الكافية لتثمينها حق قدرها. كم من لحوم بشرية، كم من عرق ودماء، كم من آلام تطلبتها هذه الإنجازات الرائعة! ولكن فيما وراء الاستغلال، يمكن أن نرى فيها الآن انتصاراً لهؤلاء الآلاف من الرجال المجهولين، هؤلاء الفنانون المغمورون. لقد أصبحت نشيداً للعمل المبدع ولغبطة الإبداع.

حبيبتى، الوقت الآن نهاية الظهيرة. لقد أقفل الباب والشمس لم تغرب بعد. في الزنزانة، البعض يقرأ والبعض الآخر محملاً يحلم. أحياناً، تأخذ الواحد منا، على حين غرة، رغبة في الحركة وإحداث الضوضاء ومحاولة إثارة دردشة عامة. ثم يعود الصمت، تتخلله فقط وشوشة رفيق أو آخر، من بين أولئك الأكثر عناداً. أما مهووسو الصمت مثلي فيلتمسون الهدوء والسكينة. هكذا تمر الظهيرة ويحل المساء. تُهيء الطعام، نغني قليلاً أو نلح على أحدنا ليحكى لنا فترة من حياته. يحدث كذلك أن ننظم بعض الألعاب. ولكن في غالب الأحيان نجنح للقراءة. لقد حصلنا مؤخراً على نبتة غرسناها في علبة نخرجها للشمس كل صباح ونسقيها.

هاأنذا حكيت لك عفويّاً جزءاً من حياتي اليومية (...).

3 شتمبر 1974

جوسلين،

هذا الصباح، رسالتك ليوم الجمعة. نعم لقد كانت الزيارة الأخيرة قصيرة جداً. فقط، عشرون دقيقة لأراك وأحدثك وأقول بعض كلمات لكل واحد من أطفالنا. في مثل هذه الظروف، تمتلئ الكلمات بكثافة أخرى، وتلتهم الأعين هذا الإشعاع الباهر. أشعر بذلك الصدام الذي يشبه المواجهة العنيفة مع القصيدة. والغريب في الأمر هو أن الحدود المفروضة علينا تشعرني بإحساس عارم بالنصر، إننا نعود من هذه اللقاءات برأس مثقل وخفيف في الوقت نفسه، بقلب ممطط كما لو أنه يريد احتضان كل حنان وكل آمال الدنيا. شخصياً أشعر بأنني أتجدد جسدياً ومعنوياً. فكل أسبوع يطلع ويمتد أمامي أطوُّعُهُ وأحتويه داخل عنادي، صبري وسعيي الطويل. من واحة لواحة، أرض العودة الصلبة، تتراءى آفاقها الاحتفالية. أراك فيها يا حبي وأسير نحوك.

هذه الأيام الأخيرة، أحس بدماعي يفور. زخم من الصور والأفكار أريد أن أثبتها وأنظمها، ولكنها مستعصية حتى الآن، لا تخضع إلا لمنطقها الخاص في الانسياب والتبلور (...)

متطلباتي تعمقت وتنوعت. فالدفعة المبدعة، الجامحة والمتوحشة لا يمكن أن تكون إلا مادة أولية. وهذه المادة بدورها لا تنحصر في نتاج للقلق وحده أو التأزم أو الرغبة في تناول الكلمة. يبقى علي أن أصارع نفسي وحدودي وخيانات الذاكرة. وكما قلت لك من قبل وهو ما أعتقد حتى الآن إنني لا أزال حديث العهد بالكلمة (...).

11 شتمبر 1974

زوجتي الحبيبة،

رسالتك ليومي 3 و7 شتمبر، تسلمتها أمس. لم تحدثيني كثيراً عن سفرك لمراكش. فهي مدينة أحبها وكنت أتمنى أن أعرفها أكثر. لم يحدث أن قضينا فيها وقتاً طويلاً. إنها تذكرني دائماً بالجنوب وبذلك السفر الذي قمنا به هناك: «تارودانت»، «تازناخت»، «وارزازات» وتلك الرحلة نحو «زاكورة» التي اضطررنا لتوقيفها. أحتفظ من هذا السفر بذكرى سعادة عارمة ووافق رائع. لكن كم هو قاس أن أفكر في ذلك ولا أستطيع أن ألامس يدك. اشتقت إليك. أنا أيضاً أشعر أحياناً بألم في جرحي، نفس الجرح الذي يخترق جسدك. ليس هناك حب، حياة حقيقية أو حرية دون تمزق أو جراح. إنها بمثابة أثلام الإخصاب القادم. حبيبتي، لست متشائماً عندما أبوح بهذا، أريد فقط أن أعبر عما

نتقاسمه والذي لا يمكنه أن يحزننا أو ينال منا. صحيح أننا نتألم ولكننا نحب ونكافح. هل تعلمين أن ما أعاني من فقدانه أحياناً هو إمكانية إهداء شيء لك، زهور أو أي شيء يسرُّك. الشيء المادي ليس هو الذي يهم في حد ذاته ولكن تلك الرغبة في أن أنزع شيئاً من ذاتي وأن يكون الأكثر رقة وعذوبة وأن أرفعه إليك. ثم أتأملك فأتيقن أن لديك الشعور نفسه، أي أننا في ذات اللحظة نشعر بأن شيئاً داخلنا قد تحرك وتحرر لملاقاة قوة وهشاشة الآخر. إنه لمن الصعب التعبير عن ذلك. ولكنك تذكرين أنني قد رفعت هكذا مرة يدي قرباناً إليك. ما أشتاق إليه كذلك في حضورك هي تلك اللحظات التي كنا نشغل، نطالع أو نتحدث فيها جنباً لجنب. كنت أشعر وأشعُرنا قريبين من حقيقة عظيمة. كان حبنا تحدياً مادياً لكل الظلمات والشكوك والحدود. لا أدري هل عبرت لك عن هذا من قبل. على كل، لقد استعدت اليوم هذا الشعور.

نعم، كم كنت مصيبة عندما ذكرتني بهذه الأبيات: «أنا من أهوى، ومن أهوى أنا».

29 شتمبر 1974

حبيبتي،

أتممت مؤخراً رواية «كليم سامكين». إنه أطول كتاب قرأته في حياتي. يلزم أن يكون لنا فائض من الوقت لابتلاع ما يقرب من 2.500 صفحة. هذه الرواية هي آخر عمل كتبه «غوركي» ولم يستطع إتمامه قبل وفاته. تتوقف الرواية في حدود 1917. لذا فإنها لا تشفي الغليل. لقد خيبت هذه الرواية آمال الكثيرين من حولي. ربما لأنهم كانوا ينتظرون إحدى الملاحم التاريخية والاجتماعية المتكاملة. من المؤكد أنه عندما ننزع إلى حصر الواقعية الجديدة في تمجيد طبقة معينة أو البطل الممثل لهذه الطبقة، لا يمكن إلا أن يخيب أملنا في رواية بطلها سلمي يمثل طبقة اجتماعية من أبرز خواصها التذبذب والتواطؤ، وأكثر من ذلك عندما يكون هذا البطل ممثلاً للشريحة الأكثر تقلباً في هذه الطبقة، أي شريحة المثقفين. شخصياً، أعجبت بهذا الكتاب رغم بعض نواقصه (تطويل غير مبرر وغيوب في البناء). لم أقرأ كل مؤلفات غوركي. لكن، يظهر لي من جهة أخرى أنه لو كان «كليم سامكين» هو المؤلف الوحيد الذي يتطرق فيه الكاتب لتاريخ التحول الاجتماعي والسياسي من سنوات 1850 إلى أكتوبر 1917، لكان مغالياً ومتعسفاً. هكذا، وإذا ما اعتبرنا الكتاب في حد ذاته لا يمكن إلا أن نقر بأهميته، بصدقه وجدته الكبرى. إن التعبئة التي يستدعيها ليست آنية. إنه يوفر شروطها بشكل أكثر عمقاً واستمرارية على جميع المستويات، وقبل

كل شيء على مستوى التجربة الشخصية لكل واحد، على مستوى أفكاره وذاتيته ونظراته للعالم وممارسته اليومية المتعددة. إنه يشهد أحسن أسلحة كل واحد ليتعرف في داخله وفيما يحيط به على العدو الطبقي الذي يغفو أو يتجلى أو يختفي في كل حركة وفي كل كلمة. ولهذا أعتبر هذا الكتاب من مآثر الواقعية الجديدة وأداة رائعة لليقظة والصحو (...).

فاتح أكتوبر 1974

زوجتي الحبيبة،

كان الطقس جميلاً هذا الصباح. شمس ربيعية، دافئة في هذا اليوم الأول من أكتوبر، لقد أخذت حمام شمس ثم دُشّاً بارداً. كنت أشعر بخفة كبيرة وبأنني بعيد من هنا، في الزمان والمكان. هناك أيام على هذه الشاكلة يكون فيها «الرأس شاعرياً». يخلو لي آنذاك أن أتجول فلا أشعر وأنا أسير بأنني أدور في الساحة أو أزرعها ذهاباً وإياباً، بل أتقدم فوق شيطان بيضاء لا متناهية، أرتب أفكارني، أستعرض صور ذكريات خاطفة، مضحكة أو محزنة، أردد ألياً لحناً ما، لحناً معروفاً أو تكوّن فجأة لا أدري كيف ومن أين. أسير تحت قبة السماء المبتهجة.

تعرفين، حبيبتني، أنه كلما مرّ الوقت كلما تناقضت إحساساتي. أشعر بفداحة المعوقات والحرمانات والاختناق المادي، وفي الوقت نفسه بنسبية كل ذلك وبتلاشيه إذا صح هذا التعبير. هذا يعني أن الجسد والفكر ومختلف الحواس تتكيف تدريجياً مع محيطها وأن الفكر يشتغل بوتيرة جديدة كي يصل تدريجياً إلى نمطية أخرى ولكنها نمطية مقبولة. لم أعد أستفيق فجأة من شرودي فأتساءل عما أفعله هنا أو أستغرب للباب الموصد وللبدلة التي أرتديها أو لغبش الألوان. لم أعد أفكر في الأعوام المتبقية كشيء يستحيل اجتيازه. نعم، كل شيء أصبح له معنى، حتى الظروف التي وضع فيها الإنسان ليفقد ميزته كإنسان. إذ، في مثل هذه الظروف، يخرج التاريخ من العتمة ويتحول إلى عَرَافٍ للمستقبل.

8 أكتوبر 1974

جوسلين،

(...)

تسلمت منذ هنيهة رسالة الأحد. ولا أريد أن أتركها بدون جواب. كنت مريضاً خلال الأيام الأخيرة ولازلت متعباً. لن أتمكن هذا المساء من إيجاد الكلمات التي تعبر فعلاً عن «حناني، تفهمي، رقتي، وحبتي». لن أهديك إلا الصرخة الجريئة لحضوري – غيابي بجانبك. هكذا أقف بين يديك. كيف أسمّي وأصف نفسي، خفقان قلبي وضوء عيني؟ أتذكر الآن هذه القولة: «هناك بعض الخسارات التي تزن أقل من ذبابة، وهناك خسارات تزن أكثر من جبل». يجب أن نفكر في كل هذا وأن نستأنف السير مرفوقين بهذه الينابيع الجديدة من الضياء.⁽¹⁹⁾

عندما تشاهديني وراء القضبان، ألا ينتابك شعور بأنك فقدتني بشكل من الأشكال. ومع ذلك، أليس شعورك الأكثر صحة وقوة هو يقينك بأنك ستجديني في كل مرة تزوريني فيها أكثر تكاملاً في الحضور من كل أشكال حضوري الأخرى؟ هكذا تسير محنتنا، مدرسة حريتنا، مكابدتنا من أجل مجيء الإنسان الحقيقي (...).

24 أكتوبر 1974

حبيتي،

كلمة وجيزة هذا المساء. البرد شديد وأنا ملتحف بالأغطية. كان اليوم ممطراً. حلَّ فصل الشتاء فجأة. لم نشعر بمجيئه. اللهم بعض السحب التي بدأت تظهر في السماء وخفوت في حرارة الشمس. لم أر أشجاراً هذه السنة. لكنني أعدت اكتشاف الطيور ومحيط السماء الفسيح. تعلمين أن أبسط الأشياء تحرك أحياناً أعماقنا أو تسلينا كما لو كنا أطفالاً، ذلك ما حصل خلال أحد الأيام الأخيرة عندما سقطت حمامة في ساحتنا وحاولت دون جدوى أن تطير وتتجاوز السور. هكذا بقيت عندنا يومين أو ثلاثة قبل أن ترحل. حصل ذات الشيء من جرادة حلت بيننا فأحدثت «هلعاً» في صفوفنا وهي تقفز وتحاول التشبث بالواحد تلو الآخر. ما أصفه لك هنا، يمكن أن يعتبر خارج السجن مجرد إفراط في الحساسية. أما هنا فالعديم الأهمية يمكن أن يصبح حدثاً صغيراً يستدعي الانتباه والتأمل والحلم. وعلى المستوى الشخصي، يحدث أن أفاجئ نفسي وأنا أتأمل بدقة متناهية فاكهة أو خضراً طرية جاءت من الخارج فألامس بشرتها في شرود. أتوقف طويلاً عند كأس من البلاستيك أو إناء أو صورة ذات ألوان زاهية. كل هذه الأشياء تتراءى لي كعناصر مبعثرة لحررتي القديمة المخفية تأتيني من بعيد لتسقط بين يدي وأمام عيني. طاقة التأثير شيء غريب وجميل!

لم أعد أتذكر أحلامي في الفترة الأخيرة. لكنني واثق من أنني حلمت كثيراً. أحتفظ فقط ببعض الصور غير المتناسقة. مع مرور الزمن لا نحلم إلا داخل ديكور السجن أو بأشياء لها دائماً علاقة بالسجن. وأنا لا أشذ عن هذه القاعدة. لكن يحدث لي أيضاً أن أحلم بأنني حرٌّ وأن أشعر بأن ليس لي علاقة مع مكان إقامتي. وذلك نادر على كل حال (...).

29 أكتوبر 1974

زوجتي الحبيبة،

(...) اشتقت إلى رسائلك، هذه الأيام، قررت إعادة قراءة كل الكتابات والمؤلفات حول الأدب والفن المتوافرة لدي والقيام بعملية تحصيل جديدة. لقد أصبح الأمر ضرورياً لأنني نسيت تقريباً الأفكار الأساسية المطروحة في عدد من هذه الكتب. مشكل الذاكرة والاستيعاب هو من أمهات المشاكل التي نعاني منها في السجن. إنهما يضعفان بشكل محسوس. وذلك يرجع بالتأكيد لانعدام الممارسة ولرتابة الممارسة الوحيدة الممكنة، أي «الممارسة النظرية» كما يقال. لذا يجب بذل مجهود كبير للحصول على نفع حقيقي مما نقرأ. أرايت؟ هذا مشكل آخر من مشاكل السجن. ولكنها حياتي، يوماً بيوم في بساطتها، هذه الحياة التي أريدها أن تكون شفافة لديك، أقرب ما يمكن من إدراكك (...).

5 نوفمبر 1974

زوجتي الحبيبة،

لا أدري هل تدريكين دائماً نوع الحياة التي أعيشها هنا، كم حاولت أن أصفها لك بكل تفاصيلها وأن أطلعك على أفكاري كما تتبلور، على رؤاي وأحلامي. أجهل أي انطباع يخلق ذلك عندك وأي صورة تكونينها عني من خلال ذلك، كيف تتخيلين هذه المدينة من الانتظار والأمل القوي التي أعيش فيها. إنه لشيء خصوصي ما نعيشه ونحس به هنا. كل ما تمكنت من قراءته في الكتب أو مشاهدته في الأفلام، كل ما تخيلته من قبل يختلف إلى أبعد حد من التجربة الملموسة نفسها. كل ذلك يفتقر للبعد الذي هو بالضبط العنصر الأكثر بروزاً من غيره: إنه هذه المواجهة الدائمة مع الذات وهذا المونولوج الاستثنائي الذي يعطي للحسد مادية خصوصية. إنه هذا الانجاس، داخل الذات، لفضاء جديد، نوع من البوتقة يشترك فيها الماضي بالحاضر والمستقبل فيحدث هذا

الاشتباك تفجرات صماء، سيلاً من الصور، جوقة من الأضواء، شللاً من الحركات. وإذا بهذه البوتقة الداخلية تتحول إلى بعد آخر للإدراك، إلى زوبعة تتحرك ببطء ولا تفارقنا. يبدو لي أن الواقع (الشمس، الهواء، صوت الآخرين إلخ...) ينصب داخلي كالسيل ويختزن. وأن ما أقوله، أكتبه وأعطيه ليس سوى ذرة هزيلة من خزان البارود الذي تتجمع فيه طاقاتي. إننا عندما نتعود على العطاء الوافر نتألم لكوننا لا نستطيع إعطاء شيء آخر، غير سجننا. وهذا بالضبط ما أخذه علي عاتقي رغم الآلام وجراح القلب، وأقول مع نفسي: إن الأمر ليس أكثر إيلاماً من محن أخرى، ربما أكثر تواضعاً (...).

13 نوفمبر 1974

جوسلين،

(...) السجن هو مكان أعلى درجة الشرود. أحياناً، وبعدما أبعث لك رسالة، أنتبه بعد فوات الأوان إلى أنني ارتكبت خطأ فادحاً ومضحكاً في كتابة إحدى الكلمات. أعتبر نفسي إنساناً رزيناً ومع ذلك أرتكب يوماً عدداً من الزلات: لا أنتبه لكأس مليء بالشاي أو القهوة فأقلبه، أو أقلب منفضة مليئة بأعقاب السجائر. أقوم مثلاً لأخذ شيء ما من صندوق الكارتون حيث أضع حوائجي والموجود على رف فوق رأسي، فأبقى واقفاً لمدة طويلة أفكر في موضوع آخر وأنسى للتو لماذا نهضتُ وماذا أفعل في هذه الوضعية. لا تظني أنني أبرر شيئاً بإعطاء هذه الأمثلة. فالأمور تتم هكذا بالفعل.

«جاك لندن»، نعم أعرفه. قرأت له منذ مدة «المتسكعون في السكة» الذي حدثني عنه. إذا ما كان عندك مؤلفات أخرى له، فأتني بها وبطبيعة الحال «مجنون إلزا» لأراغوان إذا ما اشتريته يوماً ما. أما الآن فأني سأقرأ «القتل» لـ سيلين ودواوين أدونيس.

حقاً، إن حياة السجين ليست خارقة. نستطيع بسهولة أن نتخيل الزنزانة. ساحة الفسحة وما ينحو نحو ذلك من قضبان وحرس وحساء وزيارة. أما الباقي، فهو الإنسان الذي نعرفه، عاداته، حركاته، تفكيره. ولكن يحدث أيضاً أن نكوّن فكرة تبسيطية عن هذا الإنسان إما مثالية أو سوداوية. لذا، أريد أن أكون دائماً في متناول قلبك وفكرك فيما يخص الأشياء الأساسية. ولهذا طرحت عليك تلك الأسئلة حول الصورة التي لديك عن حياتي هنا.

أنا سعيد بالتعلق الذي تبديه فُدس تجاهي. إذن، لن أكون أبداً غريباً بالنسبة إليها. أكنُّ حباً خاصاً لهذه الطفلة التي هي بالنسبة لي رمز كذلك. إنها عمر

محنتنا الدائم، أذكر كما لو أن ذلك حدث أمس يوم أتوني بخبر ولادتها. كان ذلك في مزار سجن الرياط الغاص دوماً بالزوار والسجناء. هنأني الرفاق بذلك. كنت يشارداً وسعيداً. بعد ذلك بأسبوع قبلك وانحيت على مهدها. كان المنزل مزداناً بالزهور وكانت الشمس ساطعة. قررت أن أذهب إلى مقهى «لوداية» من حيث أستطيع رؤية النوارس على الشاطئ. ثم عدت من جديد للمنزل لأعيد اكتشاف يدك وتلك السعادة المتجددة التي لا تزال تنتظرنا بحلة أبهى من ذي قبل (...).

4 دجنبر 1974

حبيتي،

رسالتك ليوم الجمعة 29 حيث تحدثيني عن السعادة. إننا نكتشف باستمرار أعماقاً جديدة وفريدة للكلمات بل قل إننا نكتشف قارات مجهولة فنخلعها على القاموس القديم الذي لم يعد قادراً على مواكبة مسيرتنا. لقد التحم قاموسنا بالمستقبل. لاشك أن طريقتنا في التعبير تبدو غريبة للعديد من الناس الذين قد يعتبرونها شكلاً من أشكال المازوشية. فالسعادة مثلاً، وفي المنظور القديم، السالب والمستلب لعلاقة الرجل والمرأة كانت تعني أساساً توافق المصالح والحفاظ على المظاهر والتساهل المقيت. إنها أوج العمى. هذا النوع من السعادة هو الذي كان يطرح كهدف للحياة ويتغنى به الجميع. كان فقدانه يبرر كل الانتحارات والجرائم، يبرر العنف والعهارة واللجوء إلى شتى المخدرات والجهنمات الاصطناعية. وهكذا ما كنا نرفضه دائماً والذي يفسر كوننا تعارضنا في بعض الفترات إذ أننا كنا نبحت عن نوع جديد من الوفاق الذي لا مجال فيه للتواطؤ أو التخاذل. وإذا ما قاسينا من جراء ذلك أحياناً فلكوننا كنا نعبر في مسعانا هذا ما يشبه الصحراء، ولا نستطيع الاعتماد إلا على أنفسنا، على غضبنا وعشقنا للحق والعدل. وها نحن اليوم، رغم الفراق الطويل والأليم، رغم هذه السنوات الممتدة أمامنا، رغم كثافة حلقة القضبان وليل الاضطهاد، رغم الوحدة النسبية، ها نحن نشعر بهذا النبض الجديد يخفق داخلنا ونرى هذه الورود الفاتنة وقد ترعرعت في ثراء تربة قلبينا. وعندما نتحدث عن السعادة فبالمفهوم الذي سيجدد به السعادة الكثير من النساء والرجال عندما سيكف العمل عن أن يكون عدواناً على الإنسان ويصبح وسيلته في الإبداع، عندما ستصبح الأخوة خبزاً يومياً.

وإنه لقسط من تلك الشمس، شمس العيد الكبيرة هو الذي ينيّرنا الآن ويجعلنا نُطلقُ هذه الصرخات العادلة (...).

زوجتي الحبيبة،

(...) لا شيء بارز منذ رسالتي الأخيرة. الطقس جميل ويسمح لي بالاستحمام بالشمس خلال الصباح. أفعل ذلك للقضاء على فطر نبت على صدري. إنه مرض جلدي منتشر هنا على غرار الجرب وما شابه. ولذا، يجب أن نكون متشددين فيما يخص النظافة: غسل الجسم والثياب إلخ... هناك أيضاً الزكام الذي يحدث إصابات كثيرة. غير أن لي ما يشبه المناعة ضده. طيب، تلك أشياء عادية. كم من مرة حدثت فيها عن مشاريع برامج قراءاتي. في الحقيقة، رغم كل ما أقوم به، فإن هذه المشاريع تنسف. يحدث مثلاً أن تصلنا علي حين غرة كتب جديدة تصبح قراءتها مستعجلة أكثر من غيرها. كما يحدث فجأة أن أشعر بالملل تجاه البرنامج المحدد فأعمد آنذاك إلى قراءة أي شيء آخر: مجلات مهمة، كتاب أعدت اكتشافه بعدما نسيتته أو كتاب له صلة بمجريات الأحداث يكون من الأفضل قراءته جماعياً. هكذا، أقفز من ميدان لآخر، من فترة تاريخية إلى أخرى. طبعاً أبقى مع ذلك حريصاً على عدم السقوط في الفوضى، أتثبت ببعض المحاور التي تستقطب اهتمامي. كل هذا هو في آخر المطاف نتيجة الوفرة. وسيكون من الغريب أن أشتكي من ذلك. في اليومين الأخيرين قرأت «المؤلف» «لإميل زولا». وأنا الآن على وشك الانتهاء من سلسلة «روكون ماكار». (في روايته الأنفة الذكر، يتطرق زولا لإشكال الإبداع الفني (تعلمين أن زولا يحاول في كل كتاب من هذه السلسلة أن يستنفد موضوعاً معيناً). «المؤلف» إذن هو الكتاب الذي يحدد فيه زولا نظريته ويعرض أفكاره حول الواقعية، تأثير الوسط المجتمعي ودور العامل الفيزيولوجي في تحديد طبائع ومصائر الناس. في هذا الكتاب نطلع على مأساة الفنان في مواجهة المجتمع البرجوازي الاضطهادي واستحالة إبداع فني أصيل يسمح للفرد بالتحرر. نطلع كذلك على الآليات التي تستعملها البرجوازية لاحتواء ما هو جديد في العمل الفني الأصيل. وهذا الاحتواء هو في الوقت نفسه رفض لما يتضمنه هذا العمل من إعادة نظر في الإضافات الإبداعية إعادة نظر في المجتمع البرجوازي وقيمه المزعومة. لقد استطاع زولا فعلاً أن يبرز طبيعة «مصاص دماء» هذا المجتمع وكذلك عملية تحويل العمل الإبداعي إلى بضاعة. لكن، ورغم هذا التحليل الصارم فالكتاب لا يفتح آفاقاً أو مخرجاً. فكما في العديد من روايات زولا تتمكن الآلية الاضطهادية من الفوز في آخر المطاف وتسحق ما يمثل الأمل ومؤشرات التجديد. إنها آلية لا ترحم. لا أدري لماذا أعتبر زولا حتى الآن كاتباً واقعياً فحسب. مع العلم أننا نجد عنده عناصر يمكن اعتبارها إرهاباً لأدب «انعدام الأمل» الذي سيطر في القرن العشرين. وهذا

ما أثارني كثيراً عنده ويجعل، رغم المتعة التي نستشعرها عند قراءته (وهي متعة مصدرها تلك القدرة على إعادة تشكيل الحياة التي يتحلى بها زولا) أننا ننتهي إلى شعور بالضيق والاختناق. إن «بوريس فيان» و«ساموئيل بيكيت» لن يتنكرا بالتأكيد للعديد من نهايات روايات زولا.

يبقى «جيرمينال» في آخر المطاف عملاً فريداً في سلسلة «روغون ماكار». فهو من الأعمال النادرة التي لا تنتهي بانهيار وسحق الشخصيات التي تتحرك فيها، بل الوحيد الذي يسمح بتخيل انبلاج واقع مغاير. ومع ذلك فإن أي رواية لزولا هي دائماً محاكمة صارمة لما كان سائداً في عصره. وزولا، أكثر من أي كان، يجعلنا نتقزز من ذلك الوضع ونشعر في كل عمل من أعماله أننا معنيون بالأمر (...).

اليوم أحد (كما يقال). لا شيء يميز هذا اليوم عن غيره بالنسبة لي باستثناء هذا الصمت الذي يخيم على السجن، يُخَيَّلُ إليَّ أننا في الجبل. في البيضاء كنا نعيش على وتيرة المدينة المحيطة بنا: ضوضاء محركات ومنبهات، السيارات، النداءات في أوقات الزحام وكذلك الصيحات المتواصلة داخل السجن. لا شيء من ذلك هنا. لقد حلت محله هبة هذه السماء المرسومة بأناقة فوق رؤوسنا. من حين لآخر تظهر طائرة قبل أن نسمع دويها العنيف ثم تشرق الفضاء وتختفي في ظرف ثواني معدودات. وعند المساء نسمع أيضاً صفارات إنذار السفن. يبدو أن الصمت يلحق الضرر بالجهاز العصبي وبالحواس الإدراكية. وهو مستعمل في بعض البلدان للوصول إلى هذه الأضرار بالضبط. ولكنني أستهويه. كنت دائماً أرتاح للصمت. لا يمكنني أن أركز انتباهي، أن أقرأ أو أفكر إلا في السكينة. ليس ذلك من الخصال الحميدة بالضرورة، ولكن الأمر هكذا بالنسبة لي.

إليك حناني، كل حناني.

25 ديسمبر 1974

حبيبتي،

لا أدري كيف انقضى هذا الأسبوع. الوقت يجري كقطار مجنون. بدأت أنتظرك. بعد غد، كم هو قريب. الطقس دائماً جميل كما لو أن الربيع ربح سباقه مع الشتاء وحل محله. عند غروب الشمس، تبدأ أطياف كثيرة تحليقاتها في مربع السماء ثم تظهر النجوم. في الأول، الزهرة (تعرفت عليها الآن)، متوهجة، ثم أخريات، أقل توهجاً. يسرنا كثيراً أن نرقب ظهورها وعندما يكتشف أحد منا

نجمة جديدة يدل عليها الآخرين بنشوة المنتصر. في هذه اللحظات تبدأ
الأسوار ترسم على صفحة السماء أقواس قزح رقيقة. لم يسبق لي أن تأملت
هذا التنوع الفاتن للألوان. إنه لمنظر شديد الروعة. أتذكر الآن غروب الشمس
في «مكناس». كان دمويًا، يشبه عنف ليلة زفاف وثنية. لقد ترسخ في نفسي
ذلك المشهد. لكنني أكتشف هنا وجهًا آخر للجمال، وجه التنوع وامتزاج الألوان
بشكل خارق. هل ترين، إنني أسبح كثيرًا بعيداً عن الواقع. ولكن السماء هي
فضاء رحلتي، مسيرتي فيما وراء الحواجز، نافذتي التي اقتطعها من هذه
الملزمة. عندما أتأمل السماء أشعر بأنني قريب منك، إنها عينك التي أبحث
عنها فيها (...).

أعطونا اليوم قطعة من لحم الخروف. لقد ذبحوا أحد الخرفان هنا في الحي
ونقلوه للمطبخ.⁽²⁰⁾ كما أنهم أسمعوا الموسيقى للسجناء في الأحياء الأخرى.
كانت الأصداء تصلنا. لست أدري لماذا حرماننا من ذلك. فالموسيقى تهذب
الطبائع والعادات حسب ما قيل لنا في الكتب المدرسية القديمة. يظهر أننا
أقل تأثرًا بالموسيقى من الآخرين! (...).

30 دجبر 1974

حبيبتي هند،

رسالتك أسرتني كثيرًا. إنها وصلت جد متأخرة ولهذا لا أكتب لك إلا الآن. إنني
جد مسرور لكونك أصبحت تساعدين قليلاً في أشغال المنزل، وأنت تعرفين
أنني لا أقصد أن على البنات وحدهن أن يقمن بذلك دون الأولاد، فهذه الأشغال
مفروض أن يقوم بها الأولاد والبنات على حدٍ سواء دون أي تمييز بينهم.

فإذا ما كنت مسروراً فلأنك أظهرت أنك تريد العمل ليس فقط بفكرك (كما
في المدرسة أو حينما تراجعين دروسك) وإنما كذلك بيدك. لقد كان الناس
يعتقدون في الماضي أن العمل الفكري، من دراسة ومطالعة وتفكير هو وحده
جدير باهتمامهم وأن العمل اليدوي لا يليق بهم وإنما هو من نصيب الخدم
والخادمت. أعتبر أن هذه الفكرة خاطئة تماماً. فمن واجب الإنسان أن يدرس
وأن يعمل كذلك بيديه. وهو عندما يقوم بهذين النوعين من العمل يستطيع أن
يتعرف بشكل أحسن على الحياة ويصبح بالفعل إنساناً نافعاً. لذلك، فأنا
مسرور لأنك تساعدين جوسلين في المنزل. عليك أن تتعلمي سريعاً كيف
ترتدين ملابسك لوحده، وكيف تصلحين فراشك وتنظمين غرفتك. عليك كما
على ياسين أن تعتنيا بغرفتكما في كل شيء. ثم بعدما تفرغون من تناول
الطعام جميعاً، فليس من العدل أن تتركا جوسلين تنظف وحدها الطاولة وأن

تغسل وتمسح الأواني وتقوم بالكنس. بل يجب أن يتساعد الجميع في ذلك.
من جهة لأن ذلك يختصر الوقت، ومن جهة أخرى سوف يشعر كل واحد منكم
بأنه قام بعمل نافع بمشاركته في ذلك (...).

7 يناير 1975

حبيبتي،

لم أتسلم رسالة منك منذ الخامس والعشرين من دجمبر. لا أدري لماذا جعلني ذلك أضطرب هذه المرة. ألكوني أشعر في الأيام الأخيرة بنوع من الضيق جراء مللي من القراءة؟ ربما. على كل حال، اشتقت كثيراً لرسائلك طيلة الأسبوعين الأخيرين. لم أقرأ إلا قليلاً لأنني أجد صعوبة في التركيز. إنها حالة تشبه تلك التي عرفتتها منذ سنة، عندما كنت في المستشفى حيث كنت أضطر لإعادة قراءة الصفحة نفسها عدة مرات قبل أن أتمكن من فهم مضمونها. يجب أن أتعمل أكثر وأن أنوع ما أمكن اهتماماتي وإلا أصبحت سجيناً للقراءة. لهذا، قررت أن آخذ «عطلة» هذا الأسبوع في انتظار التفكير جيداً في كيفية توجيه ممارستي العامة. إنني أتكاسل في الفراش، أتريض و«أتسكع» كما نقول هنا. (التسكع موضوع مزاح فيما بيننا. هناك بعض الرفاق الذين أصبحوا متسكعين بشكل خاص، حيث يقضون جزءاً هاماً من أوقاتهم في التنقل من زنزانة لأخرى بحثاً عن دردشة مفتوحة. لهذا ألصقنا بهم هذا اللقب، بل أكثر من ذلك وضعنا ترتيباً لأكبر المتسكعين). هذا يذكرني بأنه يجب علي أن أحدثك بشيء من التفصيل عن حياتنا الجماعية وبالخصوص عن بعض جوانبها الطريفة لكي أضحكك قليلاً. فمن بين الأمور التي تعبئ الدهاء الجماعي ما نسميه بـ «حالة البلادة». لكن هذا المزاح لا يصل بنا إلى درجة الخبث. يتعلق الأمر بضبط أحد الرفاق وهو يقوم ببلاهة ما. كرواية حدث لا يصدق ويتشبث هو بواقعيته أو كارتكاب خلط فادح إلخ... فيشعره في الحين بغلظته ونعمل على إثارة «حالة البلادة» لديه. ذلك ممتع حقاً. لقد اكتشفنا، زيادة على ذلك، وسيلة لضبط تلك الحالة والبرهنة لصاحبها أنه فعلاً مصاب بها. وقد اتضح أن هذه الوسيلة ناجحة حقاً، حيث نطلب منه ببساطة أن يصفر. وعلى العموم، حينما لا تتمكن «الضحية» من التصفير بشكل عاد، فذلك دليل على ارتباكها. هنا أيضاً نجد مرشحين مؤهلين أكثر من غيرهم، يرتبكون بكل سهولة، بحيث يكفي أن نكون جماعة من ثلاثة أو أربعة رفاق وننظر إليهم بطريقة خاصة كي يفقدوا السيطرة على أنفسهم.

هل رأيت حبيبتي، إننا نلهو أحياناً كالأطفال (...).

حبيبتي،

كلمة وجيزة لأجلك هذا المساء. أريد، من بين كل ما كتبت لك حتى الآن، من بين كل ما تمكنت من كتابته عن حياة الناس، عن الآمهم وآمالهم، أريد أن تكون هذه الكلمة هي الأكثر حناناً وجمالاً والأكثر إشراقاً بالحب والأكثر شفافية على قلبك.

أريد أن يمنحك اعتزازي بك صلابة وطمأنينة اليقين وأن يكون هذا اليقين أصفى من البلور وأقوى من الصلب. لن أمر بعد اليوم، بل أنت التي ستأمريني بالفرح وسوف أمتثل بإيماني الراسخ وبيدي المفتوحة ليدك، وبكل حضوري اليقظ. أه يا وردتي الربيعية، أنادي بسمتك. أنادي هدوءك الشامخ وصرامة عطائك. أنادي فيك المرأة الجديدة ذات النظرة التي لا تحدها تعرجات، بل التي تشمل نهر الحياة بأكمله، منذ الينابيع حتى البحر الواسع.

أنادي فيك تلك الطاقة على إزالة العقبات وعلى الاحتفاظ بكلية الأمل.

قبلي أطفالنا كما لو أنك تمزجينا، أنت وأنا وهم في نَفَسٍ واحد من الحنان وإلى أن نتحول جميعاً إلى جذع وجذور شجرة حناننا.

إليك يا حبيبتي العذبة.

2 فبراير 1975

حبيبتي،

(...) لقد كان ذهني شاردًا منذ يومين. لم أفعل شيئًا، ما عدا غسل ثيابي وترتيب زنزانتني ونفض الغبار. يمكنك أن تتصوري الطاقة التي أبدلها في مثل هذه الحالات. تذكرين عندما كنت أقلب المنزل على عقبه، لا أترك شيئًا في مكانه، خصوصاً الغبار والأوراق القديمة. كنا نغير بغيطة كل شيء في المنزل، نبدل الأثاث والتحف من أمكنتها. كنت أشعر شخصياً بنشوة حقيقية وأنا أقوم بذلك. وإذا ما قلت «شخصياً» فلأنني غير واثق من أنك كنت تشاطرينني دائماً هذه الميول. أليس كذلك؟ أذكر بحنان مشوب بالسخرية بأن تطرفي كان يصل بي في بعض الأحيان إلى الرغبة في ترتيب حقيبتك أو محفظة نقودك. والحق يقال أن الفوضى التي كنت أجدها فيهما شيء يصعب وصفه. ألم تكوني محافظة بعض الشيء على هذا المستوى؟ أما عن تطرفي الخاص، فهو حقيقة لا يمكن نكرانها. والمهول في الأمر هو أن هذه النزعة لا يمكن إلا أن

تتعمق. فالنظافة والترتيب يمكن أن يستغرقا ساعات كاملة خصوصاً إذا أضفنا «البريكولاج» الذي يقتصر هنا على صنع مرفقة من الورق المقوى وتزيينها بالورق الملون أو تغليف أحد الكتب أو ابتكار بعض الأشياء النافعة في الزنزانة. هناك أيضاً غسل الثياب والخياطة وتنظيف الزنزانة والطبخ وباختصار «العمل اللامرئي» الذي تقوم به «ربة البيت». فعندما نعيش هذه التجربة، ندرك أحسن من ذي قبل حجم العمل المضاعف الذي تقوم به النساء، أي استغلالهن المضاعف والاستنزاف المفروض عليهن. هذا مع العلم أن هذه الأشغال لا تشكل إلا جزءاً من الأعباء التي تثقل كاهلهن. إن تاريخ المرأة هو أطول عذاب وأبشعه في المجتمع الطبقي. ولكن صحة المرأة، وعملية إعادة النظر في النظام المجتمعي التي تقوم بها هي الأشعة الأكثر إشراقاً وإضاءةً لطريق المستقبل. فعندما تتحرر المرأة، تنفذ نظرتها إلى الأبعد والأعمق. وإذا كانت المرأة تحمل على كتفها نصف السماء، فإنها تسمح حسب رأيي، وبفضل تجربتها الخاصة، بإنارة أكثر من نصف الليل، ليل المجتمع القديم/الجديد بشاعته وجبته.

هذه بعض الأفكار التي راودتني بعد نهار قضيته في أعمال يدوية مختلفة، بينما كان فكري منشغلاً بأمور أخرى. سوف أكتب الآن إلى هند جواباً على رسالتها ثم سأحاول أن أقرأ قليلاً قبل النوم.

4 فبراير 1975

زوجتي الحبيبة،

(...) منذ أيام قليلة، استطعت العودة للقراءة ولكن بشيء من الحذر لأن التهاب العين الذي عانيت منه كان شديداً هذه المرة. هذا المرض لا يسبب وجعاً ولكنه يحد من إمكانية القراءة، إذ أضطر في ذلك إلى استعمال العين السليمة وحدها. لا بأس، لقد شفيت الآن، وعلي أن استدرك ما فات، فهالك مجموعة من الكتب تنتظرني. لقد تنقلت في بداية الأسبوع من مكاني وأقمت في إحدى زوايا الزنزانة. إننا نتهافت على الزوايا لأنها أكثر هدوءاً أو حظوةً من الأمكنة الأخرى داخل الزنزانة، كما أنها مناسبة لمن يعانون من مشكل التركيز مثلي. ولكنها مطلوبة كثيراً مما فرض علينا اعتماد الدورية للاستفادة منها. هأنذا الآن في زاويتي. عن يساري، صندوقان من الكرتون وضعت فيهما كتبي المفضلة. أمامي صندوق آخر من الكرتون غلفته ببلاستيك وردي ووضعت فوقه صورتك. الرفاق المقيمون معي في الزنزانة هم أ، ج، ك، د، وخ. اتفقنا على الالتزام بالهدوء ليتمكن الجميع من القراءة والعمل في جو مناسب. اليوم

أتى دوري في الخدمة أي أنني مكلف بالتنظيف والترتيب، تهيئة الأكل وأخذ الحساء والماء الساخن. منذ أسابيع قليلة قمنا بنوع من الثورة الثقافية فاتفقنا على «التشريك» التدريجي لبعض الخدمات بهدف الوصول إلى مساهمة الجميع، وبشكل تطوعي، في الأشغال. وهكذا يقوم الجميع بمساعدة الرفيق الذي يأتي دوره ببعض الأشغال الثانوية كالكنس وغسل الأواني أو إفراغ وتنظيف الطاولة بعد الأكل. الطاولة التي أتحدث عنها عبارة عن صندوقين من الكرتون ألصقناهما وغلّفناهما بالبلاستيك. أما المقاعد فهي علب «نيدو» فارغة. طبعاً لم تتم عملية «التشريك» هاته دون أخذ ورد. فالبعض كان يريد أن تسير الأمور بسرعة أكبر والبعض الآخر بشكل أبطأ، مما أثار نقاشات طريفة حول فلسفة العمل والموقف حيال العمل اليدوي ومغزى النظافة والترتيب إلخ... لا بد أنك تخمينين في أي معسكر كنت خلال هذه النقاشات.

الطقس رائع وسوف أعود لأخذ حمامات شمس، لـ «تخزين الطاقة الشمسية» كما يقول العلماء من بيننا. لقد توقفنا عن لعب كرة القدم منذ أن أضعنا الكرة التي نتوفر عليها، فاستعصنا عن ذلك بلعبة كرة الطائرة. ولكن هذا اللعب لا يجذبني لأنه لا يسمح كثيراً بالحركة.

كانت هذه لمحة مختصرة عن حياتي اليومية هنا. شتاء طويل وشمس في القلب لا تنطفئ، أحلام محتدمة في الرأس. أحبك.

23 فبراير 1975

جوسلين،

طقس جميل هذا اليوم. أتمنى أن تكوني ذهبت مع الأطفال إلى الغابة أو الشاطئ. عندما يكون الطقس هكذا، يكفيني أن أنزل للساحة فأستدفي بالشمس، أتمدد، أغمض عيني وألغي الزمان والمكان. ذكرتني مؤخراً بجولاتنا في الغابة وبجراتنا على الاستمتاع بلحظات من السعادة. أتعلمين أنني كثيراً ما أتذكر تلك اللحظات التي كنا نتفاهم فيها في الحين وحيث كنا نشرك الأرض كلها في وفاقنا. تلك الحرية المتوحشة، ذات العطر القوي التي كنا نمارسها. ولكن، لنفكر بالحجم نفسه بل أكثر في الحريات القادمة. تلك الحريات التي ستسهم أكثر بالعناية المتبادلة وبشراء الحضور. إنه لمن المشروع حقاً أن نشور ضد هذا الضياع والنزيف المفروضين علينا. ولكن، من الخطأ أن ننظر للمشاكل من جانب واحد. لقد قلت لك في إحدى الرسائل الأخيرة أننا نكسب بقدر ما نخسر. وأنا لا أقوم بحسابات ضيقة عندما أقول هذا. المهم هو أننا لا نتوقف أبداً. فكل يوم جديد وكل تجربة تأتينا بوعود حصاد مقبل وبلبنة أخرى لتشبيد

حبنا الجديد. وعلى كل حال، ربما لا يجوز أن نقارن ما لا يمكن مقارنته،
فالإساسي هو أن نتحمل مسؤولية وضعيتنا ونحن واعون بالتضحيات الضرورية
والأيزيغ بصرنا عن إشراقات الأفق (...).

26 فبراير 1975

حبيبتى،

اعذريني إذا ما كانت رسائلي قليلة هذا الأسبوع. مررت بأيام لم أكن أقوى
فيها كثيراً على الكلام. لم يكن الأمر يتعلق بما يسمى بالكآبة أو الضجر. كنت
فقط أعاني نوعاً من الفتور نصفه ناتج عن الغضب والنصف الآخر عن
التكاسل. لنقل أنني كنت صموتاً وعبوساً. كان يحدث لي ذلك، بين الفينة
والأخرى عندما كنت طليقاً، وقد كنت تؤدين ثمنه أحياناً. هل تذكرين؟ أما هنا
فيحدث هذا الأمر عندما أضجر من القراءة بحيث أستشعرها كشكل من
الاستلاب أو حشو الدماغ. يحدث ذلك أيضاً في اللحظات التي لا يمكن إلا أن
أثور فيها على هذا السِّلَلِ المفروض علي. هل ترين؟ فأنا كذلك أستطيع أن
أستنفر غضبي وأن أرفض بعنف هذا النزيف الذي يفرغ طاقاتي الحيوية.
ولكن، اطمئني، ما هي إلا لحظات عابرة. إنني أدخر من القوة ما يكفيني
لتعطيل أي تآكل، أي ربح مشؤومة. لقد ولدت للتفاؤل، للمقاومة والأمل،
وأرعى هذه الورود بكل عناد.

بعثت لك اليوم ببرقية أتمنى أن تصلك دون تأخر. من الآن فصاعداً، سأحتفل
بعيد ميلادك. ما كان يجرحني في الماضي (وأرفضه حتى الآن) هي تلك
المراسيم البليدة والشكلية التي ليست في العمق إلا إعادة إنتاج لعصور بائدة.
أما الذي كان من المفروض المحافظة عليه، فهو الفكرة في حد ذاتها، أي
فرصة لتقوية العناية بالآخر والحنان تجاهه. ما كنت أرفضه كذلك في الماضي
هو ذلك التعسف الكامن في اختيار تاريخ محدد للتعبير عن الحنان. فالحنان
بالنسبة لي ضرورة يومية وليست مسألة مناسبات. من الممكن أن يكون هذا
المنطق متشدداً بعض الشيء. أما الآن، فأنا أعلم أن الحنان وإن كان لا يجوز
افتعاله، فمن الضروري أن يُغذى باستمرار بشتى أنواع العناية تجاه الآخر. إن
الحنان شجرة رهيبة ولكن كم هي قوية عندما تنمو على تربة الوفاق الشامل.

لم أتلق منك أي شيء منذ رسالة 19 فبراير. أفكر كثيراً في ياسين، فيما
نسميه «بمشاكله». وبدون أن أقلل في شيء من الهموم التي يسببها لك ومن
خطورة بعض تصرفاته، خصوصاً تجاه الآخرين، فلقد توصلت إلى أنه لم تكن
لدينا دائماً رؤية صحيحة فيما يخص ذلك. أعتقد أننا لا نرى في تصرفه إلا ما هو

سليبي دون أن ننتبه إلى ما هو جوهرى فيه بل كذلك لما هو مشروع أي ما هو صحي. يجب أن نحتاط كي لا نرى في عناده وبعض تصرفاته الطائشة سوى جانب الإزعاج والاضطراب الذي يخلقه ذلك على مستوى تنظيم وسير حياتنا الخاصة. أن نحاول، على عكس ذلك تلمس احتجاجه الغريزي (والذي أصبح، يتجاوز أكثر فأكثر هذا المستوى) ضد كل ما هو مزيف وموهن في حياته. تجربته الاجتماعية وتجربة المدرسة إلخ... وأعتقد أنه من فرط ما نريده تلميذاً ممتازاً، متعلقاً و... فمن الممكن أن نخلق فيه طاقة الرفض وذلك الوعي أمام النظام والأفكار السائدة. إنه لمن الصعب أن نحافظ على توازن صحيح بين الجهد الذي نبذله لجعله يتقبل مبادئ أخلاق ضرورية وبين الجهد الذي يهدف إلى صيانتته من الخضوع والامتثال. وعلى كل حال، فأنا أشعر بأننا بالغنا شيئاً ما في الحكم على تصرفاته وحللنا مشكلته بشيء من التبسيط. من جهة أخرى، أتساءل إلى أي حدّ سوف لن نتعرض للمشاكل نفسها مع هند، التي تبدو الآن وكأنها أكثر «اندماجاً» من ياسين. يجب أن نعكس الأمور بخصوصها قبل أن تتعمق هذه النزعة عندها.

هل رأيت، لقد احتجنا لبعض الوقت لنكتشف بأن الأطفال شخصيات معقدة، لا يمكنها أن تنمو لوحدها وبشكل طبيعي. ولهذا يجب أن يصل المرء إلى درجة عالية من النضج وتغيير نفسه كراشيد لكي يستطيع ادعاء مساعدتهم. ولكنه عندما يصل إلى هذا المستوى تكفُّ التربية عن كونها مجرد عمل مرهق أو مهمة عبثية تفرضها ضرورة إعادة إنتاج الجنس البشري. إن تربية الأطفال تصبح مظهراً من مظاهر تحول الواقع البشري. وهكذا نكتشف صحة المقولة: «يحتاج المرّبي إلى إعادة تربية نفسه» (...).

14 مارس 1975

عزيزتي هند،

سررت كثيراً برسالتك والرسوم التي بعثت بها إليّ. سررت أيضاً بلوحتك الجميلة. ولقد حاولت أن أفهم ما رسمته: في أسفل الورقة، أعتقد أنني أرى ساحة وبها سجينان. وأعلى قليلاً، أظن أنه سور ثم فوقه جبال تكسو قممها الزهور، وبين الجبال شمس حمراء ساطعة.

هكذا فهمت لوحتك. من الممكن أنك أردت رسم أو التعبير عن شيء آخر. على كل حال وبالنسبة لي فلوحتك جميلة لأنها تجعلني أفكر في الفراق والحرية. ما أحببته أكثر، هي تلك الزهور الضخمة على قمة الجبال. عليك أن

ترسمي بانتظام أكبر، لأن الرسم يمكّنك من أن تقولي الكثير مما تحسّين به دون أن تستطيعي التعبير عنه بالكلمات.

أنت تعرفين يا حبيبتى كم أنا معترّ بك، بلطافتك وبالمساعدة التي تقدمينها لأمك. استمري في ذلك. وحاولي أن تقرئي أكثر عوض مشاهدة التلفزة باستمرار. هل توافقيني؟

عندما ترين صديقاتك أو تكتبين لهن، بلغيهن تحياتي. أقبلك بحرارة. أبوك.

16 مارس 1975

حبيبتى،

كان الطقس جميلاً وحراراً هذا اليوم. يوم أحد هادئ وروتيني.

إن حالة الانقباض التي حدثت عنها في إحدى رسائلي الأخيرة لم يكن مصدرها، كما تخيلت ذلك، هو الاحتياج الإبداعي. فعلى هذا المستوى لم أتجاوز خلال هذه السنة طور التفكير في مجموعة من المشاريع. وكوني لم أكتب شيئاً ذا أهمية لم يكن بالنسبة لي مصدر انزعاج أو قلق. فأمام الثغرات التي أشعر بها على عدة مستويات، بما فيها مستوى وسائل التعبير، كان عليّ أن أحدد اختياراً ما. ولقد اخترت تعميق الدراسة والتفكير في العديد من المجالات. إنني لم أندم على هذا الاختيار. فنتيجة لذلك «انتقل» موقفي تجاه الإبداع الأدبي، إذا جاز هذا التعبير. فالكتابة لم تعد بالنسبة إلي تلك الممارسة التي بدونها ينتفي وجودي أو ينتفي مغزى حياتي بمجرد غيابها. وإنني أتساءل الآن إذا لم يكن هذا الموقف الأحادي أو «الإطلاقي» الذي كان لدي في الماضي تجاه الإبداع مبنياً على نوع من الخداع أو بالأحرى على رؤية ضيقة للواقع وعلى تقدير مبالغ فيه لدور الأدب. لقد أدركت مؤخراً مدى تعقد الواقع وفي الوقت نفسه مدى صعوبة عملية عكس هذا الواقع في حركيته وخصوبته. كما أدركت أن حاجتي للكتابة لا يمكن فصلها عن حاجات وضروريات أخرى لا تقل حيوية عن حاجة الكتابة. وبالتالي فإن عملية التغيير، بما فيها عملية تغيير نفسي، لا يمكن أن تتأتى بالكتابة وفي الكتابة وحدها.

ترين إذن، أنني إذا ما كنت منقبضاً في بعض الأحيان، فليس ذلك لكوني لم أستطع كتابة قصيدة وإنما لأنه يحدث لي أنا كذلك أن أثور على هذه الأوضاع وأرفض الحجز والحبسة وأشعر إلى أقصى حد بالاختناق. لكنني أستطيع تجاوز ذلك بسرعة بفضل كل بواعث الوجود والأمل والإيمان لدي. ثم إنني أردت أن

أقول لك هذا حتى لا تحسبيني تمثالاً مصنوعاً من كتلة واحدة. أريد أن أبقى قريباً منك وعلى هيئتي الحقيقية، دون صمت كاذب أو الغاز.

باستثناء «الأعمال المنزلية»، لا أقوم بأشغال يدوية. لكن، مع مرور الوقت، لن أحتفظ «بأيدي المثقف» التي عرفتني بها. بالطبع، دبرْتُ بعض الأشياء: زينت صناديق الكرتون التي أضع فيها كتبي، صنعت مرفقة جميلة أستعملها كمكتب. أما صورتك فقد ألصقتها على ورق مقوى وأطرتها بالبلاستيك. وحالياً، لا أشعر برغبة في المزيد من هذا النوع من الأعمال. أفضل لو أنني أستطيع أن أشتغل فعلاً. أن أقوم بعمل يدوي ما كالحياكة أو البستنة أو أي شيء آخر. وبما أن ذلك غير ممكن فلست متذمراً من هذا الأمر أكثر من اللازم. على كل حال، وفي ظروفنا الخاصة، فلو حُيِّرْتُ بين العمل اليدوي أو البطالة لكنت اخترت حريتي في القراءة والدراسة. كلي لك يا حبيبتي العذبة. أقبل يدك.

23 مارس 1975

زوجتي الحبيبة،

مرت بضعة أيام دون أن أتمكن من الكتابة إليك. كنت لا أزال تحت تأثير تلك الزيارة الباهرة، أتلذذ بها. غريب كم أفقد السيطرة على نفسي بقربك. فالكلمات تصبح وكأنها زائدة. أتلعثم أثناء التحدث عن الأشياء العادية والبسيطة. كم يكون رائعاً أن نبقي فقط الواحد بقرّب الآخر، وألا يخترق الصمت سوى الحنان. فتكون رسائلنا كافية لتعميق وفاقنا، ولرصد حركة تحولنا. فتبقى الزيارة احتفالاً للانصهار العذب. ما أقوله هنا ليس واقعياً ولكن يبقى غاية مع ذلك. لقد صرت مغرقاً في الرومانسية. أليس كذلك؟

لا تؤاخذيني حبيبتي. إذا حدثتكَ كثيراً عن قراءاتي. أولاً، كان عليك ألا تتزوجي بـ «مثقف». ثم إن هذا هو الوجه السلبي للممارسة الوحيدة المتوافرة لدي، أي الممارسة الذهنية. على كل حال، فأنا أحدثك عن الكثير من الأشياء الأخرى حتى أن الأمر أصبح يشبه عملية «تعرية القلب» (...).

منذ أمس، يبدو أننا دخلنا رسمياً في فصل الربيع. وقد انعكس ذلك بالنسبة لي في إقدامي على الاستحمام في الشمس وأخذ دشٍ بارد. ثم تخيلت رحلتك إلى «مكناس» و«فاس». فاس على الخصوص، استوقفتني. كم أود أن أرى من جديد مدينة ذاكرتي هذه، تلك التي كانت نسغ شعري الأول. كم أود أن أتجول في أزقة طفولتي، زيارة الدور التي سكناها، تلك التي ولدت فيها بـ «عين الخيل»، ثم تلك التي كنا نقطنها بالقرب من «دار المجلس»، وأخيراً تلك التي

تعرفينها. أشعر بأنني الآن فقط أستطيع استيعاب هذه المدينة، وإعادة تشكيلها في أوقات مجدها وفي تناقضات الحاضر، كما أستطيع تسليط الأضواء على تجربتي الخاصة في مدينة الاختمار والانتظار هذه. عندما أفكر في كل الأماكن والمدن التي يمكن أن نسعد فيها ونكتشف الجمال باستمرار، فإنني أنزع للاعتقاد بأن أفضل موهبة للإنسان هي أن يكون رَحَّالة. فتصبح بذلك جذوره الحقيقية هي ما يربطه بأماكن انبهاره، بعمله الخلاق وبأسباب تفتح شخصيته. أتمنى لك إذن كل السعادة وأنت تزورين مهد رفيقٍ دربك. وإذا ما ذهبت إلى «مدرسة العطارين» تلك التي زرناها معاً، فتأملي جيداً زخارفها التي تنتشر كتموجات هائجة. تأملي حركتها وتحديها لكل ما هو عابر. إنها تشبه إلى حدٍ ما حبنا.

28 مارس 1975

حبيبتى،

لم أشعر بمرور الوقت هذا الأسبوع. زيارة اليوم كانت تبدو وكأنها استمرار لزيارة الأسبوع الماضي. تغيّر بسيط في العادات والديكور يغير كل شيء. ثم إن الطقس جميل والنور له رقة خاصة. كم يستهويني منظر السماء وقطعان السحب التي ترعى فيها. عادت الخطاطيف بزقزقاتها الأكثر تناغماً من زقزقات العصافير الأخرى التي لا تفارق ساحتنا. بعض اللقالق أيضاً تمر ببطء في السماء: يبدو على محياها نوع من الطيبة والصرامة في آن معاً. في الصباح يكون الجو بارداً وعندما أخرج إلى الساحة لأغتسل أو أقوم بجولة، يذكرني ذلك بفاس، بسطيحة منزلنا وبشظايا الأصوات التي تصعد من المدينة وتتحطم على تجاويف المساكن. ينقص هنا انعكاس أقواس قزح على القيب وزجاجيات الغرف المبنية فوق الأسطحة، ينقص أريج الياسمين والنارنج أو بكل بساطة فوحان القهوة. الصمت مطبق هنا، والهواء لا رائحة له. يُخيل إليّ أننا فوق جبل خال من النبات أو داخل جوف بركان. أن أرى شجرة، بضع أشجار كما حدث قيل قليل، أن أرى نافورة ماء ورقعة مخضرة من الأرض، ذلك يسبب لي نوعاً من الدوار. أتمنى أن يسمحوا لنا بغرس بعض النبات والأزهار ولو في علب من التنك. سيسمح ذلك بإدخال شيء من البهجة على ساحتنا وسيسمح كذلك للمولعين بالنباتات في صفوفنا بالاهتمام بشيء آخر غير القراءة. أعتقد أنني أستطيع أن أكون بستانياً في المستوى (...).

ما أَحَقَّرَ اللامبالاة والرفاهية بكل أشكالها! كم هي شتيمة في حق الحياة! أن يخفق قلبنا للفراق والذكرى، أن يخفق لتخيل المستقبل، أن يخفق للبشاعات

ويحدد في الحين أساسها المرفوض، أن يخفق لكل تقهقر أو تقدم، لكل نصر أو هزيمة، لكل فكرة صحيحة تفتح كوردة في الرأس، لكل استلاب يسقط في سلة النفايات، أن يخفق لكل أشعة الحنان ويخفق على الدوام، يعني أننا نعيش الحياة بكل زخمها (...).

2 أبريل 1975

جوسلين،

لم أتسلم أية رسالة منذ الرابع والعشرين الأخير، فملأت هذا الفراغ بتخيل رحلتك إلى فاس. لاشك أن الجو كان ممطراً والبرد قارساً والأزقة موحلة. أما في حالة عدم سقوط الأمطار، فستكون المدينة قد اكتست حلتها القشبية وبالتالي فإن إعادة اكتشافها بعد كل هذه السنين سيكون غاية في المتعة. انتظر رسائلك بفارغ الصبر لأتعرف على التفاصيل. أعتقد أن ياسين لم يكن مرتاحاً كعادته للتجول في أزقة المدينة العتيقة. يا له من ولد غريب الأطوار! إنه ليذكرني بحالات غضبي عندما كنت طفلاً، مع هذا الفارق أنني لم أكن أتوافر على الحظوظ والإمكانات نفسها. لقد كان علي أن أحل مشاكلي بنفسني، أن أتعرف على الأشياء وأن أختار بنفسني. كم هي سخيصة تلك الأفكار السائدة والتي تصور الطفولة على أنها «عصر ذهبي»، عهد البراءة واللامبالاة. والواقع أن الطفولة مرحلة قلق كبير وتمزقات يجد الطفل نفسه فيها أعزلاً ومحاصراً. إنها مرحلة الإدراك الجزئي وعدم الاكتمال والعَيِّ. إنها عمر القساوة. فالأطفال هم من الضحايا المجهولين للنظام المجتمعي القائم. متى يأتي زمن الطفولة السعيدة المبدعة والمشاركة في تغيير العالم؟ يجب إعادة إحياء كل شيء.

لم أقم بأي شيء يذكر هذا الأسبوع. تصوري أنني تخلت مؤقتاً عن التمارين الرياضية. كان ذلك متوقفاً! وبما أن لي فائضاً من الوقت، فلقد حاولت تحليل أسباب الإعراض. أعتقد في آخر المطاف أن الجري وتكرار الحركات الرياضية إلخ... يشكل نشاطاً ميكانيكياً. فالرياضة يجب أن تنعش الفكر لا أن تنحصر في علمية جسمانية وعضلية محضة. ستستنتجين دون شك من ذلك بأنني أظن قصد تبرير كسلي وعدم مواظبتي. لك ذلك، ولكن تيقني أنني صادق فيما أقوله وأشعر به (...).

لقد تحسن الطقس من جديد. سماء في منتهى الروعة. أشعر بالعالم الخارجي كمدٍّ زاخر يغمرنني عندما أراك وينسحب في آخر الأسبوع فتتلاشى أصداء أمواجه البعيدة. آنذاك ينشط السجن أكثر من العادة فأتمسك مادته

بشكل أكبر. أنتبه أكثر للديكور، لغياب الألوان، للأشياء التي تحيط بي وللنداءات النادرة. ثم، مع اقتراب الزيارة، تفتح نوافذ في قلبي وترتخي قبضة المِلزمة (...).

4 أبريل 1975

حبيبتى،

قصيرة، قصيرة جداً زيارة اليوم. كنت أشعر بحُمّى خفيفة نتيجة الإعياء والتهاب إحدى عيني. لذا مرت العشرون دقيقة كحلم مضطرب. ولكن كم كنت سعيداً بك وبالأطفال. كم كان قاسياً أن لا أستطيع معانقة وتقبيل الأطفال. سوف أحتج على ذلك وأطالب بزيارتهم مباشرة في المرة القادمة.

لقد تأكدت تكهناتي حول سفرك إلى فاس. كان الجو ممطراً. إذن الأزقة موحلة والتجول غير ممتع فيها. أتمنى أنك لم تضجري مع ذلك. فالإيجابي في رحلات كهذه هو ما تسمح به من إعادة ربط الصلة بالعائلة وبتلمس ما يفكر فيه أناس آخرون غيرنا ولكنهم قريبون من حيث «روابط الدم». كيف يتصورون الحياة بشكل عام، كيف تنعكس لديهم تجارب لا يدركون تماماً أسسها. إن واقعاً كهذا مليء بالفوائد رغم الضيق الذي يمكن أن نشعر به إزاء بعض مظاهره. أنا مسرور إذن بهذا السفر الذي قمت به لكي تقفي بنفسك على حقيقة الأمور. ها هنا نرى جيّداً صعوبة تدمير العالم القديم وكيف أن تغييره تغييراً جذرياً ليس بنزهة مريحة. وهذا من شأنه أن يدعم وضوح الرؤية وأن يحول دون أي تسرع. لكن ذلك يتطلب التخلص من نزعاتنا الذاتية في مقارنة الأشياء والحكم عليها. وعندما نتخلص من هذه النزعات نستطيع وضع التذبذب وحتى الجبن في إطارهما الملموس ونستطيع أيضاً ضبط مجال الرفض أو الحوار، مهما كان حجمه.

هل تعلمين حبيبتى، أنني عندما أفكر في الماضي أكتشف أن عزائي الوحيد يكمن في شخصية أبي. ذلك الرجل الذي لم أتوقف عن محادثاته، ومحادثاته فقط طوال حياتي. ذلك الصانع التقليدي الكادح الذي كان منذ أن عرفته ينهض في السادسة صباحاً ولا يعود إلى البيت إلا مع حلول المساء، يكدح بحمىة، بصمت وتواضع. لم يعامل أياً من أبنائه بعنف في يوم من الأيام. مرة فقط، عندما كنت في السابعة أو الثامنة من عمري، ضربني بحزامه الجلدي ضربة واحدة. وحتى في هذه الحالة، لم يفعل ذلك إلا لأن أمي «أمرته» بذلك. لذا فإنني أشعر اليوم بتأثر كبير عندما أفكر في هذا الرجل. هنالك مقولة كان يرددها في الكثير من الأحيان وهي: «أرجو الله أن نموت ونحن فقراء». إنها

تلخص جيِّداً قناعاته بالقليل وترفعه عن المصالح القذرة والريح الجشع. فبفضله، دون أن أنتبه دائماً لذلك، لم أكن أبداً غريباً عن عالم العمل، عن محنه، صدقه وسموه. نعم، فإذا لم تكن غير هذه النقطة المضيئة في علاقتي مع الماضي، فإنها تكفيني كي أحافظ على صلتني بهذا العالم الذي يجب تغييره وإعادة الاعتبار لجوانبه المشرقة في الوقت نفسه الذي يجب إدانة جوانبه الهمجية.

لم يكن سفرك إذن، بالنسبة لي، وقفة سياحية وإنما كان تعبيراً عن ضرورة، ضرورة توضيح الروابط والفهم والانفتاح. أشكرك حبيبتني على مبادرتك الرقيقة هذه. إنها غمرت قلبي بهجة (...).

7 ماي 1975

زوجتي الحبيبة،

لكِ مني هذه الرسالة لتتأكدي من دوام تفكيرني فيك. هل تعرفين أنه رغم وجودي المستمر مع مجموعة من الرفاق، فانت الإنسانية التي أتحدث إليها أكثر من أي كان، هذا إذا ما اعتبرنا نوعية الحديث وليس كمه. بشكل عام، لم أعد «ثرثاراً» كما كنت في الماضي. يحدث لي أن لا أفوه بأكثر من بضع جمل خلال يوم بأكمله. لذا فإن رفيق عمرك الذي ستسترجعينه يوماً ما، سيكون أكثر صمتاً من ذلك الذي تعودت عليه. لنحترس مع ذلك من التنبؤ بما يخفيه لنا المستقبل. من الممكن أن نقلل من الكلام ولكن ذلك سيوفر علينا الكثير من المشاكل المغلوطة. ثم إن لحظات الصمت التي قد تسود بيننا ستكون معبرة مثلها مثل باقة من القصائد الأصيلة.

خلال هذا الأسبوع كان شعوري حاداً بتتابع الأيام. لأنني اشتقت إلى رؤيتك وأنت في أحسن الأحوال، جسدياً ومعنوياً. سوف تكونين قد تخلصت من تلك الحمى الخبيثة التي ألمت بك وكذلك من تلك الأفكار السوداوية التي رافقتها. سوف تكونين قد استرجعت بسمة الأيام السعيدة، بسمة العيد الكبير. وسوف أحدثك وأحدثك عن العشق والأمل. سوف تحدّثني عيناك عن الأحلام المشمسة، والحنان المقتسم والعطاء الشامل. سوف تُبيدُ حبكة الحواجز الصدئة.

قرأت قصة «تريستان وإيزولت»⁽²²⁾ إنها تحتوي على بعض المقاطع الهزلية والحلوة. النهاية بالخصوص تضيف على القصة شعرية خاصة. لكن سحرها المفترض لم ينطل عليّ. صحيح أن المشاعر التي تعبر عنها تشهد على عهد من التطور البشري كانت فيه العلاقة بين الرجل والمرأة تنعقد من البهيمية

الصرفة وكان الشاعر يحاول عقلنة ظاهرة العشق. وهذا ما يجعل الرواية مؤثرة لأنها تعيد للأذهان الخطوات الأولى التي خطاها الإنسان نحو اكتساب الوعي بضرورة الرفع من شأن العلاقات الإنسانية. لكن تعاطفي مع الرواية يتوقف عند هذا الحد. لأن الحب لا يزال في حاجة إلى خلق جديد. إنه لا يشبه في شيء التخدير الذي يظهر في الرواية. أستطيع قول الكثير في هذا الموضوع لاسيما وأنا شبه خبير في المسألة. هل تذكرين بأنني كنت قد أنجزت بحثاً حول «الحب في رواية «الأميرة كليف» في إطار إجازة الأدب الفرنسي؟ لا أدري كيف أضعت هذا البحث. لقد أثنى عليه كثيراً المرحوم غابرييل بونور⁽²³⁾. هاأنذا أسترجع إحدى ذكرياتنا: الزيارات التي كنا نقوم بها لذلك الأستاذ العجوز، كؤوس «الخيريز» الصغيرة التي كان يقدمها لنا والحكمة التي كان يتحلى بها، وغزارة لغته التي كانت تبهرنني. هل تذكرين ذلك؟ كنت آنذاك شاعر «الرجلة والجذور»⁽²⁴⁾ قبل أن أصبح شاعر العاصفة الاجتماعية. أما أنت، فكنت المرأة ذات الفستان الأسود وجديلة الشعر الملتفة حول مؤخرة الرأس، المرأة صاحبة القيثارة. أتيت في اللحظة المناسبة لتجعلي مني إنساناً حقيقياً. ومددت لي يدك منذ تلك اللحظة. كم كنت صائبة في ذلك. أجل حبيبتي. رفيقك.

14 ماي 1975

حبيبتني،

(...) منذ أيام وأنا أعيش كلاجئ. إنهم يقومون بأشغال في الزنزانة التي كنت أقطنها ولهذا نقلونا إلى زنزانة أخرى. نحن فيها أكثر عدداً من ذي قبل وجل أمتعنا في زنزانة فارغة. لكل هذا، لا أتمكن من العمل. الجو تطغى عليه نزع الدردشة والغناء. لا أقرأ غير الروايات. غوركي الذي قرأت كل أعماله تقريباً، ثم رواية لـ أن لوش قرأتها دفعة واحدة. الكاتبة من الأوروبيين الذين كانوا يعيشون في الجزائر وتحكي في روايتها هذه عن تجربتها خلال الحرب الجزائرية وبعدها. (كانت الكاتبة مرتبطة بأحد قادة منظمة O.A.S.⁽²⁵⁾، وعن تجربتها الأدبية ومغامراتها العاطفية. في هذا الكتاب، تطالعنا مأساة الجالية الفرنسية بالجزائر، بجوانبها المؤثرة أحياناً وغير المفهومة في غالب الأحيان. أما الكاتبة فإنها سطحية على المستوى الفكري ولكنها حاولت دائماً أن تكون منسجمة مع قناعاتها إذ لم تسمح لها حواجز آفاقها الاجتماعية والإيديولوجية من اكتساب الوعي الصحيح. لذا فإن هذه الرواية لا تتعدى مستوى الشهادة بل إنها تشكل إخفاقاً من الناحية الأدبية. ولكنها من نوع الكتب التي سيكتب لها النجاح لا لسبب إلا لكونها تُدسَّن ما يمكن أن أسميه بـ «الدونجوانية النسائية».

من الممكن أن يكون رأيي هذا مبالغاً فيه لأنني لم أقرأ إلا قليلاً من الروايات التي كتبتها نساء.

حبيبتي. لا أعيش حالياً فترة إبداعية. على العكس من ذلك أعيش نوعاً من الخمود. في حالة كهذه لا أصلح إلا للحلم. أترك رأسي يعتمر بالأفكار والقصص التي أستوعبها دون عناء. فأصير آنذاك صورة كاريكاتورية للشاعر المتيه الذهن. هل تتخيلين الصورة؟ إنها لا تناسبني تماماً، أو على الأقل هذا هو شعوري.

فيم أفكر؟ فيك طبعاً ولكن أيضاً في كل هذا العالم، هذه الحياة خارج الأسوار، وفي المستقبل. أشيد مُدناً فاضلة، «يوطوبيات» إذا شئت، ولكنها يوطوبيات واقعية. أتخيل مكاننا فيها وحضورنا. أفكر في ياسين، هند وقد أصبحا مراقبين، أفكر في الأب الذي ساكون بالنسبة لهما. أذهب إلي حد تصور نقاشاتنا في المستقبل وتنظيم حياتنا الجماعية. أحلم ببلدان لم أعرفها بعد، تلك التي سنزورها سوياً بدون شك لأننا نكنُّ لها العطف أو لأنها تثير فضولنا، كما أحلم ببلدان أخرى، أشعر لوحدني بانجذاب نحوها كالبلدان الإسكندنافية والبلدان الأوروبية التي لا تطل على البحر المتوسط. ثم هنالك الكتب التي أرغب في كتابتها وكل الباقي، أفق الرجال والنساء الحقيقيين. أحس بالدفء في قلبي لأن حنانك لا يفارقني (...).

16 ماي 1975

حبيبتى الحنون،

لقد سعدت كثيراً لرؤيتك أنت والأطفال. أريد أن أعتذر عن رد الفعل الحاد الذي صدر عني خلال الزيارة والذي شعرت في الحين بأنه ألمك. أعتقد رغم كل شيء أن الأمر كان بسيطاً. أنت تعرفين أن همّي الدائم هو التأكيد على ما هو أساسي. لم أنس أبداً الصعوبات التي تواجهينها والاستنزاف المفروض عليك والحصار اليومي المضروب من حولك. أرجوك، حبيبتي، ثقي في تفهمي التام وفي مسانديتي التي لا تلين. كم أود أن تشعري، من خلال هذا الحنان الشاسع الذي يرعد في داخلي، بانشغالي بكل ما يمكن أن يعينك ويتجندي الدائم للحضور بجانبك ولمشاطرة كل همومك. لن أستطيع أبداً التعبير باللسان عن هذه العناية وهذا التوق نحوك. لكننا متفاهمان جيداً فيما يخص هذه المشاعر، إنها متضمنة في كل حركة وكل رعشة من التحامنا وانصهارنا. لذا، فعندما تكون لديك بعض المشاكل، أعتبر أن الأهم هو أن نتشبع بالمبادئ التي تساعدنا على مواجهتها بكل صلابة ويقظة وتحكم في النفس. فلا تُؤوّلي

موقفي هذا كاستخفاف بمشاكلك. لا تنسي، ولو للحظة أن الذي يقف هذا الموقف يوجد في وضعية تمكنه جيّداً من معرفة ما هو الاستنزاف والحصار إلخ...

أقول ذلك وأنا واع باختلاف الظروف. ولكن، رغم كل هذا، فأنا أحب غضبك ورفضك، أحب نفاذ صبرك وأعرف أن هذه المشاعر نابعة من الحرص الكبير وأنها تجلي لعشق المستقبل وللحياة الجديدة التي ستبذلين فيها خير عطائك وتشعيرين في كل ساعة وكل يوم منها بأنك تشيدين، تتقدمين وتقدمين. أنا أقبلك هكذا، ماذا أقول؟ فأنا أريدك هكذا، غير راضية باستمرار، ثائرة وفي أتم صحوك. هل رضيت الآن؟ إذن لا تترددي في الإفصاح عما يخالجتك من غضب وهموم. أحبك. إنما أرجوك أن تحافظي على صفاء عينيك، فبدون ذلك أشعر بالضياع ولا أقوى عليّ تحمل القضبان. إن الدموع التي لا تنتمي للفرح هي دموع العالم القديم. أما نحن فإننا نعتمد أكثر فأكثر البسمة والقبضة المرفوعة. عيوننا لا يصح أن تكون إلا نشيد الأمل الدائم. إن النور الذي نحتضنه في داخلنا ليس ملكاً لنا فحسب، فلن يكون له معنى إن لم يصدر عنا ليضيء الحياة ويساعد الناس على صيانة الثقة الضرورية.

رفيقتي العذبة، كم من حب أكنه لك. وبفضل حبك، كم من حب أكنه للحياة الحقيقية، للإنسان ولتجربة البشرية. إن هذا الصمت، هذا الأسر وهذا المنفى مؤشرات بالنسبة إليّ. فالسجن يجسد الخطأ، الجهل، الأنانية، احتقار الآخرين. اللاإنسانية. ولكن، كم من شמוש يسمح بها، كم من حقائق. يا له من تعطش للإنسانية الحقّة، لـ «شواطئ بيضاء تنعم فيها أمم سعيدة». يا له من عطاء فكري وجسدي! إننا نعيش ميلاد المستقبل وحلول الشعر الكوني فينا. كيف نأبه إذن باعتداءات البشاعات، وبكل الأشياء الخسيسة الأخرى. لن تتمكن أبداً من إذبال زهور عشقنا والنيل من رحابة قلبنا وإقبار أيادينا. قد نتعثر وقد تزداد الشعرات البيضاء في صدغنا. لكن قلبنا لن يمسه بل أكثر من ذلك، سنكون مؤهلين أكثر لتعميق تجربتنا ومعرفتنا بما هو محكوم عليه بالفناء والذي سيجرفه لا محالة نهر التحولات اللايقاوم. فرحتي بكل هذا، واعتزازي به!

قَبْلِي قُدْس. سأكتب لياسين وهند. وفي المساء، عندما تقرئين رسالتي فكري في لقيانا واشعري كم أنت محبوبة.

21 ماي 1975

جوسلين، حبيبتني،

كنت أتأمل المساء منذ قليل. اخترقتني رعشة. هذه الفضاءات الساكنة. لا واقعية الزمن. نداؤك. حلمي كان يجعل من يديك سحابتين ترسل حنانك نحوي. عيناك كانتا تُغرِقان السماء في أعماقهما البحريتين. تتمتعين إذن بكل هذه القدرة على مهاجمة الغياب وإضاءة منفاي؟ صباح الخير، حبيبتي. ماذا تفعلين؟ أنت جالسة، تقرئين رسالتي، محاطة بالزخارف والألوان. المدينة من حولك تخبو وتقذف بضوضائها، أو إنك واقفة، تمشين وأنا بجانبك وصوتي يصلك. الورقة التي بين يديك، أريدها ضغطة يد، لمسمة ناعمة، شفاهاً تفتح للبسمة. هل أنت هادئة، حالمة أو مستعجلة، غاضبة بسبب سماجة ما أو مُثَبِّط ما؟ أي ثياب ترتدين؟ أتخيل، أفكر فيك. كم هي غريبة حياتنا! نصحو وليس ذلك بصحو، إنها فقط النار التي تعود للاشتعال بعد فترة ركود، نمشي وكأننا نذهب كل مرة في رحلة طويلة. نتكلم وكان صوتنا يرنُّ داخل الجسد. غريبة حياتنا؟ نعم ولكن فقط لأن البلاده منتصرة والشيوخه البشعة. لأن رؤانا لم تصبح بعد رؤى أولئك الذين يحققون الرؤى (...).

27 ماي 1975

حبيبتي،

يوم صيف، شمس، جَزِي، دَشُّ بارد. والآن، وقد أغلقت باب الزنزانة وعاد الصمت، ليس هناك غير زقزقة العصافير، تغريدها الغني والمُهَيِّج. في الماضي لم أستحسن إلا نادراً هذا الغناء كما أستحسنه الآن. الشيء نفسه بالنسبة لأصوات الطبيعة الأخرى، لمشهد السماء، لشكل وألوان الأشياء. أما هنا، فالأمر يختلف تماماً. فالورق الملون الذي حصلت عليه مؤخراً تحول في نظري إلى منبع للغبطة الاستيطيقية. لقد أطلقته على ورقة كبيرة من الكرتون ووضعت فوق الجدار لاتقاء الرطوبة. وعندما أتمدد وأقابل الورق الملون، أتأمل الورود والأشكال المرسومة فوقه وكأني أشاهد لوحة فنية. صورتك أصبحت هي الأخرى موضع انبهار بالنسبة إليّ. وإذا لم آخذ حيطتي من ذلك، من الممكن أن أصير «وثنياً». أستطيع الآن أن أفهم لماذا كان الإنسان في عهد ما قبل التاريخ ينبهر برسوم الكائنات البشرية والحيوانات التي كان ينجزها. أفهم كذلك لماذا كان يتوهم بأن إنجازه هذا يمنحه قوة خارقة. لقد فكرت جيداً في هذه الظاهرة. إنها بالتأكيد نتيجة ضمور الواقع الذي نعاني منه. هذا الضمور الذي من شأنه أن يخلق عند المرء نوعاً من الرجوع إلى طور الطفولة (حساسية مفرطة، اهتمام مشتمت، موزع على الكثير من الأشياء التافهة إلخ...). ولكنه، على العكس من ذلك، يمكن أن يقوي الاهتمام بالواقع، بالآخرين، ويعمق النزوع إلى التحاليل الدقيقة. في الخارج، يبدو لي أن النظرة

التي نلقبها على شخص ما أو منظر طبيعي أو مشهد تبقى نظرة عامة. أما هنا، فنحن ملزمون بتحليل وتعميق العلاقات، بِطَرَحِ كيف ولماذا كل شيء، فلسفة سجنية، أليس كذلك؟ (...).

اشتقت إليك جوسلين. أنت الجرح والبلم. التفكير فيك يحمسني دائماً، ومخاطبتك تجعلني أنتعش كلياً، فكراً ومخيلة وجسماً وقدرةً علي العطاء. أشعر في كل لحظة بسرقتك مني وفي الوقت نفسه أحتقر منظري هذا التَّهَب. أرثي لهذه الهمجية. لأن حضورك لا ينضب. أن أحبُّك، معناه أنني أسكن الأمل. أقبلك.

30 ماي 1975

زوجتي الحبيبة،

لقد تقلص وقت الزيارة في الأسابيع الأخيرة. لذا فالوقت الذي أصبحوا يسمحون به لا يكفي لإطفاء تعطشي إليك ولأخبارك خصوصاً وأن رسائلك تصلني متأخرة. ولكن هذا لم ينل من سعادتي اليوم. فرغم الزكام الذي تعانين منه، وجدتك في أحسن حال، منبسطة ومرحة. لا تقلقي من أجل حوارنا. فحتى في الظروف العادية يحدث ألا يكون هذا الحوار مسترسلاً لأنه، ومن الناحية العملية، لا يمكن للواحد منا أن يتفرغ للآخر بشكل تام، وفي كل الأحوال يجب ألا يصبح الحوار انغلاقاً في دائرة العلاقة الواحدة. إنني عندما أضع حصيلة لهذه السنة، أجد أن حوارنا كان مكثفاً وغنياً ولو أنه لم يكن مسترسلاً. لم أكن أكثر قرباً منك كما هو عليه الحال اليوم. كان حضورك شيئاً استثنائياً. لقد تقدمنا كثيراً في وفاقنا حول قضايا أساسية وفي تعرية أوهام الماضي واستشفاف دروب المستقبل. ولم أشعر أبداً بالحرمان لأنك تُخصِّصين لي وقتاً أقل مما كان في الماضي. فأنا أعرف أنك تعيشين تجربة جديدة، وأنك مندمجة في ممارسة تكتسي أهمية بالغة بالنسبة إليك، وبالتالي بالنسبة إلينا. ثم. وتجاوزاً لهذه الاعتبارات كلها، فأنا أشعر دائماً بعنايتك البالغة تجاهي، فكلمة واحدة منك، همسة حنان واحدة كفيلتان بإفهامي وبإضاءة فضاء انصهارنا.

ها هي العطلة على الأبواب وسوف يكون لك مجال أكبر للتحدث إلي وللتعبير عما يخالجتك من أفكار. هل تعلمين كم كنت مؤثرة هذا اليوم؟ لماذا. هكذا. لقاءاتنا أصبحت من نوع فريد. إنها تدفق أمواج من الغبطة واليقين. عندما تحضرين وتلتمع عيناك، يولد في داخلي صوت ويقول: «هذا الذي تعيشه، هذا الذي نعيشه شيء أساسي كانبجاس الحياة، كيوم عيد كبير، كيوم نصر، كقرار

عظيم يدفع الرجال، الكثير من الرجال في طريق لم يكتشف بعد ولكنهم يعرفون أنه سيقودهم إلى موعد مع الحقيقة، مع أنفسهم ومع العالم، وهذا الصوت الذي يختصر المسافة بيننا، يصلنا باستمرار ويتحول إلى نداء ثم إلى همسة، هذا الصوت هو وحده الذي يهم. إنه ينطق بحبنا». حبيبتى، كم هو شيء نفيس، هذا الذي وُلِدَ من أحشائنا بفضل المحنة، بفضل إصرارنا وعزمنا على التغيير. فلنعتن إذن بهذه المعجزة الطبيعية، هذه الوردة المتوهجة آلاماً وآمالاً. أحبك. تعرفين ذلك. لكن كل كلمة «أحبك»، بالنسبة، إلي، لا تشبه نظيرتها. فلديّ من الأسباب ما لا نهاية له لأقول لك هذا.

لقد كان أطفالنا رائعين (إنه الأب هذا الذي يتكلم!). ياسين متفتح، غير منقبض كما في المرات السابقة. أحب عينيه المُشعَّتين العميقتين والعنيفتين، أحب حبيبه الصافي كالتحدي. هند، كانت منشرحة، متحكمة في تعقيدات فراقنا، حنون. وقُدس، شجرة محتتنا، بدأت تعطي الآن الثمار والوعود. لقد كنا، نظرياً عل الأقل، متطرفين عندما قررنا أن نصبح خمسة. ولكن، عندما أرانا هكذا مجتمعين، لا أندم علي شيء، أقبل المعركة وأناضل لتهيئ الرجال الجدد. حبيبتى. لن أقول شيئاً آخر هذا المساء. أشعر بطمأنينة كبيرة وثقة كبيرة، أعشق، هذا يكفيني. إليك يا شمسي.

8 يونيو 1975

حبيبتى،

لقد كانت رسالة الجمعة مخصصة في جزئها الأكبر لياسين. أما اليوم فلي رغبة في أن أكتب لك دون موضوع محدد، أي أن أكون بالقرب منك وأحدثك بعفوية. أمس، تحدثنا عن الزمن. قلت لك أنني لا أنتبه لمرور الأيام. فالיום لا ينقسم إلى ساعات كما يحدث ذلك في الخارج. إنه يتلخص في ساعتين فقط، هما الصباح والظهيرة. وحتى هذا التقسيم بدأ يتلاشى بالنسبة إليّ. على العكس من ذلك، فالأسبوع أصبح هو الوحدة الحقيقية لقياس الزمن. من جمعة لأخرى، أستطيع إدراك المكتسبات الجديدة ومؤشرات التغيير. هنا إذن انقلب تماماً معطى الزمن. تصوري والحالة هذه مدينة محظورة كُفّت فيها جميع الساعات عن تسجيل الوقت. مدينة لا يشتغل فيها الناس ويأتيهم قُوُثهم من السماء. مدينة أصبحت فيها المخيلة مجال الممارسة الوحيد. مدينة حُكِّمَ فيها على الحب بالنفي. وفي هذه المدينة بالضبط أصبح من المفروض أن تكون الأحلام عادلة والصحو في أتمه والكرامة يانعة. هل قلت لك هذا من قبل؟ لم يسبق لي هنا أن طرحت على نفسي ماذا سأفعل: كتاب، فسحة، مناقشة، لحظة

تأمل، كتابة رسالة، لا أعرف أوقات الفراغ. اكتسبت انضباطاً ذاتياً من نوع جديد. ولهذا، إذا لم أكتب لك رسالة في اليومين أو إذا لم أقرأ كتاباً في اليوم، أتضايق من ذلك وأعاتب نفسي. هناك مقولة صحيحة تماماً ولكنها طريفة في الوقت نفسه: «إن الوقت من ذهب حتى في السجن».

25 يونيو 1975

حبيتي،

أعود لمشكل العائلة كي نتفاهم جيداً حول هذا الموضوع. أريد أن أوضح قبل كل شيء بأن موقفي هذا لا يقوم على أي نوع من الحساسية المرتبطة بوضعيتي كسجين أو أي نوع من التساهل مع الروابط العائلية التقليدية. أعتقد أنني لست في حاجة لأنبهك لذلك. في الواقع، إن هذا الموقف هو، كغيره من المواقف التي توصلت إليها، نتيجة لتفكير معمق في ممارستي الماضية ولتقييم نقدي لجوانبها الخاطئة. ولكي تفهميني أحسن، أعود إلى الماضي. تعلمين كم كنت متمرداً، لدى خروجي من فترة المراهقة، على القيم المتحجرة «والإيديولوجية التقليدية» وضيق الأفق الفكري والروحي للوسط الذي كنت أعيش فيه. كانت القطيعة هي المخرج الوحيد، فتمت هذه القطيعة بشكلٍ عنيف وجذري. ولقد كانت العائلة في تلك الفترة تشكل بالنسبة إلي رمزاً لكل ما كنت أثور ضده وأريد محوه ونسيانه. كانت السنوات الأخيرة التي قضيتها في فاس مؤلمة ولا تُحتملُ وكانت تبعيتي المادية تعمق هذا العذاب. لم تكن لي آنذاك القوة الضرورية للتخلص من كل ما كان يقيدني وللخوض في المغامرة. كنت سجين تناقضاتي. ولهذا كان ذهابي إلى الرياط والتحاقي بالجامعة ذلك الخلاص والمنفى المنشودين ولكنه كان أيضاً خوضاً في متابعة السراب والأوهام النخبوية. لم أكن مُسيساً في تلك الفترة. كانت لي فقط حساسية كبرى لما سميت «بالبؤس الاجتماعي الكبير». كنت أحلم بتغيير الإنسانية والواقع بقوة الأفكار وحدها وبإنقاذ العالم بحقيقة الفن وحده. كانت حياتي الضيقة السابقة، وما تحملته فيها من بشاعات وزيف، تبدو لي وكأنها كابوس يجب نسيانه قبل كل شيء. ولهذا تفككت روابطتي مع العائلة وتوسعت الهوية. لكن سرعان ما اكتشفت الصحراء الثقافية، وفراغ ما يسمى بالنخبة، ادعاء الكتب والمظالم التي تعرض لها أهلي خلال الماضي الاستعماري والتي مازالوا يتعرضون لها. بدأت العودة إلي «الجدور» والتأمل في «رحلتي». كانت تلك هي الفترة التي عرفتني فيها. إلا أن تلك العودة بقيت في إطار سعي فكري محض. فعملية إعادة اكتشاف التراث الثقافي من أجل إعادة الاعتبار له أو تجاوز سلبياته، تلك العملية لم تكن مصحوبة بتحويل ملموس في ممارستي

الاجتماعية. لهذا كانت الهوة تتوسع أكثر. فعالم طفولتي ومراهقتي كان يتوارى في الماضي السحيق. لم أكن أفكر في وجوده المادي وفي استمراريته. فيما بعد، عندما أصبحت رؤيتي للعالم أكثر انسجاماً، عندما لم أعد أقف عند التفسير وحده وبدأت أساهم في التغيير، لم أهتم جدّاً بالقطيعة الحاصلة مع العائلة. بقي الحرج نفسه يطبع علاقتي معها وتعاملت مع المشكل وكأنه صفحة تمّ طيها نهائياً. أما الآن، ومع مرور الزمن، أعتقد أن الإهمال لم يكن صحيحاً. إن موقفني بقي، وبشكل لا شعوري، موقف المراهق القديم. ذلك الموقف الذي كانت له مبرراته فيما مضى ولكنه أصبح لا مسؤولاً في سن الرشد. هذا هو عمق المشكل والذي يفسر قلة مظاهر التضامن التي عبّر عنها بعض أفراد العائلة. فلو أنني أعدت توطيد الروابط فيما بيننا، لكنت قد تمكنت من مساعدة أخواتي وإخواني على تجاوز بعض سلبياتهم. لهذا، فإنني أبعدُ، فيما يتعلق بهذه المسألة، أي كبرياء. إنني لا أدين أحداً. ولو كان ذلك في إمكاني لفتحت حواراً مع الجميع على أسس جديدة ولقمت بواجباتي لاسيما وأن عائلتي، ولحسن الحظ، ليست من المحظوظين (...).

2 يوليو 1975

زوجتي الحبيبة،

أولاً، رسالتك ليوم 28، أحب أن تكتبي لي هكذا. أحس بك أكثر. ألجُ أحلامك، ألتحق برؤاك. ثم إن لي حساسية خاصة تجاه الشعر الذي يرقى إلى صدق الكلمة، موسيقى القلب وتفتح كل الملكات. عندها تعتمر الكلمات بالنسغ الحيوي وتصبح كائنات ناطقة وفاعلة، كلمات من لحم ودم لها أحلامها، ذكرياتها، تسري في أعماقنا، تنتقل من الواحد إلى الآخر كُرسل حنان. أنت وأنا، من أجل هذا الشمول، يهون المنفى والانتظار، يهون الألم وكل هذا الاقتلاع، وهذا الترحال الغريب في عوالم الصمت والفولاذ، تهون هذه الاستفاقات المُرّة، هذه الليالي الآلية، هذا الغياب للبحر والأشجار والناس. أنت وأنا، من أجل هذا القصيد، يهون عدم كتابة مئات القصائد. هل كان بإمكاننا أن نتصور فقط هذا الانبعاث وهذا الطعم الهائل للحياة الحقيقية؟ هل كان بإمكاننا أن نتصور كل هذا الأمل وهذه الآفاق التي تهزُّ كياناتنا، طعم النشوة هذا؟ نحن لا نتجه الآن صوب المستقبل بأياد فارغة. سوف نحمل من بين ما نحمل هذا الذي تسمينه بجنون الحنان ونشيد العشق.

تسأليني إذا ما كنت أضحك كثيراً هنا وإذا ما كان الرفاق يتجاوبون مع «روحي الفكاهية». فيما يخص الضحك يحدث لي أن أضحك كثيراً حسب الأوقات

والظروف. أما عن «روحي الفكاهية» فأنا لا أمارسها كثيراً كما سبق أن قلت لك فأنا لا أتكلم كثيراً. ليست لي نزعة الانفتاح التام تجاه الآخرين. لا أستطيع ذلك إلا مع من أشعر معه بدرجة كبيرة من التواصل والتفاهم المتبادلين. وهذا صعب داخل مجموعة لم تكن للأفراد الذين يكونونها معرفة وصدقة سابقة. هل ترين؟ لا أستطيع إلا معك أن أعبر عن بعض جوانب شخصيتي بشكل عفوي وبكل حرية. ولكن لا تعتقدي مع ذلك أنني أصمت منغلقاً على نفسي. إنني أدرديش أحياناً. أمزح. ولكن لا أقل ولا أكثر من المتوسط العام. في البداية كنت ثرثاراً ومشاكساً أكثر. لكن، وفي إطار الحياة الجماعية يحدث أن ينشأ تدريجياً نوع من اللغة المشتركة (بقاموسها الخاص، وروحها الفكاهية وإيماءاتها) وهذه اللغة تركيب لإسهامات الجميع تستعمل في بعض الحالات وتتعايش مع اللغة الخاصة لكل واحد منا. وهذه الأخيرة تبقى في غالب الأحيان مخصصة للتعامل والتخاطب إما مع الزوجة بالنسبة للبعض أو مع الأقرباء بالنسبة للآخرين. طبعاً هذه اللغة الثانية تبقى هي الأساس لأن الأولى، رغم طرافتها لا تتعدى بُعد السطحيات. لقد ذكرتني، عندما تحدثت عن تلك الخاصية اللطيفة لديك والمتمثلة في أنك تتكلمين وحدك وأنت تسوقين السيارة، ذكرتني بأقصوصة لغوركى عنونها: «عندما يختلون بأنفسهم». ويتعلق الأمر بمجموعة من النماذج الاجتماعية وبما يفعلون ويقولون عندما يختلون بأنفسهم. على سبيل المثال فهوس إحدى الفتيات، الطالبة بالجامعة، هو أكل الحلوى عندما تكون منفردة. فكلما اختارت قطعة من الحلوى وهمت بأكلها تتوجه إليها قائلة: «سوف أكلك». وعندما تبتلعها، تقول: «لقد أكلتك». وهكذا... حتى تشبع. أما هوس عالم محترم فهو أنه يأخذ كتاباً مزيناً بالصور ويقص هذه الأخيرة عن آخرها ويضعها في جيوبه. لا بد أن تقرئي هذه الأقصوصة. إنها ممتعة جداً. أه، نسيت. هناك كذلك رجل، حينما ينفرد بنفسه، ينظر في المرآة ويتوجه إلى صورته قائلاً: «ألا زلت هنا، أنت؟». إن فكرة هذه الأقصوصة لعبقرية وقد استطاع غوركى أن يعبر عنها أحسن تعبير. هذا فيما يتعلق بخاصيتك اللطيفة. أريد الآن أن أعود إلى موضوع العائلة. ليس لأن لدي تشبهاً خاصاً بذلك، ولكن لأن من الضروري مناقشة الخلافات التي ظهرت بيننا في هذا الشأن. تطرحين هذه الخلافات في رسالتك ليوم 30. أعتقد أنني أجبت على عدد من التساؤلات في رسالة أمس. سأستمر اليوم إذن. وقبل كل شيء أقوم بهذا التوضيح: عندما أقول إن الحوار مع عائلتي أمر مفيد وضروري، فليس ذلك بالأساس لأنها عائلتي. فأنا على استعداد لإقامة حوار مماثل مع كل الذين ارتبطت بهم بعلاقة ما والذين أعتقد أن بإمكانني تحقيق تقدم ما معهم ومساعدتهم بشكل من الأشكال. وأنا على استعداد أكبر أن أقوم بذلك مع الذين ربما أخطأت في حقهم. أما أخطاؤهم تجاهي، فإنها لا تبرر إطلاقاً القطيعة لأن وضعيتي ودرجة وعيي تسمح لي أكثر منهم بفهم الأسس الإيديولوجية والاجتماعية لهذه الأخطاء. إن واجباتي نحوهم هي التي يجب أن

أعطيتها الأسبقية. بطبيعة الحال، إذا ما وصلت إلى قناعة أنني أضيع وقتي ولن أحصل على أية نتيجة فإنني سوف لن أتمادى في ذلك. فنحن متفقان على هذا. ولكنني لم أصل بعد إلى الخلاصة التي وصلت إليها. أعتقد أنك تسرعت في الأمر. فكم مرة ناقشت هؤلاء الناس حتى تصلي إلى هذه الخلاصات النهائية؟ ألا تعتقدين أنك تنغلقين بشكل ما على نفسك وتتركين الآخرين ليأتوا إليك أو لا يأتون؟ شيء آخر: إذا كنت تعتقدين أن الفوارق في الأفكار والتصورات والمواقف كافية لجعلنا نتخلى عن هذه المهمة، فكيف تظنين أن بإمكاننا تغيير المجتمع ككل حيث تسود هذه التصورات والمواقف المغلوطة نفسها بل إنها متجذرة حتى في وعي الطبقات حاملة المستقبل ولها دور تاريخي في تغيير المجتمع؟ أعتقد أنه ليس من الصحيح أن نتخذ هذه المواقف النهائية.. فالواقع متحرك وعندما تتغير الظروف، يجب أن نحللها بشكل ملموس ونغير على ضوءها سلوكنا - إذا كان ضرورياً.. حاولي أن تنقلي هذا المشكل المتعلق بعلاقتنا بالعائلة أو بالأصدقاء إلى مستوى أعلى. وسترين أن لا شيء ثابتاً أو معطى بشكل نهائي. أوضح الآن نقطة أخيرة: إن إعادة ربط علاقات صحيحة مع العائلة ليس أمراً حيوياً. فأنا لا أجعل من هذه المهمة موضوع جهاد أكبر. ولكن إذا ما نحن توصلنا إلى ذلك، فسيكون الأمر إيجابياً لاسيما بالنسبة إليهم، لأن ذلك سيساعدهم على نزع عضاباتهم. وإذا كان بإمكانني الوصول إلى هذه النتيجة فسوف لن أتردد. وهذا السلوك يجب أن يكون عاماً مع كل من لدينا معهم روابط. أمل أننا قد تفاهمنا الآن (...).

5 يوليو 1975

زوجتي الحبيبة،

كان بودي أن أكتب إليك يوم أمس كما جرت العادة بعد كل زيارة. ولكن الجو في الزنزانة لم يكن ميالاً إلى الهدوء. فقد كنا مرحين. ولهذا غنينا حتى ساعة متأخرة من الليل. استعرضنا كل الأغاني التي نعرفها وبكل اللغات التي نجيدها. عندما ننظم أمسية من هذا النوع، فإننا نطلق العنان لعفويتنا. والنتيجة تكون: أغاني حب جميلة، أغاني الخمريات وما شابهها. نغني كذلك بعض الأغنيات البليدة التي تضحكننا كثيراً (مثل يا مصطفى يا مصطفى!) كما نستعرض كل الأغاني المغربية منذ عهد الاستقلال، فالأغاني المصرية ثم أغاني «براسينس وبريل»، كل واحد منا يساهم في ذلك حسب هواه. هذا الصباح كنت متعباً. لقد فقدنا هنا عادة هذه الأمسيات. في الدار البيضاء كانت متواصلة. يبدو أننا تعقلنا. أصبحنا نتعاطى الدراسة أكثر. لكن، أن نمزح هكذا ونغني من وقت لآخر، ففي ذلك الكثير من الراحة والمتعة (...).

7 يوليو 1975

جوسلين،

(...) ماذا يمكن القول عن «سجوني»؟ أكيد أنه لا يجري شيء مما يشكل نظام حياة البشر العاديين. مجموعة من الأشياء الصغيرة لا توقفنا عادة. مثلاً، حصلنا مؤخراً على طاولة مدرسية لها معقد، لكن على مستوانا، كان ذلك بمثابة حدث بالغ الأهمية. إننا نتوالى الواحد تلو الآخر للعمل فوقها، استرجاع الهيئة العادية حين الكتابة. جاء جَبَّاصون لتبييض ممرنا. منذ بضعة أيام أصبحنا نخرج للفسحة من الساعة الرابعة زوالاً إلى الساعة مساءً، مما يجعلنا نبقي حبيسين لمدة أربع ساعات ما بين الثانية عشرة والرابعة زوالاً. وبالتالي مزيداً من الوقت للقراءة أو للقلولة. كبرت شيئاً ما حديقتنا القزمية. المشكل رقم واحد هو الحصول على التربة، لا نتمكن من الحصول إلا على الرمل. أحد الرفاق فكر في حل وجيه لمعالجة هذا الرَّمْل كي يصبح أكثر خصوبة. لقد مزج الرمل ببعض علب السردين المصبر القديمة. سارت الأمور على ما يرام في اليوم الأول. لكن في يوم الغد انتشرت رائحة كريهة في كل أرجاء الساحة أركمت أنف كل من مرَّ فيها. وكم تهكمنا على هذا الأمر. لا يخامرنا الاعتقاد بأنني أنا هذا البستاني المبتكر. لا، أنا أقتصر على السقي والتأمل. أترك الابتكار للاختصاصيين العديدين ها هنا. هو ذا الحدث إذن. أحياناً عندما أفكر في كل هذا، أشعر وكأنني أعيش مشاهد من واقع الخيال العلمي.

لو تم فصل هذه الأفعال عن سياقها العام، وعُرضت في شريط صامت، لكانت هزلية لاذعة. إنها ظاهرة صحية أن يجعل المرء أحياناً بينه وبين أفعاله مسافة وينظر إليها كأنها رسوم متحركة. اسخري مني إن شئت (...).

7 يوليو 1975

إيليت،⁽²⁶⁾ جسلان،

أرجو ألا تعاتباني على هذا الصمت الطويل.

أحياناً، يصعب علي الخروج من جحيمي الخاص، أو حتى عندما أتكلم، فإني أرفض ردود فعل الخنوع. لا أريد قط كبت صرخات اللعنة. لأن الأمر لا يتعلق بي كفرد. إنني أرى، أسمع، أتأخى إلى ما وراء الحدود، وأصداء الأسوار. إنني أعني جيداً مخطط الإبادة.

جسلان، تعرف مني بسمتي على الخصوص. أجل، احتفظ بهذه الصورة عني. لننفذ دوماً إلى جوهر الأشياء. لكنك تعلم أنها ليست إلا خلاصة لشتى أنواع المعاناة القاسية. وعندما أمدُّ يدي، هنا أيضاً المهم هو هذا التحفز، بغض النظر عن الجروح. ذات يوم قلت لجويسلين أن «الحب معناه الحلول في الأمل». المنفى ليس قدراً انتحارياً: إذن أبتسمُ لذكراك. أسترجع في ذاكرتي صمتك، عينيك المخفوضتين، غضبك الذي لم تكن بحاجة للتعبير عنه كي أتمثله. سررت بتلقي صورك، كتاب ت. كابرال، والعدد الأخير من مجلة باربار.

إيليت، بصدد رسالتك المؤرخة بفاتح يناير. أنت على حق إذ مزقت دائرة الثأر، وجريت لاحتضان وجهك الإنساني. إن الشعر كاشف عظيم، لا أكتبه بحروف التاج. أحسُّ لديك بشراسة الحقيقة، تلك الجديرة باحترامي. يجب على المرء أن يخاطر إلى أقصى الحدود، ألا يخشى أن يتطأير عليه الوحل، أن يعرف كذلك كيف يشد قبضته كشارة تعارف بين ضحايا كل بشاعات الرأسمال. أن يثابر المرء كما تقولين، لأن الطريق سيكون طويلاً، وكم سيكون وعراً هذا التمزق الذي أحدثته فينا الهمجية الضاربة في القدم. حظنا، إيليت، وأنت يا جسلان، هو رغم كل شيء، هذا المذاق المنبئ بالربيع، بالشمس العجيبين، هو كوننا نعرف أننا لا نسير ضد التيار (...).

إليكما صديقي العزيزين. واقفٌ. أخويُّ.

9 يوليو 1975

حبيتي،

لم أتوصل بأي شيء منذ رسالتك المؤرخة بـ 30. يتعثر البريد من جديد. لقد استأنفت قراءاتي بانتظام. تركت الأدب جانباً في الوقت الحالي. قرأت بتأثر مراسلات «جورج جاكسون» الموجهة لوالديه وأخيه و«أنجيلا دافيس». يتتبع المرء من خلالها تحول إنسان يعيد النظر في العبودية الجديدة، يفك آلياتها، وعلى طول أقصى محنة، يحتفظ بكرامته في عزِّ صونها. يا لها من قصيدة حب مهداة إلى الحياة الحقيقية! يا لها من قصيدة حب وكفى! إننا مدينون للإنسان الأسود وكذا لجميع أولئك الذين عانوا وما زالوا يعانون من العنصرية لكونهم كشفوا لنا الوجه الحقيقي والأبشع للاضطهاد والاستغلال الرأسماليين. لقد أرزني هذا الصوت الأخوي. أمل وآلام مشتركة.

منذ البارحة شرعت في قراءة كتاب لـ أ. س. نيل: «أطفال سامر هيل الأحرار». لعلك سمعت عنه. «نيل» بيداغوجي إنجليزي، أسس سنة 1921

مدرسة للأطفال بإحدى ضواحي لندن. لقد ألف عدداً من الكتب عن تجربته. و«سامر هيل» مدرسة للتربية الحرة. كل سنة تستقبل حوالي خمسين تلميذاً تتراوح أعمارهم ما بين 5 و15 سنة. التلاميذ أحرار في متابعة الدروس أو عدم المتابعة. كما أن الأطفال هم أنفسهم الذين يضعون النظام الداخلي في اجتماعاتهم. وينتخب هذا المجتمع الصغير حكومته الخاصة، ويتم انتخاب أو عزل المسؤولين بحرية. يعيش الأطفال في عين المكان، داخل المدرسة. طبعاً تختلف هذه التجربة كثيراً عن تلك التي نجدها في كتاب «نصف السماء»⁽²⁷⁾ على سبيل المثال. والإيديولوجية التي يحملها «نيل» محافظة باعتبار أنه لا يسعى إلى تغيير المجتمع، بل إنه يريد أن يبين عبر تجربته الطبيعة الكائنة والقمعية و«الخائفة للحياة» كما يقول للتربية التي تقدمها الأسرة والتعليم التقليديان. لذا فإن تجربة مثل هذه تبقى جد محدودة. إنها عبارة عن جزيرة صغيرة مقطوعة عن باقي المجتمع، كما أن التعليم الذي يقترحه مقطوع عن الممارسة العملية. إن «سامر هيل» ليست قط مدرسة شعبية. فالتسجيل فيها يتمُّ بمقابل وبالتالي فهي تستقطب تلاميذها من بين الطبقات المتوسطة. لكن فائدة الكتاب لا تكمن هنا. إن الإيجابي فيه هو التنظيم المعتمد في هذه المدرسة والذي يتيح للأطفال أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم. وعلاقة المربين بالتلاميذ، وكذا الطبيعة اللاقمعية في كل ممارسات هذه التربية... نظافة، جنس، كذب، استعرائية، أنانية، عدوانية، سرقة، ضجيج، تكسير الأدوات، ألفاظ نابية، سلوكيات عصبية مختلفة؛ كل هذا يتم تناوله بحيث يتوصل إلى استئصال الجذور التي تسببه. ينطلق «نيل» من مبدأ أن الأطفال أصلاً طيبون وسليمون، وأن التربية القمعية هي التي تفسدهم، وهو بإتاحة الفرصة لهم كي يكونوا أحراراً أو مسؤولين، يتوصل في غالب الأحيان إلى تغيير الطفل، وتحريره من كل وساوسه، ومخاوفه وعقده والأحكام المسبقة التي جذرتها فيه تربيته الأولى. أعتقد أنه سيكون جد مفيد لك أن تقرئي هذا الكتاب. لم أنفك عن التفكير في الأطفال وأنا أقرؤه. أوضح مرة أخرى أن فائدته لا تتجلى في الكشف لنا عن مدرسة المستقبل، لأن هذه المدرسة لن يكون لها معنى حقيقي إلا إذا كانت جزءاً لا يتجزأ من عملية التغيير ككل. إن فائدته أكثر أهمية لأن تجربة مثل هذه تتيح التفكير في مجموع علاقاتنا مع الأطفال وتفتح العديد من المواقف التي تبدو لي صحيحة. سأنتظر حتى تقرئي لكي تتمثلي أكثر ما أقصد بهذا. ولقد جعلني هذا الكتاب أرغب في مزيد من الدراسات التربوية والنفسية. لدي هنا مجموعة من الكتب وسأكتب عليها، لأنه في نهاية المطاف، سيكون علينا أن نعتمد على طاقاتنا الخاصة في هذا الميدان، أن نتجاوز، «تقسيم العمل» الذي كنت أتكلم لك عنه في فرصة سابقة بخصوص ياسين (...).

15 يوليو 1975

زوجتي الحبيبة،

قيظ حقيقي منذ أيام. بين الثانية عشرة والرابعة زوالاً، ثم في المساء نضطر إلى صب الماء على الأرض كي نحصل على شيء من البرودة. تعودت على التجول، والنوم بسروالي القصير وحده. أستحم بالماء البارد، متعة حقيقية. الصيف. في السجن، يا للمفارقة! يخال المرء نفسه في جزيرة قفراء فيها شمس وماء، أمر عجيب! في انتظار رسائلك. ما أحوجني إليها. أريد أن أتخيل أنك تستريحين أخيراً، أنك تتمتعين حسب هواك بهذه الأسابيع من الحرية. تعرفين كم كنت مسروراً عند قراءة رسالتك التي حكيت لي فيها عن مقامك على شاطئ البحر. إنه شعور غريب أن يحس المرء كما لو كان قد عاش الفرحة نفسها، المتعة ذاتها مع الإنسان الذي يحبه وأن لا يكون في حاجة إلى غير هذا. لقد عشت معك الليلة ذات النجوم، مشهد الصيادين، الأسماك المشوية، ألوان البحر، الغابة في التحامها بالبحر. هذا يكفيني طالما كنت أنت هناك.

سوف لن أحدثك عن الكتب اليوم ولا عن الحياة اليومية المضجرة. ذلك أنني أحلم بالمستقبل، المستقبل هو نحن في بحبوحة الربيع، بسمتنا المحتضنة للماضي، ضحكنا، حفلة حضورنا. المستقبل حكاية جميلة، لكن مثل الحكايات الحقيقية، سيكون عصارة للواقع، للمُكْتَسَب. وحقيقي أن هذه السعادة المرتقبة عجيبة في بعض تجلياتها، تتجاوز ما هو معروف، محسوس به في عالمنا. المستقبل هو انبلاج الشُّعْر في الحركة والنظرة، الهمسة والنداء. امرأة ورجل تجاوزا الجراح والفراق مع ذاتيهما، الواحد بالآخر وكلٌّ بنفسه، سنكون ذينك الزوجين اللذين سيكبران دوماً بالأيدي المفتوحة، بالإصرار والعطاء. أه! كم هي طويلة مسيرة المرء قبل أن يصل إلى الإنسانية الحقيقية، لكن كم هي مثيرة! القارة الأكثر عجباً، الأكثر غنى، تلك التي لا ينفك المرء فيها عن الانتقال من افتتان إلى آخر، تلك القارة هي أيضاً الإنسان، بعدما يكون قد حدد مناطق ظلاله، مخاطره، أدغاله. بعدما يكون قد استأصل من أعماقه جميع سمومه، أنذاك يصبح الحب، الذكاء، الحساسية، العقل، رافعات ضخمة للتغيير، للاكتشاف وللخلق. السعادة هي بالضبط أن يكون المرء إنساناً، أن يتصرف كإنسان، أن يساهم في تشييد صرح الحياة الحقيقية، وأجمل شيء في كل هذا، اللحظة الأكثر إثارة في هذه الرحلة، هي لحظة الصحو، انبلاج هذه القارة في داخلنا. حبيبتي، ترين، أننا لم نصِّع شيئاً خلال سنوات المحن هذه إلا قيودنا، لعناتنا القديمة من منتوجات عالم متعفن ومريض. لقد اكتسبنا القدرة

على تخيل المستقبل، ليس مستقبل النزوة والهلوسات ولكنه مستقبل عقلائي، لا مناص منه، تنمو نباتاته في أحشاء الحاضر. لأننا حذران ويقظان، بإمكاننا أن نتعرف على مؤشراتنا وألا نكون مستعجلين. أن أحبك يعني أيضاً أن أقرب أكثر ودوماً من المستقبل.

إليك.

18 يوليو 1975

زوجتي الحبيبة،

يا لها من حفلة أهديتني إياها اليوم! كانت مطابقة لما كنت آمله وما كنت أتصوره في مخيلتي. كم كنت سعيداً، الربيع يرعد في داخلي، قلبي يطفح بالانشراح، حبي، حبك. يشبه قصيدة جديدة، أصيلة، إحدى تلك القصائد التي تُغيّر الفكرة والإحساس لدينا تجاه الحياة، تجاه الماضي والمستقبل. يصعب على المرء أن يفهمها في حينها وأن ينفذ إلى مغزاها وأهميتها. إنه يكتشفها، يعيد اكتشافها، يستوعبها تدريجياً. نادراً ما يمكنه استنفاد قدرتها على الإدهاش والفرحة والإيحاء. إن القلب البشري غير قادر على احتواء كل ذلك دفعة واحدة. أترين، إنني لا أبالغ في شيء عندما أحدثك عن مدى حناني. وهذا متبادل. إن الحنان الذي تشعرين به إزائي يهيجني، يدهشني في كل مرة، يدفع بي إلى اكتشاف مناطق أخرى، مناخات أخرى، عجائب أخرى من قارة الحب. هذا هو جوهر الحب الخلاق. اليوم هذه الأطنان من الإسمنت المسلح والصدأ، صمت الجزيرة القفرءاء، ثقل المنفى والفراق، كل هذا يبدو لي بعيداً، كأنه لا يعينني، لأنني حرٌّ عبر بسمتك، إيمانك، حضورك. رأسي في النجوم التي تجمعني بك. ها هو الليل الغابوي حيث تنشرح الأمواج. ها هو فوجان الزعتر والشيح الذي يدغدغ الوجه بنعومته اللذيذة، ثم صوتك، أنغام قيثارتك، الأغنية التي تُهجين كلماتها، لأنك تقولين بكل روحك: «هناك حب سعيد»، مُعارضة بذلك الشاعر القصير النظر.⁽²⁸⁾ حرٌّ حبيبي لأنني أسبح في الشعر. ثم غداً، ينجلي الفجر. لا يهم الذهاب لترقب ميلاده. سيتصاعد من أعماقنا. عندما تتفتح عيناك على نداء الصباح، ستلتقيان بعيني وستتطلع منبهرين إلى ذلك الفجر المتنقل من الواحد نحو الآخر، والذي سيتأجج بالضبط في اللحظة التي ستلتقي فيها أيدينا. ثم خطواتك الأولى، حركاتك، القهوة السوداء التي تحبينها، النوافذ المفتوحة على شمس المستقبل. أحب الحركات الفجائية لرأسك عندما يتراقص شعرك على كتفيك. وحيدة؟ لا، الوحدة هي غياب الحب. إذاك، تخرجين، البحر يمتد عند قدميك، الشمس تنحني إجلالاً لك. والماء، ثم الرمال.

تغمضين عينيك لتري شمساً أخرى، بحراً آخر فأهديك قصيدة جديدة. الثانية عشرة، تتلذذين بسمكة، قطعة لحم، فاكهة، أحب طريقتك في الأكل، تلك الرقة السليمة التي تتمثلين بها طاقات جديدة. تعرفين، إنها إحدى الأشياء التي تعجبني أكثر فيك، مثل جزئية منك. في يوم ما، سأكتب كل هذا. لكن لا تعتقدي أن الكلمات الموجودة أو التي سأخترعها ستكون كافية لذلك. لدي لغات أخرى، مَلَكَاتُ أخرى للتعبير عما يعجز عنه اللسان. تتساءلين إذا كان هذا العطف سيدوم دائماً هكذا؟ لقد أَجَبْتُكَ نعم ولا. نعم لأننا سنحتفظ في المستقبل بكامل مكتسباتنا. لا، لأن مكتسبات أخرى أمامنا. سنرى. وإني أستعمل هنا عبارة تحدّ سبق لي أن استعملتها في إطار آخر. أتذكرين؟ على غرار كل ما هو حقيقي وواقعي، لن يتطور حبنا في خط مستقيم، إنه سيسلك طريق الحياة الحقيقية.

حبيبتي، حلمت بك هذا المساء. وكم أتمن هذا النوع من الأحلام، كم أود أن تدوم إلى أن تَسْتَنَفِدَ صوتي. كان بودي أن أقول لك سعادتي، يقيني. هل وفقت في ذلك؟ هيا بنا نحو العودة.

3 غشت 1975

زوجتي الحبيبة،

أكثر من أسبوع دون أن أقرأ لك شيئاً. إنه لحرمان. غداً سأحتج على أمر رسالة الجمعة ما قبل الماضية التي لم أتوصل بها بعد. اليوم، الأحد، قضيته في القراءة. لم أتفسح إلا في نهاية الزوال.

أحب إعادة اكتشاف السماء، كل مرة. هذا المستطيل اللامتناهي فوق رأسي، إنه في الوقت نفسه، الزرقة، البحر، الطيور، الأسفار، وغيرها من الأمور وإنه لإحساس عذب أن يشعر المرء بهذه العظمة المتغيرة، العميقة، الدافئة. يَجِدُ المرء نفسه يميل نحو ترديد القولة الجميلة: «أيها الإنسان الحر، ستبقى دوماً ولوعاً بالبحر» وأن يستبدل كلمة البحر بالسماء. إنني بلغت إلى هذه الحالة حيث لم أعد أشعر بضيق الزنزانة، بالباب الذي يغلق، بالبدلات والرداهات، وباختصار بكل الحدود العادية. لا يستطيع أي «غيتو» على تكييف ذاتي. لن يسيل لعابي أبداً على رنين أي جرس. لا شيء يمكنه أن يطفئ الجذوة المشتعلة في أعماق عيني، وهكذا فإنني أسكن أماكن لا يصل إليها الليل الهمجي. لا شيء يستطيع أن يقهر أحلامي، الأفكار التي تؤسسها، الحب الذي ينفخ فيها ناره المقدسة. وإذا أصبح وجودي هنا لا يفاجئني، كما لا يفاجئني سياج الصمت المحيط بي، وكوني أستيقظ ليلاً ولا أجد يدك، وأمشي فيوقفني

الجدار المنتصب، فذلك لأنني لم أعد في ملك من سجنوني. إن حضوري أقوى هناك حيث التاريخ يتقدم، حيث الآمال تنهض. إن جسدي وعقلي يتسعان. إني حاضر أينما تشرق الشمس لتثير الفعل، والبهجة، الصبر والعزم، الآلام المتحملة والتغيير. ذلك يعني أيضاً كم أنا قريب منك.

هل حصل لك أن تأملت الخطاطيف؟ إنها عديدة هنا، تبني أعشاشها في شقوق الجدران، تخلق في كل الاتجاهات، ممدودة مثل الأقواس، تصدر أصواتاً صبيانية. بالنسبة لي، إنها ليست مجرد طيور تردد بلا تعب غباوة الغريزة. إني أنفعل كثيراً عند رؤية رقتها ولينها. وما يؤثر فيّ هو الجمال الذي ينبعث منها ويتجسد فيها. لا علاقة لهذا مع الإستيطيقا، فالجمال وما يقتضيه من انسجام وكمال وتفتح خلاق، هو صورة المستقبل على نطاق أوسع. ماذا يمكن أن يكون مستقبل كهذا، سوى مملكة للجمال: حياة ثنائي، عواطف، عمل، غناء. ترين أن أدنى قطعة من الجمال نفيسة بالنسبة إليّ، حيوية مثل الهواء الذي أشربه. حبيبتي، إذا كنت أحلم فذلك لكي أكون أكثر قرباً منك، من أجمل شيء فيك.

بين يدي عدد من أعمال بابلو نيرودا: الكتاب الذي أتيتني به، «إقامة علي الأرض» والمختارات من أعماله التي نشرتها دار «سيغريس للنشر» سانكب عليها. إن ما سبق لي أن قرأته من إنتاج هذا الشاعر يجعلني أرغب في معرفته أكثر. كم أنا ظمان إلى أصوات أخوية حقاً. قبلي عني الأطفال. أقبلك. اكتبني إليّ، أحبك.

10 غشت 1975

ابنتي العزيزة هند،

لقد كنت شهية جداً يوم الجمعة الماضي في المزار. تغدين كل يوم جميلة أكثر. أقول لك هذا لأنه حقيقة فعلاً. ولكنك تعلمين أن الجمال ليس أساسياً بالنسبة للفتاة. الأهم من ذلك هو الشجاعة واللطافة والتحلي بالعدل. وما يثلج الصدر معك أنت هو أن لديك الكثير من تلك الخصال. لا بد أنك مسرورة بعد كل هذا الامتداح، أليس كذلك؟ إنما لا تغتري مع ذلك.

قولي لي، لم تحدثيني بعد عن رحلتك الكبيرة. كيف هي الطائرة، وماذا شاهدت من هناك؟ ألم تخافي قليلاً مثلاً؟ هل أعجبتك فرنسا؟ أنا أعتبر أن هذا البلد جميل جداً. أولاً لأن جوسليننا وُلدت هناك، وثانياً لأنه فعلاً بلد جميل. ولكن

لا بد أنك لاحظت كثرة السكان وكثرة السيارات. ألم تشعرني بالبرد هناك؟ هيا،
حدثيني عن كل هذه الأشياء.

بالنسبة لي، لقد كنت كذلك في عطلة. وبطريقتي الخاصة. في الأيام الأخيرة
كنت أجري كالمجنون وأستحم بالماء البارد وأتمدد تحت الشمس. وهذا
يكفيني. لا أشعر بالملل أو الضيق لأنني أفكر دائماً في شيء ما، أثرثر وأضحك
وأشتغل وأغني من حين لآخر. لقد نسيت ثلاثة أرباع من كلمات العديد من
الأغاني، لكنني أكتفي بما تبقى لليلة سهر كاملة.

هكذا عزيزتي هند، حين نحب بعضنا كثيراً، لا نشعر أبداً بالوحدة أو التعاسة،
لأن المحبة تزودنا بالقوة مدى الحياة.

غزالتني الناعمة، أقبلك. إلى أن أقرأك.

18 غشت 1975

حبيبتي،

لست أدري إن كان هذا ذاتياً، ولكنني أشعر وكأنني لم أعرف صيفاً أشد حرّاً.
المساء خاصة، أشعر بالاختناق. لا يعتدل الجو إلا عندما تطفأ الأضواء. أحياناً
أفكر في الهواء الذي يمكن أن يكون على شاطئ البحر. في مشروب بارد
يتناوله المرء دون أن يبالي به. إنه عالم خاص. حين غابر للسجين. بدأت في
قراءة ثلاثية «جاك فنتراس» لفاليس. سبق لي أن قرأت «الطفل» و«الحائز
على البكالوريا» وبقي لي «المتمرد». كم أحببت هذه الثورة العارمة، هذه
الشخصيات اللاذعة، ذلك الوصف لحياة وشقاء الكادحين، تلك اللغة الأصيلة،
الخصبة والحية. إن كُتاب اليوم قد فقدوا الصلة بلغة الشعب. مما جعل
كتاباتهم باهتة، وشخصياتهم مجردة وثرثارة. عند «فاليس»، يعيش القارئ
أجواء الحفلة الريفية، الخمارة الباريسية إلخ... اللهجات المحلية تُغني اللغة
المشتركة، ثم إن الحوارات آية في المتعة. هذا نوع من الكتب وددت لو قرأته
برفقتك حتى تكوني قد جعلتني أقف على كل الدقائق في النص. حقاً، عندي
القاموس، لكن الأمر يختلف. على العموم، إذن، أتعاطف مع هذا الصوت
الأخوي الذي ينتمي لتقاليد العبقريّة الشعبية ويأتي مكماً لشعر المقاومة
العمالية وشعراء الكومونة. طبعاً لم أستحسن بعض جوانب الكتاب، خصوصاً
هذا التركيز على التمرد ضد الأم والأب. وجدت أن «فاليس» يلح كثيراً على
هذا. وباعتبار طابع السيرة الذاتية للكتاب، تصل الأمور أحياناً إلى نوع من
الإجحاف: إمراة عجوز، رجل، ضحايا الأفكار السائدة، وضحايا تناقضاتهما،

يتحملان كل عيوب المجتمع. وهذا من شأنه أن يخفي التناقضات الحقيقية والمضطهدين الحقيقيين. ومع هذا فإن هذا الجانب السلبي لا يلغي صحة التنديد بنظام الأسرة التقليدية، الاضطهاد الذي يُمارَسُ داخلها، والمعاناة التي تنتجها. لا يمكن للمرء ألا يتعاطف مع هذا الغضب. وبالتالي فإنه كتاب لا بد لكل شبابنا أن يقرؤوه. سيتعرفون فيه على الاضطهاد الذي يعانون منه هم أنفسهم وكذا على تمردهم (...).

توصلت برسالة هند. أخبرتها عني، قولي لها إذا كانت تحفظ كلمات أغاني جميلة أن تكتبها لي. قولي لها أخيراً أنني قرأت بعض الكتب المصورة. من بينها على الخصوص قصة سكان مدينة ما، يصبحون كلهم صغيري الحجم، لأن أحدهم عثر على حَجَرٍ مجهولة وكل الذين مسَّوها أصبحوا في حجم نمل صغير، فتكيفوا مع ظروفهم الجديدة، وصنعوا آلات طائرة وبدؤوا يصارعون البشر (الحجم العادي) الذين يهددون بسحقهم. أعود إليك لأقول لك، لا تستنتجي من هذا أكثر مما يجب. قلت لك إن هذه الكتب كانت هنا، وحتماً كان علي أن ألقى عليها نظرة، وإلا كنت سأبدو بمظهر المتصوف، لذا لا تتعجلي في حكمك. اكتب لي.

20 غشت 1975

زوجتي الحبيبة،

بقيت مرة أخرى بدون رسائل منك (آخر ما توصلت به هو الرسالة المؤرخة بـ 13) يبدو لي الأسبوع مرهقاً عندما لا ألقى أخبارك. رسائلك هي واحاتي، محطات استراحتي.

هذه الأيام أشتغل مثل نملة عنيدة. تأخذ مني الآن دراسة اللغات كل أصباحي، باستثناء يومي الجمعة والأحد. في الظهيرة أحضر دروسي وأتريض. الأمسيات مخصصة للقراءة. في هذا ما يفجر الرأس. هذا الانضباط الذاتي، وهذه الاستمرارية ضروريان. إنها انتقامي من المنفى، من الليل، من العَيِّ. يجب عليّ أن أشغل دماغي باستمرار، حتى لا أكف عن تعميق فهمي لكوكينا، للبشر، لتاريخهم، لحاضرهم ومستقبلهم. كما يجب أيضاً أن أزرع، أن أنمي كل القُدرات، كل الوسائل في سبيل هذا الفهم. في السجن، لا بدّ أن يكون الجهد مكثفاً واليقظة حادة، لأن الممارسة التي تنعش، تغير الواقع، والأفكار، هذه الممارسة تعوزني. إن خطر الكد السلبي دائم، ولا بدّ أن يُقاوم بلا هوادة. من قال إن منطقة الظل هذه (السجن) مكان للراحة؟ بالإضافة إلى أن ذاكرتي تخونني أحياناً. كثيراً ما أضطر لإعادة قراءة كتاب بعد بضعة أشهر، وإلا كنت

كما لو لم أقرأه أبداً، هذا أحد الجوانب الأكثر حدّة لمشاكلي الصغرى. ألا يضايقك أن أحدثك عنها؟

الصيف يشرف على نهايته. لكن ما الصيف؟ لا شيء أكثر من هذا المستطيل من السماء الأزرق باستمرار، والماء الذي لا يكف عن السيلان ويصبح عنصراً أساسياً. لا أبالي كثيراً بالفصول. إن ما يلفت انتباهي هو بعض الجزئيات مثلما يقع أحياناً في الخريف، عندما يبدأ الظلام في التخيم ونحن لا نزال في الساحة، فأتمكن من تأمل النجوم التي تولد في مستطيل السماء، مثل تلك الفترات التي تكثر فيها الطيور وسط الساحة، مثل تلك الأصباح أيضاً حيث أخرج باكراً من زناتي ويمكنني أن أتفسح وسط الضباب، لا أميز أحداً على مسافة أقل من ثلاثة أمتار. الفصول هي أنت، معاطفك الشتوية، أو قمصانك المتموجة، الفواكه التي تأتيني بها، عُطّل الأطفال، أو فترات الدراسة. أقول هذا دون كآبة. إن الأمر هكذا. إنها حالة مثل أية حالة أخرى. فالإنسان كان دائماً خارق التكيف والتجاوز.

إني على وشك الانتهاء من قراءة «المتنرد» لـ فاليس، الذي يستقطب اهتمامي على غرار الجزأين السابقين لـ جاك فنتراس. حقاً، إن أنصار الكومونة كانوا قد انطلقوا فعلاً لغزو السماء وفجروا ينابيع للأعياد المقبلة. هل قرأت هذه الثلاثية؟ حتى إذا كنت قد فعلت في السابق، لا بد لك من إعادة قراءتها بعينيك الجديتين، عينيك الخصبتين كما كان يقول «إيلوار» أنوي الانتقال مباشرة إلى «الأنشودة الشاملة» لـ نيرودا، أعظم أعماله. في المستقبل، عندما تتوافر لك بعض النقود، سأطلب منك أن تشتري لي العديد من دواوين الشعر.

إليك، حبيبتي، هذا المساء، مثل صفحة أنتشلها من الصمت، قطعة من قلبي، من حناني، أرسلها لملامسة يدك، بسمتك العذبة مثل غسل زهرات البرتقال، (لقد أتوا لنا به هنا). إن له بالفعل طعم بسمتك (...).

3 شتمبر 1975

حبيبتي،

لم أكتب لك منذ السبت، أشغال، قراءة، رسائل جوابية. لكن كم فكرت فيك. اليوم مبدئياً، لعلك انتهيت من الصباغة، لازلت تُرتِّبين. إذن تتذوقين بهجة الشعور وكأنك في بيت جديد، لعل مكتبك - قاعة استقبال - حجرة النوم، فكرة ممتازة، وعملية. يجب الاحتفاظ بها للمستقبل. أحلم بقاعة شاسعة حيث

يمكننا أن نضع مكتباً أو مكتبين للعمل وحيث نضع كذلك سريرنا. أحب أن أمشي عندما أكون أشتغل وأعود إلى المكتب لمواصلة الكتابة. هذا يقتضي مساحة كبيرة. أحب كذلك أن أكتب وأنت على مقربة مني، أن أناقشك فوراً حول ما أفعل، أستشيرك في معرفتك الحميمة بدقائق اللغة، أقرأ عليك ما أكتبه في حينه، أو ألقى بكل شيء عند الاستعجال، لأكتنقك في حناني. ربّما كان هذا عزيزاً على المستقبل. لكنه دائماً من المشروع أن يحلم المرء. حلم بحلم: كلانا معاً. كانت قهوتك لذيذة. لم أنس لا الطعم ولا اللذة التي كانت تعطيتها لها تلك الفناجين الفخارية التي اشتريتها من مراکش. هل لا يزال عندك بعضها؟ آه كنت سأنسى الأباريق النحاسية، الصينية المرصعة. يا لها من لطافة! ثم ينتقل بصري إلى المطرقات، الأخشاب المصبوغة، الملاءات، الزرابي، كل هذه الألوان، التي من شأنها أن تحدث لي دواماً إن أنا رايتها الآن دفعة واحدة. كم من جمال مكثف! لكن كل هذه الأشياء ليس لها معنى إلا لأنك هناك، لأن ذلك السفر، تلك الجولة، ذلك السوق حيث استوقف بصرنا معاً شيء ذو قيمة يوافقنا، لأنك مرتاحة وسط هذا الديكور، تشرفين على رفته، طمأنينته المجلدة، لأن يدك ليست ممنوعة علي، لأن محيط عينيك يبسط موجاته على بُعد خطوة من جموحني. كان النور مغايراً والنهار والليل. العالم كان يرعد. يعبّرني بكل أصدائه، نداءاته وكنت ألقى بذاتي وسطه بعنف. كنت أجري أجري، أعود كل يوم بمزيد من الأمل والمعرفة. كنت أمشي إلى جنبك. أذكر معطفك الأسود، أزواره الجميلة في شكل حبات الزيتون. حقائب المتكرة التي كانت تشبهك مثل ورود. أذكر تلك الأمسيات التي كنا نذهب فيها إلى السينما وبعدها إلى شاطئ البحر لتناول قهوة. ثم العودة من هناك بسرعة معتدلة. كنا نريد في الوقت نفسه تمديدها أكثر ما يمكن، واختزالها للدخول في أسرع وقت. كنا نعبر المدينة وضواحيها كي لا نحفظ إلا بالماكن التي كانت تمدنا بشيء من الهواء والهدوء. جنباً إلى جنب. كنا نحلم الواحد بالآخر، كنا نتكلم بجنون دون التلطف بأي كلمة. ماذا بك؟ انظر هذا. أنت مرتاح؟ أعطني يدك. مزحة، شيء من المشاكسة، هياً بنا! كنت إذن مفهوماً، محدوساً، أجد عندك صدى لأفكاري ورؤاي الأكثر خفاء، وكنت أعرف أنني أبادلك الشيء نفسه. معرفتي بك، بأصغر مويجة تعبر وجهك، تلمع في عينيك، بأدنى تغير فيك يجعلك تقومين بحركة، تبدلين هيئتك، تتنفسين حسب وتيرة أخرى. كان ذلك، ولا يزال، هو التحامنا.

أكتب وأنا بعيد، أين أنا؟ حجرة ضيقة، رفاق، صورتك أمامي، شوقي لرؤيتك بعد غد. كم هو جميل ومنعش أن أتحدث إليك. أيتها الوحدة ستجهلينني دائماً، لم يكتب علي طريقنا أن يلتقيا، لأنني ممتلئ بحبيبتني.

7 شتمبر 1975

زوجتي الحبيبة،

كثيراً ما أتناول ظرفاً، أكتب عنوانك، التاريخ. يكفي أن أكتب اسمك لأسترجع صوتي ولو أنني لم أعش جديداً خلال النهار، لم أقرأ شيئاً، أو أر شيئاً يُذكر. ما هو الغياب الأكثر حقيقة، وما هو الحضور؟ الجدران، الأبواب، الأسيجة، السماء المحسوبة، الوجبات التي نتناولها ألياً أو حوارنا المتعدد الأبعاد: حنانك، ذكريات، انبهارات، ضحك، بسمه، كلمات جوهرية؟ خطواتي في الساحة أو سيري إلى جنبك؟ غريب هذا الإحساس الذي يتتابني أحياناً، لا أشعر قط بثقل جسدي، يتتابني الشعور بأنني لو مسست شيئاً مادياً سوف يذوب في يدي، وينساب مثل موجة. أشعر بنفسي طاقة متنامية، حركة في كل الاتجاهات، ولادات متلاحقة. أبحر، أتخيل، أحلم، أبداع في المستقبل. لعل هذا هو ما يسمونه «الشروود» بعبارة بليدة. إلا أنني لا أنسى أبداً هذا المعطى الموضوعي: وجودي هنا، دلالاته، متطلباته. على هذا الصعيد لا يميزني أي شيء. سجين له بزة وإناء وفراش، يعرف الضروري، ويقوم بالضروري. لكني لبيت هذا فحسب، أو بالتالي لا أكون كذلك إلا في بعض الأحيان، حيث لا أقدم للأعراف المفروضة إلا بعض الحركات وحضوراً شكلياً. وهذا يجعلني أبتسم من حين لآخر، لأنني أعرف ما في هذه الوضعية من مفارقة. حاضر/ غائب. السجن لا يُكَيِّفُنِي إلى درجة إطفاء بصري أو كمّ قلبي. أعيش بكثافة معك، مع شعبنا. جسدي، أفكارك ملك لكم، كل قوتي. أتريين؟ يكفي أن أخاطبك لأسترجع صوتي، صوتي الشهواني، صوتي الشامل.

كان اليوم يوم أحد: غسيل، حمام ساخن. بدأ الجو يبرد. خيمت الغيوم على السماء. يفرحني أن أرى من جديد سكان السماء هؤلاء. أمس في الليل، حيث كان الضوء مطلقاً، استيقظ الرفاق في فزع. كان فأر صغير قد دخل إلى الزنزانة ليتعاطى شغلباته المفضلة. استعناً بأعواد الثقاب لاكتشاف مخبئة. لا أثر له. لكن ما أن يختفي النور حتى كان يعود إلى عَدُوهِ ويتخذ جسد أحدنا مرتكزاً لوثباته. استنفار جديد. لا جدوى. أنا، تلفعت بكاملتي في الإزار وواصلت نومي. هذا الصباح، أعلننا حالة الطوارئ. فكرنا أن الفأر قد أتى ربما من زنزانة فارغة نستعملها كمستودع. أفرغت هذه الزنزانة ونظفت. لكن لا أثر للفأر. مما جعل البعض يسخر منا. لكن شهادتنا الجماعية كانت سدّاً منيعاً ضد كل الافتراءات. كم ضحكت الليلة الماضية عند رؤية بعض الرفاق يشعلون عود الثقاب الواحد تلو الآخر، ويبحثون بدقة عن الفأر. عندما أقارن مع جردان سجن الدار البيضاء، أكاد أتعاطف مع الفئران اللطيفة التي نجدها هنا.

هذا لتضحكي أنت والأطفال (...).

21 شتمبر 1975

عزيزي جسلان،

أحزنتني رسالتك شيئاً ما. أيمكننا أن نكون صاحين وأصلاء إلا إذا أدبنا الأمل
ثمناً لذلك؟ كم يحزنتني هذا النزيف اللامُبرَّر. هلا وضعت شيئاً من الحنان،
الحرارة، الإيمان الذي تطفح به رسائلك لي، لو وضعتها في النظرة التي تلقيها
على العالم، البشر، أكنت ستحس بشيء غير هذا الجرح الدامي، المؤلم، الذي
يلويك إلى الوراء، يجعلك تتشنج وتطوي يدك بدل بسطها، ساطعة مثل شمس
أخوية؟ إن لي لك يؤلمني. وصدقني. إنني عادة عصي الدمع. لكن عندما أقتسم
أخوتي فإني أقتسمها كاملة. أين العدم الذي تتحدث عنه، يا جسلان؟ أما رأيت
كم من ربيع يتهيا، وهذا المخاض الذي يفجر أديم الأرض وكل هذه البواكر التي
تنادينا. أقول لك هذا بصراحة، إنني أعتبر نفسي جزءاً لا يتجزأ من هذا الإخصاب
وهذا النهوض الذي يكبر جماله. تصوّر معي صداقتنا (بعد العنصرية والاستعمار
والاستلاب الأوروبي، والتعصب بكل أنواعه) وانظر إن كانت لا تفجر هذا العدم.
الملزمة التي تضغط على قلبك. أوردّها لك مجرد مثال، نُجيمة في سماء
التغيير، أليست جديرة بأن تجعلنا نتيقن بموجة من الأمل في المحيط الواسع
للكفاح؟ إن إحدى الأمور التي تُثرت عليها، والتي نبذتها على أنها عار على
الإنسان هي تلك اللادرية القديمة والعنيدة للغرب. إنها كانت دائماً وسيلة في
أيدي المضطهدين لتقوية هيمنتهم وشل جميع قدرات عبيد الأمس واليوم.

إن أكبر إهانة يمكن أن تُشعر بها الآخرين هي التصريح بقطع الجسور،
والاكتفاء بمخاطبة الذات. أفهم إنشغالك بعدم اتخاذ الكتابة كعملية قرصنة،
ورهبانية كاذبة. لكن يجب علينا ألا نستسلم للأوهام. أن يتكلم المرء على لسان
الآخرين، شيء لا مناص منه عندما يختار التخلص من عيّه. يكون مشروعها أن
يشمئز الإنسان لو كان ما يقوله تملقاً وافتراءات فنية. لكن عندما يتكلم المرء
ليتعرف على نفسه من بين معذبي الأرض، لِمَ إنشغال البال بكونك أنت أو أنا أو
أحداً آخر هو الذي يأخذ على عاتقه مهمة إطلاق هذه الصرخة الاستنفارية؟
أجل، كي يكون الأمر كذلك، يجب أن يتوافر حد أدنى من اليقين بأن ما نعيشه
(مغامرتنا الإنسانية) ليس عبثياً، وأن في استطاعتنا إخصابها بالسعادة والأخوة
والشعر. أخاطبك من زنزانة مغلقة، في غياب حبيتي، ويداي منكصتان عن
العمل النافع، أخاطبك هكذا ولست متصوّفاً كما تعلم، كما أنني صاح بما فيه
الكفاية لئلا تغريني الأوهام الرخيصة. تَصَلِّب، يا أخي، كن شجاعاً، واكتب، اكتب

للآخرين شيئاً يشبه ما تكتبه لي، وربما يشبه أيضاً ما تقوله لإيليت، حينئذ فقط لن تؤلمك الكلمات، وستبدو لك أعينُ الآخرين شفاقة (...).

22 شتمبر 1975

حبيبتى،

لم أتوصل برسالة منك هذا الصباح، فكان حينني إليك أكبر. لأن رسائلك سحر من الحضور. إنها حركاتك، بسمتك، نظرتك، كلماتك. إن خطك هو يدك، الطريقة الحلوة (تكاد تكون طفولية) التي تمسكين بها القلم، والتي ورثها عنك ياسين فيما أعتقد. إذن، رسائلك، هي الأخرى حفلة. لكن لا علينا. كم من تجليات لحضورك!

إن لي وسائل عديدة للالتحاق بك. هذا الصباح، لأنني أكتب لك في الصباح (الباب مفتوح، برقع شمس جميل على الجدار، ضجيج السجن، عدو وروح الرفاق). الجدران شفاقة، العالم، عالم الأخوة والغابة السائرة والعمل المخصب، في متناولي. يتقهقر المنفى من أمام عيني لأن الوحدة ملغاة وقلبي زاخر بكل اللقاءات. أصبحت أعني أكثر أخطار النظام السجني. إنه يراهن بالأساس على التآكل الداخلي ويستعمل لهذه الغاية حُفناً صغيرة من الحرمان، الانتظار، التأجيل، الغضب المكبوت، الصمت المكرّر... إلخ. يبقى الهدف إرجاع السجن إلى طور الطفولة، تشكيل آليات تقترب شيئاً فشيئاً من آليات الحيوانات المرؤضة. إغلاق الأبواب، فتحها، ساعات ثابتة لإفراز اللعاب أمام الأكل، ساعة لرؤية الشمس، ماذا أقول، ساعة؟ بل ربع ساعة كل أسبوع ليكون السجن سعيداً، ليكون المرء إنساناً مرتبطاً بالعالم. لكن ها هي كل هذه السذاجة تتكسر على صخرة يقظتي، يقظتنا. نصل إلى المفارقة التالية: إن النظام الذي يسعى إلى هذه الأهداف هو الضحية الأولى. وهكذا ينظر المرء إلى هذا الهرج والمرج، هذا التنظيم الغريب، هذه الترسانة، وهذا التبذير، فيبتسم لوعيه أن هذا الخليط من المفارقات ماله الانقراض.

حبيبتى، لقد أوشكت على الانتهاء من قراءة السيرة الذاتية لـ أنجيلا دافيس. تجربة مختلفة تماماً عن تجربة جاكسون مثلاً، لذا فإنها أقل إثارة بكثير من «إخوة صوليداد». ومع هذا فإن أهم شيء في هذا الكتاب هو تجربة الكفاح الجماهيري (التي تؤمن به أنجيلا أكثر من أي شكل آخر)، وكذا، الكفاح ضد «النزعة الرجولية» التي كانت تنخر جسد حركة تحرير السود. هذان هما الجانبان البارزان في هذا الكتاب الذي لا يعطي أي معلومات عن الوسائل وطريق التحرر في الولايات المتحدة الأمريكية. يخيم الغموض النظري على

كل الصفحات. ورغم ذلك فإن هذه المواقف تؤثر في القارئ إلى أقصى حد، هذه المشاهد التي يتجلى فيها التضامن في أروع معانيه، ويكتمل فيها الوعي. إن أنجيلا دافيس تكتب ببساطة. لكن ما تكتبه رائع. ترين، لا أستطيع التخلص من نزعتي الانتقائية في قراءاتي. يكاد يكون هذا مستحيلاً لأنني لا أستطيع مقاومة الرغبة في قراءة كتاب مهم فوراً. ومع ذلك فإني أحاول التقليل من هذا كي أستفيد أكثر مما أقرأه (...).

فاتح أكتوبر 1975

حبيبتي الرقيقة،

(...) اليوم أدخلت البهجة والانشراح على قلبي. أضحك معك. إحدى لحظات فرحتنا الكبيرة. لأنني عندما أضحك معك، فإنه ضحك تام، زاخر، باقة شذا. لذا سأحكي لك نكتتين قصيرتين. تعرفين أن معنا هنا بعض السجناء الذين يعملون كأعوان (إنهم ينظفون الأرضية، ويقومون بأشغال أخرى من هذا القبيل). كنا نتحدث ذات يوم مع أحدهم، وهو شيخ، عميد السجناء. حدثنا عن امرأة كانت سبباً في سجنه. سألناه إن كانت جميلة. فأجابنا باندھاش «ولكنها امرأة!». أربعون سنة سجناً تفقد المرء طاقة التمييز. إن هذا هو الدرس الذي يجب استخراج من هذه النكتة. النكتة الثانية بطلها سجين آخر تم تعيينه مؤخراً ليشغل بحينا. بربري الأصل، من آيت حديدو، وبعد 13 سنة من السجن لا يزال يتلعثم بصعوبة في النطق باللغة العربية، بالإضافة إلى أنه يبدو قاصراً عن الاستنتاجات المنطقية. كنا إذن نتحدث معه ذات يوم في موضوع السجن وخصوصاً «الحديقة» (حيث تنمو الخضار... إلخ) سألناه عن عدد السجناء الذين يشتغلون فيها. بعد التفكير أجاب 37 أو 80! أتوي ضحكاً كلما فكرت في هذا. على أي حال فمند وجودنا هنا أتاحت لنا الفرصة رؤية العديد من الأشخاص الغربي الأطوار. مرّ من هنا على الخصوص حلاق كانت لنا معه مناقشات كلها غرابة. لزمنا أيام طوال لإقناعه بأن الأرض كروية الشكل وتدور حول نفسها. فكان يدفع هذا بحجج لم يكن ينتظرها أحد. أحتاج لصفحات وصفحات لأحكي لك هذا الجانب من حياتنا هنا. منذ حين فقط كم ضحكنا خلال درس اللغة الإسبانية. ج... أصبح هو البطل في الهفوات. بما أنه يدرس منذ فترة اللغة الإنجليزية لتحضير امتحان البكالوريا، فإنه يكاد يخلط كل شيء. مما يؤدي إلى عبارات نصفها إنجليزي ونصفها إسباني. كنت تريد أن تضحكي، أليس كذلك؟ سأكتب لك كالיום بين الفينة والأخرى (...).

13 أكتوبر 1975

عزبتي إيليت،

هذا الصمت الذي فقأته برسالتك الأخيرة. ماذا يتشكل لئلتنا؟ هل نحن مجرد متفرجين بريئين من أغلاله، أصداء إجراماته وتشويهاته؟ كل يوم أجبر نفسي على حفر الجسد والذاكرة لألاحق ما بقي من المغارة، «الغيتو»، منذ الأقبية الهمجية القديمة. عندما أتكلم، عندما أتحمّل وأعاني، عندما أكره وعندما أتأخي، وعندما أحب مجنوناً، أريد معرفة ما يجري شاملاً، من المنبع، وما ليس إلا مخلفات مهترئة من جلودنا القديمة. وهذا يعني أنني لا أستقر أبداً في الطمأنينة. لا أكتفي بمكتسباتي. أملي ويقيني هو استمرار هذا المسعى. إن الإنسان الذي أناديه بكل قواي ليس تمثالاً، ولا كائناً بعقل إلكتروني. كما أنه ليس نبياً بأحلام ماضوية ولا شخصية من ابتكار الخيال العلمي. لأن هذا الإنسان يعيش ويتغير كل يوم. جسده قوس قزح الكفاحات الأخوية.

أعود، أو بالأحرى، أنطلق من جديد من رسالتك. الكتاب/ الحوار. كل ما أطلب هو ألا ينطلق المرء منتصراً / منهزماً مسبقاً. الكل أو اللاشيء... هناك العديد من الكتاب الذين يسقطون في هذا النوع من العصبوية. إن اللغة الخاصة التي يتكرها المرء للانفتاح على الممكنات الأخرى لا تُعطى مسبقاً.

الأمر لا يتعلق بقانون تكويني أو إلهام مفاجئ ولا عقلاني. إذا نحن لم نفصل اعتباطاً وتعسفاً الشكل عن المحتوى (كما لا يمكن فصل القلب عن نبضاته) حينئذ يصبح من البديهي أن الحوار، التفاهم الحقيقي يُشيدان بصبر، بقدر ما نتخلص من كثافة عتمتنا وحقاراتنا وما لا يصدر إلا عن هلوساتنا الضيقة. بالطبع لا يعني هذا «التعسف على إرادة الآخرين» كما تقولين. لكن الأمر يتعلق بتفجير ما يجبر الآخرين على التعرف عليه، والبحث عنه والالتحاق به. ثم تلي اللغة، تتفاعل مع حرارة وعفوية هذه اللقاءات.

19 أكتوبر 1975

حبيبتي،

كيف يقبل الليل وكيف تولد النجوم في السماء؟ في الماضي مدينة طفولتي. كنت أهوى تلك الأسطح البيضاء، تلك القبة التي كانت تلامسها أشعة الشمس الأخيرة. كم من مرة وأنا لا أزال مراهقاً كانت عيناى تغروران بالدموع عند تأمل هذا المشهد. ثم أقمت بجانب البحر، وكم مرة جلسنا جنباً إلى جنب نتأمل غروب الشمس. صمتنا أمام جمال هذه اللحظات. كل هذا أصبح بعيداً. لا يمكن للمرء أن يجمع باستمرار وخزات الحنين. آه! الفضاء،

الهواء يملأ الرئتين، الريح تعبث بوجهي. رائحة الزعتر أو الصداً البحري، المياه التي تجري وتتعالى في جنون وسط الموج في الأسرة الزبدية، صمت الليالي المادية التي تتراءى على أطرافها مدينة، درب، وَعُدُّ بالتلاقي. الصباح هو أيضاً جميل. الضوء المؤثر لتلك الأصباح الجديدة مثل أوراق الربيع. البسمة طبيعية، لازمة تتألق وتتناسق في الذهن كي تصبح موضوع اليوم. القهوة الساخنة التي نرتشفها. الحياة التي نقضمها مثل رغيف ساخن، أو سفنجة لذيذة. كيف يقبل الفجر، وما هي نكهة الصحو؟ لكن من أين لي بهذه الكآبة؟ هل من هذه الليلة الاعتبارية التي دهمتني فجأة؟ أشعر وكأنني بعيد أشد ما يكون البعد عن هذا المكان. إني أتمدّد. أتسع، أعيش في كل الممكنات. أدخن، أدخن. ذاكرتي تمتطي الزمن، الأزمنة، صورة تتفجر أينما وَجَّهْتُ عيني المقلوبتين، يديّ تشبه النخيل الذي تعبث به العاصفة. الحلم، هذه الحاسة الخارقة!

حسناً، لنعد إلى الواقع. النوافذ الثلاثة «مزينة» بالقضبان «القانونية». ضوء المصباح العاري. مصطبات النوم. الكتب وأصابعي تعدو على هذه الصفحة لتطبع عليها لمسة أخرى أو جُھَّهاً لك. أن أكتب لك يعني كل مرة هذه الانفصال عن الغياب، هذه الصرخة بكل كياني.

هذا المساء لن أخص لك قراءاتي ولن أثير معك أي نقاش. إنه كتفي الذي أهديك. أدعوك للحلم. إني بكل بساطة رَجُلِك، حاضر إلى جنبك. ولسنا في حاجة إلى الكلام. أهديك ملء يدي هدوءاً، باقة من الأمل. إنني هكذا جنبك، لكي تعلمي أحسن، كي تغني إن شئت ذلك، كي تضحكي إن كانت تلك هي رغبتك ولكي يكون نومك أكثر هدوءاً. أنا معك للحنان (...).

22 أكتوبر 1975

حبيتي،

(...) ها هي الأبواب قد أغلقت علينا والليل يخيم على السجن. إنه الوقت الذي اعتدت أن اكتب لك فيه، لأن كل شيء هادئ، سواء السجن أو الزنزانة. ثم لأنني أحب هذه اللحظة من النهار لكل ما تذكرني به: بعد الانتهاء من العمل، كُنَّا نلتقي معاً عندما يكون ذلك ممكناً. نرتب مشروعاً للأمسية، نتناول مشروباً بارداً، السجائر كان لها آنذ مذاق متميز، ثم لأنني كنت أستطيع أن أقبل الأطفال، أن أداعبهم، أروي لهم الحكايات. كم كنت أحب تلك الأضواء غير المباشرة، الخافتة في قاعة الجلوس والتي كانت تضفي على ألوان ورسوم مختلف الأشياء بهاءً خاصاً. كنت أشعر أنني أعيش بكثافة. لكن هذه اللحظات كانت نادرة، مهام أخرى كانت تستدعيني. ماذا تفعلين الآن خلال هذه الأوقات؟

أتخيل أنك في حركة دائبة كي تستجيبى لمتطلبات الأطفال، تحضير العشاء... أنا على العكس، جالس القرفصاء، نصف جسدي تحت الغطاء وهكذا أكتب لك. كان نهاري مليئاً إلى حد ما بالدراسة: الإسبانية في الصباح الباكر، مراجعة لبعض قضايا النحو العربي، ثم استرخاء تحت الشمس إلى الثانية عشرة. خلال فترة القيلولة إعادة قراءة رواية «الحشد» لـ الشرايبي. بعد الظهر فسحة، ثم قراءة في كتاب عن المسرح المغربي لحسن المنيعي. صادفت فيه جزئية مفيدة فيما يخص «تَسْبِي». تعرفين أن من بين الأشكال المسرحية المغربية التقليدية، هناك ما يسمى «البساط». وهو نوع من السكتشات التي يؤديها ممثلون محترفون أمام الملوك بمناسبة بعض الأعياد والحفلات، خصوصاً تلك التي تقدم خلالها الهدايا. وكان هؤلاء الممثلون يدعون «بوهو» بفاس و«المُسيح» بمراكش. ومن بين الأسر التي احتفظت بهذا التقليد المسرحي، نجد عائلات اللعبي، بن زاكور وغيرهما. أخيراً يجد لقبى تفسيراً له. هذا عن نهاري، بعد قليل سأستأنف القراءة في هذا الكتاب عن المسرح والذي يقدم بحثاً وصفيّاً لا بأس به عن الموضوع. أترين، إنه يوم رجل متعقل ومجتهد. إنها وتيرة اعتيادية، لكن وسط هذا النسيج، هناك أيضاً الأحلام، أحلام الأحلام، صورة تعبر ذهني مثل نجمة هاوية، ذكرى معينة تفصلني عن المعيش المحيط، بسمة تتصاعد من أعماقي وألجمها قبل أن ترتسم على شفتي، شيء يوقفني فأتأمله إلى أن يختفي من أمام بصري، إلى أن يصبح حضوره مقتصراً على تذكيري بنقطة بداية شرودي. ثم هناك الحركات الضرورية والآخرى، مزاحنا، ما يدور حوله الحديث بين أشخاص يعيشون الظروف نفسها. غريب إلى أي حدّ أصبحنا نعرف بعضنا البعض: عيوب كل واحد، أفكاره الثابتة، مصطلحاته المشهورة كما نسميها، عاداته في النوم، في الاغتسال، وحتى في إبرازه، أذواقه، ردود فعله المحتملة، ضحكته، مشيته، أوقات غضبه... إلخ. إننا نشبه زوجاً متعدد الرؤوس والأصوات، لا يغيب عن أحد ما يجول في خاطر الآخر. يمكن الاتساع في هذا الموضوع إلى ما لا نهاية (...).

25 أكتوبر 1975

عزيزي جسلان،

أغلى رأسمالنا، «ترف البؤساء» الذي نتحدث عنه، إنه ذروة تألق الحياة فينا، طاقتنا على تفجير حقارتنا السلبية وجزر العزلة، على خنق العتي ومناطق الظل للعالم القديم المترسب في داخلنا. ولسوف نحفظ بهذه القوة طالما بقيت أعيننا مفتوحة، طالما بقينا يقظين في هذا الليل المشحون بالزلازل. وإذا نحن أصبنا (كما يصاب المرء بالصاعقة) بحب كهذا فلأن القلب – الجسد –

الفكر (كما نشاء) لا يمكنه أن يتمالك، ويحتفظ بكل هذا الإشعاع. كل هذا الألم وهذا الحبور. إن النهر العاتي للأخوة يحطم كل الحواجز. ذات يوم، في إحدى قصائدي القديمة قلت: «إني إنسان ما / شيء ما / في امتداد ماساوي». ها نحن أصبحنا من جديد رُحَلًا وسط مدن الفولاذ ومعسكرات الاستغلال، ونحمل في داخلنا أحلاماً جديدة، نبحث عن منابع وواحات جديدة. لم يعد مجال مسيرتنا محدوداً، إنه المجال الشامل لكوكبنا وإنسانيتنا، المعذبون، أشقاؤنا. تعرف، يا جسلان، أحياناً أثب في داخلي وأحملق حولي، أحرق في أرجاء الزنزانة المسدودة الباب وأتساءل: أين أنا؟ هل أنا حقاً هنا وكل الحياة تنساب في الخارج؟ ذلك لكوني في الغالب بعيداً، بعيداً عن هذا المكان، وأؤكد لك أنني كم مرة تخيلت نفسي هناك معكم، في ظل شجرتكم الباسقة، كما أتخيل نفسي في آلاف الأماكن الأخرى حيث أعرف أن في إمكان يدي أن تنفتح للعطاء والأخذ، للملامسة ولتسديد الضربات. ليس هذا حيناً أو ما يُدعى بنداء الحرية. لا. أنا هكذا، لا أتنفس، لا أعيش إلا للمشاركة، لاستقبال الإنبثاقات، الولادات، حركة التغيير. وهذه هي لحمة القصيدة الحية. لكن وخلافاً لما تقول لا أقدر لـ «الجبابرة الذين ينهشوننا» كل هذا العمر المديد، هذه الطاقة الخارقة التي تضفيها عليهم، حسب ما يبدو لي. ثم إني، خصوصاً، أرفض أن أفكر أمام أعينهم وأن أقيس نفسي بهم. من يخاف ممن؟ كما قيل. إن صوتي موجه لحفاري قبور النظام الهمجي. رغم الأغلال التي يمكن أن تقيدني، يمكن أن تقيدنا، إننا نحن النظام الإنساني الحق، على عاتقنا توضع مهمة الدفاع على ذكائه، حرته، روحه الخلاقة. أما القوة أو الضعف، فهي أمور نسبية (...).

27 أكتوبر 1975

حبيتي الحلوة،

تلقيت رسالتك المؤرخة بـ 22، أفهم تمام الفهم تلك المشاكل التي تلاقينها في عملك. لم أكن أستصغرها في يوم من الأيام. أتذكرين ما كنت أقوله لك في بداية أول سنة لك في التعليم؟ كنت قد استرعت انتباهك إلى شتى أنواع المشاكل، المفاجآت التي يمكن أن تصادفك في هذا المجال. رغم ذلك أناقشك في نقطة واحدة من رسالتك: تجيبين على قولي، بأنك، في هذا الميدان، تدخلين في علاقة مع شريحة حية من واقعنا الاجتماعي، وتوردين بعض الأمثلة عن المظاهر السلبية لهذا الواقع: كون بعض التلاميذ يرسمون على طاولاتهم الصليب النازي، مظاهر اللامبالاة، الميول نحو عدم الاكتراث بما يجب أن يتحمسوا له «مبدئياً». لنتفاهم: لا أريد أن أقول أن هذا الواقع كما هو يدعو للحماس. إنه ليس بالبساطة حيث لا يتطلب إلا مفجراً كي نراه يتغير

كلية بين عشية وضحاها. كما أنه ليس سكونياً إلى حدود اليأس. إننا نعرف شعبتنا تمام المعرفة. وبالتالي لا يجدر بنا أن نغالي في حكمنا عليه سواء من حيث محاسنه أو عيوبه. ذلك أننا لا نؤمن بالقدرات، بالمصائر المخططة مسبقاً، بالعاهات الاجتماعية التاريخية. بالعكس، لا نغض طرفنا أبداً عن مجرى التغيير، عن القوى التي تصنعه، وحتى في هذا الصدد لسنا نؤمن بتطور يسير في خط مستقيم وتصاعدي. تقدم وتقهقر، تراكم كمي ثم قفزات كيفية، انهزيمات وانتصارات، هذا شأن الحركة. إن ما يمكن أن يبدو لنا أحياناً شاذاً، تقهقراً أو جموداً، انبعثاً لعاهات قديمة، هو ربما الشيء السطحي المؤقت أكثر من أي شيء آخر (بالطبع المؤقت في الديالكتيكية التاريخية يمكن أن يدوم). إذن، أمام هذه الظواهر السلبية، يجب على المرء ألا يفقد صوابه وتماسكه، أو أن يهن عزمه. بالعكس يجب عليه مواجهتها برباطة جأش، ويستقصي أسبابها، وينظر كيف يحاربها، كما يجب عليه أن يعي المشاكل التي ستعرض سبيله من أجل هذه الغاية. لناخذ مثلاً موضوع العنصرية: أعتقد شخصياً أن رسم الصليب النازي من طرف طفل أو مراهق أقل خطورة من تصرفات وآراء مثقفين يحملون أفكاراً مسبقة مثل هذه. في هذه الحالة الأخيرة، الأمر أكثر ضرراً وخبثاً لأن هذا السلوك مُنْتَظَرٌ ومُدْمَجٌ في فكر متكامل، في منظومة. أما في الحالة الأولى فالأمر سطحي لأنه لا يتعدى مستوى المحاكاة. لقد اكتشفت مدى سهولة تمزيق هذه القشرة، وإلى أي حد يصبح الطفل أو المراهق الذي تشرح له الأشياء كما يجب معادياً لهذا النوع من الأفكار المسبقة ويتطهر من هذه العاهة. خلال تجربتي، كم لحظات فرح عرفت في هذا الصدد. إن رد فعلك يبدو لي سطحيًا، وهذا ما يجب محاكمته. أود أيضاً أن أعقب بكلمة على ذلك الشعور الذي ينتابك عندما تحسبن أنه ينظر إليك كـ «أجنبية». لكن هذا سيمضي بنا بعيداً. سأعود إلى هذا الموضوع في فرصة أخرى. إن ما أقوله هنا لا أقصد منه التأثير على تفكيرك في الموقف النهائي الذي ستتخذه. فالأمر يتعلق بمشكل ملموس كنت أناقشه في حد ذاته.

حببتي، يطول علي الوقت في انتظار تلقي أخبار عن حالتك الصحية ومعنويتك. أشعر بالضجر منذ يوم الجمعة، كلما فكرت في مشاكلك الصحية وغيرها. ثم كل هذه المناقشات الجدية التي أثمرتها معك مؤخراً، لست أدري (وإن كان ما أقوله يبدو لي صحيحاً) إلى أي حد لا تضايقك في الوقت الذي أنت محتاجة فيه إلى ما يستعيد لك عافيتك، محتاجة إلى المساندة في أبسط أشكالها: يدي، حرارة شوقي، حناني، رعايتي. تعرفين حببتي، أن كل هذه المشاعر دوماً لك، سواء طلبتها أم لا. معك. اعتني بصحتك. أحبك.

4 نوفمبر 1975

حبيتي،

(...) رسالتك الرقيقة والعنيفة تعيد لي حضورك. بودي أن تكتبي إليّ كثيراً هكذا. في الليل يودع المرء الجراح، الآلام، الرؤى التي تذكر بالبشاعات، يلتقي بالقوى الأصلية، يجند كل ذكائه، كل طاقاته الخلاقة، يتجسد في جسده من جديد، يفتح سدود الذاكرة، يستعيد عذوبة الأنشودة المثيرة. ثم يمدُّ اليد لبيد الليل المصطنع، ويمثُلُ أمام الآخر. حلم آخر يتفتق، تجربة انصهار تعادل كلماتها أنغام كل قيثارات العالم، كل الربابات، كل الكمانات، كل النايات، تكون حركاتها ميلاد الفجر والنجوم، انبلاج غابات، جزر، محيطات. في الليل، التَّفَاز إلى أعماق الذات لملاقاة الآخر، الاندثار في لا نهائية الكون لملاقاته. أجل إنني أبتسم، أضحك، أعلقُ داخلياً على كلماتك، وخصوصاً إنني مستغرق تماماً عندما أقرؤك. أحياناً، أتأسف لكونك لا تكتبين طويلاً، طويلاً حتى أستطيع البقاء معك هكذا يوماً بكامله (...).

7 نوفمبر 1975

زوجتي الحبيبة،

(...) بدأت السنون تمر. أجل إن السنة الرابعة توشك على نهايتها. منذ ذلك اليوم الأخرق حيث غادرتك كما لو أنني مقبل على سفر غامض وأليم. تتابعتم الشهور والأعوام. لم نعد حتى نعدّها. من حين لآخر يحتدم الشعور بالزمن فجأة فنندهش لكوننا في نقطة تبعد من النهاية بقدر ما تبعد من البداية، لكننا سرعان ما نضرب هذه الحسابات بعرض الحائط ونحسب حسابات أخرى تتعلق بمسيرتنا، بوقافنا وبحناننا. حينئذ نتجاوز الأقل والأكثر، وننمّي وعينا بالرحلة، بالمكاسب، بامتداد الانبعاث. إنه تاريخ حياتنا الذي يشرق ويضيء، يزرع بذور الأزهار في الطريق التي تتفتح نحو العيد الكبير. هل نحن متفائلون أكثر من اللازم، ساذجون إلى درجة أننا لا نرى إلا المستقبل؟ لا، لأننا قهرنا عتِيّ أنانيتنا، لأننا ننظر أبعد من الواقع السطحي والجدار الذي نصطدم بصلابته والمشكل المباشر الذي يغيظنا. إن فكرنا، جسدينا، ليسا محدودين بحاجياتنا، ارتياحنا، رضانا. إننا نعيش ونندمج بحيوات أخرى، آمال أخرى ونبارك في أنفسنا طاقة الحلم هذه، وهذه المشاركة التي تجعلنا نستطيع رؤية نجوم أخوية في سمائنا، نتحدث مع المطر والشمس ونرسل في مخيلتنا قبلة حنان إلى الشجرة، الزهرة، الطائر أو الطفل الذي يثير مشاعرنا. إن أفقنا في كل

مكان، في داخلنا كما في خارج ذواتنا: هذا الوطن، هذه الأرض التي نعشقها، هؤلاء النساء والرجال الذين نبسط لهم أيدينا حتى ولو كانوا لا يستطيعون تناولها والشد عليها كما نرغب في ذلك هنا والآن (...).

12 نوفمبر 1975

عزيزي جسلان،

قبل قليل توصلت برسالتك المؤرخة بالخامس، وها أنا أجيبك فوراً. أن أقطع صمت هذا الليل المرصص، أن أرددش معك كما «أرددش» مع نفسي عندما ينطفئ الضوء في زناتني، فأشعل سيجارة وأنظر من خلال العتمة، وأموضع ذاتي ضمن آمال وأمال الناس. كم هي لذيذة تلك السجائر التي ندخنها، متكئين على حافة نافذة الليل. أحياناً، أسمع ضجيج طائرة أو صفير قطار بعيد، فأشعر كما لو أن رجة زلزال اخترقت جسدي من جنب إلى جنب. أستعيد كل ذاكرتي ولا أستطيع مقاومة هبة حنين منتشية. بعد قليل سأستسلم للحلم، للألوان، للعدو الجنوني عبر متاهات الصحراء وأعماق البحار، وجوه طفولتي، أحقادي، بزوغ صورة حنان، ثم فجأة، صرير المفاتيح، الباب الذي يفتح، الحساء الذي يجب أخذه، فأنتلق نحو شمس الصباح (...).

5 ديسمبر 1975

حبيبتني،

هذا المساء، تناولت أول كأس حليب، انتهت هذه المحنة.⁽²⁹⁾

تنطلق أول أفكارني نحوك، نحو الأطفال. كم أود أن أمسك يدك. كم أود ضم ياسين، هند وفُدى إلى صدري.

رسالتك المؤرخة بـ 26 نوفمبر التي توصلت بها في خضم الإعصار، كانت سنداً كبيراً لي. اغرورقت عيناى بالدموع وأنا أقرؤك. أشكرك على ثقتك وحنانك.

لا يزال الوهن يحول بيني وبين التفكير، الكتابة. يكفيني أن أقول لك أنني أحبُّك، وأن الفجر أت بعد كل هذه الليالي المتركمة. لك.

7 ديسمبر 1975

حبيبتي،

طلبت مني أن أُحدِّثكِ عن المشاكل التي سببها لي قلبي. (30) ها أنا أمثل. لا معنى لأن أخفي عنك هذا كما لو أن الأمر يتعلق بمرض مخجل أو عضال. لقد بدأت هذه النوبات مع اعتقالي. أصابتنني مرتين في سجن الدار البيضاء، ومرة قبل ستة أشهر، أما الأخيرة فتعرفين متى حدثت. خلال هذه النوبات أشعر بالاختناق، بنوع من المغص في القلب ثم يغمى عليّ. يبدأ الألم حاداً، لكنه سرعان ما يمضي وأشعر بعده بعياء في كامل جسدي. بالدار البيضاء عُرضتُ على أحد الأطباء بمستشفى ابن رشد، وأجريت لي فحوص متعددة. لم يكتشف الطبيب أي شيء غير عادي، ونصحتني بأن أنقص من التدخين، وأتجنب المثيرات (قهوة، شاي وغيرهما...)

ومنذ أن جيءَ بي إلى القنيطرة، لم يكن في إمكاني أن أعرض نفسي على طبيب مختص، أو أن أجري تحاليل. وهذه إحدى المشاكل التي يجري فيها صراع مع الإدارة. ومع هذا فإن الطبيب قد كشف عليّ مرتين، وأعطاني بعض الأدوية وواعد بأن يعمل ما في وسعه كي تجري لي فحوص جدية. يبدو أن مدينة القنيطرة كلها لا تتوافر على جهاز تصوير إشعاعي، ولا على آلات خاصة بفحص القلب، سنرى إذن. لا تقلقي، تعرفين كم أنا متشدد في هذه الأمور الصحية. أتتبع العلاج، وسأستمر في تتبعه، أتجنب كل مبالغة، باستثناء السجائر التي لا أستغني عنها (لكن لا أتجاوز أبداً علبة في اليوم)، لا أشرب الشاي وقليلاً من القهوة فقط، ملعقة أو اثنتين في اليوم، من حين لآخر شاي أسود. ثم إنني أكل جيداً، أترىض، ومِعنويتني مرتفعة، وهذا عامل مهم. لاحظت أن هذه النوبات مرتبطة دوماً بانفعالات كبيرة أو مضايقات، وهذا مع الأسف، لا يمكنني تجنبه، ونادراً ما أكون أنا الذي أختاره. أفترض إذن أن الأسباب يمكن أن تكون عصبية. لكني لا أجرؤ على التماذي أكثر في هذه الافتراضات، باعتبار جهلي المدقع في هذا الميدان.

ألا ترين أننا نتكلّم عن مشاكلنا الصحية كما لو كنا عجزة متقاعدتين. هيا، كفانا.

في زنزانتني، أتوافر الآن على كل ما أحتاج إليه. إنني مُجهّز بكل ما هو ضروري للوحدة والتأمل. ليس الأمر ضاراً في حد ذاته، إذ أن هذا يمكنني من الاختلاء بملكة شعري التي تبدو لي ميالة إلى الاعتزال. كلمة واحدة فقط عن تلك الزيارة العجيبة. كم كنا في حاجة إليها. نشوتها لا تزال تدب في كل جوارحي. لست أدري إن كنت أستطيع أن أنام إثرها. توصلت بالمأكولات. كمية كبيرة، لعلني أكلت أكثر مما يلزمني. أمس، تخيلت رسوماً متحركة، أبطالها هي خلايا الجسد الإنساني. ذات يوم لا شيء يأتي سوى الماء وحده. تحار الخلايا، ثم

تفتشّى المجاعة. وبعد أيام. (أمس الأول إذن) – يبدأ سيل الغذاء، فتقع الفتنة العامة والعريضة، وفي الغد تصبح الخلايا منهاراً القوي لفرط ما تناولته. في يوم ما، ذكريني بأن أكتب لك هذا بالتفصيل، أظن أن ذلك سيكون مضحكاً.

اكنفي قُدرنا برعايتك، واعتني بصحتك.

13 دجبر 1975

جوسلين،

قبل حين أنت والأطفال، لن تستطيعي أن تتصوري إلى أي حد أصبحت زيارتك لي مهمة في الآونة الأخيرة، إنها تشد عضدي وتغمرنني رقة وحناناً. ذلك أنني أصبحت أعيش مثل حيوان متوحش داخل قفصه. فالدقائق الخمس عشرة المحددة للفسحة، عندما لا يكون الجو ممطراً، تكاد لا تكفي لأن تتعود العين على ضوء النهار، كي تدفئ الشمس الجفون، الوجه، كي تتعود السيقان من جديد على الحركة. ثم تُستأنف المسيرة الطويلة للوحدة، للانتظار الحائر. من حسن الحظ أنني أملك أحلامي والقدرة على جمع هواملها واستجلاء غموضها. أكثر من أي وقت أصبح الكلام مستعجلاً، ذلك الذي يستحقه المرء بمعاناته.

17 دجبر 1975

حبيبتي،

(...) عشرون يوماً تقريباً مضت وأنا في هذه الوضعية الجديدة. لم أعد أسمع صوتي جهراً. صوت آخر ينطلق داخل جسدي. وهو يتكلم، يتكلم بلا توقف. لم أعد قادراً على حبسه.⁽³¹⁾ إنه سيل عارم يستخرج من ذاكرتي ومن مهجتي كم من أمور منسية، مكبوتة، لم يكن التعبير عنها ممكناً في الماضي لأسباب مختلفة. لا أستطيع القراءة ولا أسف لذلك. من الآن فصاعداً سأحذر تلك القراءات الاستهلاكية الطويلة والسلبية. فعندما يبلغ المرء فيها، تصبح كعملية صب الماء في وعاء بلا قعر. لقد تعودت على رقعة زنرانتتي الضيقة. وضعت صورتك على الرف العلوي. وهكذا فإنك تراقبين كل ما أفعله، تكتنفينني بحضورك. على الجدار، بجانبني، ألصقت صورة قُدرس. تلك التي تظهر فيها، بخصلات شعرها، تنفخ بطنها وتبتسم بمكر ساحر. إن بسمتها تضيء حجرتي بحق. الآن نخرج مرتين في اليوم للفسحة. ربع ساعة كل مرة. لكن ليس هناك شمس منذ خمسة أيام. على حد تعبيرك، إن الإنسان معجزة من التكيف. أجل،

لا يجب أن يكون هذا التكيف سلبياً، بل، إن أمكن، حافظاً على التجاوز. على تعميق التجربة الماضية، وتدارك هفواتها. تعرفين أن العديد من المناقشات التي أثرناها قبل هذا الإعصار، تبدو لي متجاوزة الآن. لا لأنها كانت بلا جدوى. سوف نستأنفها في يوم من الأيام. إن ما له الأسبقية اليوم هو حضورنا الواحد بالنسبة للآخر، الصمود في وجه الصعاب، البسمة المولدة للانبعاث. لم تحدثيني عن حالتك الصحية. كيف أنت الآن؟ هل رجعت إلى الطبيب؟ لا بد لنا من القضاء على هذا المرض الذي ألمَّ بك. فيما يخصني. زارني الطبيب نهار اليوم. أكدت عليه كي تتاح لي فرصة إجراء تحاليل جدية سواء فيما يتعلق بالقلب أو بالروماتيزم. وعدني بأنه سيبدل كل ما في مستطاعه. في انتظار ذلك، لديّ الأدوية التي أحتاجها.

جوسلين، لا تستطيعين معرفة تفكيري فيك وأنا في وحدتي. إني أحيالك من جديد لأنتشل من الصمت والعيّ أسرار تحولنا.

20 دجبر 1975

زوجتي الحبيبة،

تلك الزيارة السعيدة التي كنت فيها مشرقة... سأحبك دوماً أكثر فأكثر وأنت هكذا، وهذا يعني أنني أفهم أيضاً إن تكوني أحياناً مكتئبة وأحبك أيضاً هكذا. أصبحت العزلة واقعاً دون أن أتمكن من فهم أي شيء في هذه الوضعية. لكن كالعادة، أحاول تحويل الشر إلى عكسه. إذا لم تكن هناك شمس في زنراتي فإنني سأستخرجها من ذاتي، من حينا، من الفجر الذي أترقبه، أنبيء به. إذا كنت لا أتكلم طوال اليوم، لا أتلفظ بأكثر من ثلاث أو أربع جمل، فإنني أطلق العنان لصوتي الداخلي يمتد للقاء كل الحوارات الممكنة والشموس الأخوية. الوحدة، الفراق يصدران دائماً عن اختيار أو يُفرضان على المرء مثل القدر، عندما لا يستطيع اكتشاف ما يفرضهما أو لماذا. لا يمكنني أن أكون وحيداً لأنني لست مغفلاً، ولأنني اخترت الانفتاح، الوفاق، الأخوة. أنتظر رسائلك. كان دائماً مهماً بالنسبة لي أن أقرأك، لكن هذه الأهمية تزداد الآن أكثر.

اسمعي، سأقول لك هذا الأمر. لا تغاري. لقد شغفت «حبا»... بينتك قُدس. منذ أن وضعت صورتها بجانبني وأصبحت تنظر إليّ، أرى الدنيا عيداً من حولي. أخاطبها، أجنُّ بها. إنها الحقيقة: لم أر في حياتي بسمة مثيرة مثل بسمتها. إنها تدعو للسعادة والحبور. أوكد لك أنها لو لم تكن بنتي لكان الأمر سواء. أنا موضوعي لأنني تأملتُها طويلاً، وحللت ملياً قبل أن أكلمك على هذا النحو. في

الواقع أنا الذي أغار منك شيئاً ما لأنك تعيشين يومياً إلى جانب مَلَكِ الحسن والعدوبة هذا.

حبيبتي، أحيا كثيراً بك، لك، فيك هذه الأيام الأخيرة. أشعر وكأنني أكتب لك رسالة لا منتهية. أدخن كثيراً، اعذريني. لكنك تعرفين هذه الفترات من التوتر التي تنتابني أحياناً، فيصبح التدخين ضرورياً بالنسبة إلي. سأحاول أن أغير سلوكي وقتما أمكنني ذلك (...).

الليل أكثر كثافة ها هنا، لكنه أقل صمتاً. يمكن سماع نباح الكلاب عن بعد، ضجيج السيارات وحتى بعض الأصوات في الخارج. وهذا يجعلني أحلم أكثر. أنام باكراً وأصحو باكراً أيضاً. أكاد لا أقرأ شيئاً.

اكتبي لي، حبيبتي، حدثيني عن حالتك الصحية التي أتمناها جيدة، عن الأطفال، عن كل الأشياء الكبيرة والصغيرة التي تشعرين بها وأنت تفكرين بي. أشد على يدك، أضع رأسي على كتفك. أجل، أحسُّ بزخمك (...).

28 دجبر 1975

جوسلين،

بودي أن أكتب لك أكثر، ولكن ترين، أنه يتعذر عليّ حتى الحصول على ورق الرسائل. لكن دعينا من هذا، وهيا بنا نحو الكيف. لعلني بدوّث لك شاحب اللون، متعباً، يوم الجمعة الماضي. لم أعزّ انتباهاً لذلك. بالعكس، صباح ذلك اليوم كنت أشعر بنفسي في منتهى النشاط. كنت قد انتظرتك طويلاً، وكان البرد شديداً في زنزانتني وخصوصاً كنت في أحر الشوق إليك، كنت أشعر في داخلي بالعديد من الأشياء الحلوة الرقيقة، التي كنت أنوي قولها لك، لكن ما أن رأيتك حتى حلت بي رجفة ما، ثم لم أستطع البوح بكل هذه الأشياء أمام الرقباء. إن ما رأيته إذن وأولته على أنه تعب، ما هو إلا حالة من التوتر الحاد والاندفاع نحوك، نادراً ما عرفتها من قبل. أجل كنت محتاجاً إليك، بلا حدود. إن ما قلته لي في رسالة يوم الأحد 21 أعيشه أنا أيضاً في أقصى مداه خلال هذه المدة. لكن يوم الجمعة، كان شيئاً آخر. نوع من العشق الكلي، من الجذبة. كاد ذلك الإحساس يقلقني عندما رجعت إلى زنزانتني، لأنني طالما أنا في هذه الوضعية، أريد أن أبقى مسيطراً على مشاعري مهما كانت الظروف. طيب، لا ألوم نفسي على لحظة التيه تلك، إنه تيه مشروع وكم هو رائع!

حبيبتي، كيف أحدثك عن أيام الحبس هذه، تلك الدقائق المعدودة للفسحة التي تكاد لا تتسع لرؤية زرقة السماء، الشمس، هذا الصمت الكبير الذي يحيط بالمرء، هذا الذهاب والإياب وسط زنزانتتي الضيقة، هذه الأحلام اللامنطقية تُعبّر رأسي كنهر عات، كل هذه الأفكار التي تولد بفضلك والتي أوجهها لك؟

إنني أعيش تجربة جديدة في هذا المنفى تجعلني مجبراً على التنقيب بلا توقف في أعماقي، على مُساءلة ذاكرتي، على الامتداد بكل قواي نحو الحياة الحقيقية، الشموس الأخوية التي لن تنطفئ أبداً. لكن كفى، أنا أبالغ في الحديث عن نفسي. إنه انحراف عنيد للشاعر.

حبيبتي، جعلتني أعيش أحد أيام الأحد التي تقضيها أنت والأطفال. تخيلت نُزهتكم، ضحكاتكم، تناولكم للغداء في صخب، ألعابكم. هذه الأشياء الصغيرة تثيرني دائماً رغم أنها قد تبدو بدون قيمة. إن هذا يعيد لي صورة الحياة التي تستمر رغم البشاعات، صورة المسيرة التي لا تتوقف، صورة هذا التيار الذي لا يوقفه شيء والذي يسري فيكم، فيّ أنا. إن هذا يطمئنني على سلامتكم الصحية والمعنوية، على بسمتكم، على حضوري الطبيعي بينكم. وأريد أن أبقى دائماً رسول الفرح في حياتكم (...).

حبيبتي، سطران آخران للأطفال ولك. هل تقرئين رسائلي على ياسين وهند كما طلبت منك ذلك ذات يوم (على الأقل المقاطع التي يمكنهما استيعابها)؟ أجيبيني عن هذا. كل مرة تتلقين فيها رسالة مني، أريد أن تقول لي لهما كم أعزهما، كم هما حاضران في فؤادي وسهري. عندما أقول لك بأن تقبليهما عني، لا أقصد مجرد العبارة المتداولة، يجب أن تقبليهما كما لو كنت أنا الذي أقوم بذلك وتقول لي لهما ذلك. أشعر بنفسني قوياً وأنا أخاطبك. كنت في منتهى البهاء يوم الجمعة، ثم إنني أحب الآن كثيراً طريقتك في اللباس.

إليك يدي لكل ما تبقي من الطريق، في سبيل ملحمة تحولنا. أن أقول لك بأنني أحبك، فهذا قليل، لكنني أحبك.

6 يناير 1976

جوسلين،

لذة التحدث إليك. أنظر أولاً إلى صورتك. إنك لا تتسمين. أنت حالمة، تنظرين بعيداً، في اتجاه أقصى ملتقى الطرق حيث تتوحد. هذه الصورة التي تظهرين فيها على هيئة ساحرة، وعلى كتفك يظهر شريط حقيبتك اليدوية، هي أعز صورك عندي. إنها تعيد إلى ذاكرتي العديد من الأشياء عنك، لا حاجة لي بأن أعدها. يلزمي كتاب لأحيط بها. من قال إنني لن أكتبه في يوم من الأيام؟

لذة الوجود معك. ماذا تقرئين؟ هل شاهدت أفلاماً مهمة جديدة؟ هل استمعت إلى موسيقى جيدة هذا الأسبوع؟ وقيثارتك، هل تعزفين عليها أحياناً؟ والآن وأنت تقرئين لي، ما هي الصور التي تتبادر إلى ذهنك؟ تمنيت لو أحس بنبض قلبك. لعلك تقضمين أظافرك أو تداعبين خصلة من شعرك كما أصبحت عادتك، وفي عينيك النظرة نفسها التي أراها على صورتك.

لذة التحدث إليك. أسحب رشقات عميقة من سيجارتي. أكتشف أنها انقضت، أرميها. هدوء من حولي، أسعد بالكتابة إليك في واضحة النهار. بعد قليل سيحين موعد الربع ساعة المحددة للفسحة. سأرتدي معطفي، أضع علبة السجائر والمشعلة في جيبتي وأذهب لأذرع مثل حيوان متوحش الردهة التي خصصت لنا، لَلَمَحِ الشمس، لتلين الساقين، ثم أعود إلى هنا. سيأتونني بإناء الأكل ووسطه قطعة الكفتة. ذلك أني في حمية منذ حوالي شهر، مما يمكنني من الحصول على لحم وُحْضِرَ جيدي التحضير نسبياً، وبعدها مباشرة يصل الماء الساخن فأملاً التيرموس، ويغلق الباب إلى صباح الغد. الليل يبدأ من الساعة السادسة مساءً. إنني مقبل على الانتهاء من قراءة رواية «فاسيليكوس» وأهيم بأفكاري كالعادة، وقبل الساعة العاشرة سأنام. برنامج هائل، أليس كذلك! ورغم ذلك فإنني طَلَقْتُ الضجر نهائياً. لا يهدأ ذهني. أتساءل كيف لم يتسرب إليه الإرهاق مع مرور الزمن (...). حلُّوْ أن أتحدث إليك. أن أحدثك هكذا، يكاد يكون شبيهاً بفترات الصمت التي كانت تحدث بيننا، عندما كنا نجلس جنباً إلى جنب غير محتاجين للكلمات كي نعبر عن متعتنا بذلك الحضور وذلك الانسجام، ونتذوق السعادة نفسها. يكاد، قلت، بالطبع، لكن هذا كثير بالنسبة لما يعيشه آخرون باستمرار. لقد أشعلت سيجارة أخرى دون أن أنتبه. تمنيت لو قدمت لك واحدة، وأشعلتها لك، أجل، بمقهى الأوداية،

والشمس تهوي نحو المغيب، النوارس، لذة كأس شاي بالنعنع، وهيئة ذلك
النادل الطيب وهو جالس يتحدث. عودة، اسمك اللانهائي. هل أحسست بأني
كنتُ أخاطبك حقاً؟

20 يناير 1976

ابني العزيز ياسين،

تسلمت اليوم رسالتك وبطاقة تمنياتك، وقد أفرحني ذلك كثيراً، لأنك لم تكتب
إلي منذ مدة طويلة. لا بد أنك تعرف يا ياسين أنني أفترق إلى رسائلك كثيراً. أنا
في حاجة لأن أسمع، هكذا، صوتك، وأن أعرف فيم تفكر، وكيف تفكر فيّ أنا.
أن أقرأك أو أتحدث إليك، يزيدني قوة وشجاعة كي أحتمل السجن ولكي لا
تصيني التعاسة أبداً، وكي أحفظ دائماً بالابتسامة والغبطة، لأني أحبك يا بني.
أنت الآن كبرت ما فيه الكفاية كي تفهم معنى الحب، سواء كان الحب الذي
يحملة الأب لابنه، أو الابن لأبيه، أو الحب الذي يحمله رجل لامرأة (كحبنا أنا
وجوسلين). الحب شيء أساسي في الحياة، وهو يعني أن لدينا الأحاسيس
نفسها، وأنا نرغب في ذات الأشياء، وأن لدينا ذات الأهداف، وأنا نبذل جهداً
دائماً للتفاهم ولفهم بعضنا البعض، حتى يصحح كل واحد منا الآخر بلطف حين
يرتكب خطأً أو يشوبه اعوجاج. والحب يعني أننا لسنا أبداً وحيدين، لأن الذي
نحب هو دائماً بجانبنا، يشجعنا ويزيد من قوتنا. هل ترى أنه لحظ كبير أن نحب
بعضنا البعض في هذه الأسرة الصغيرة التي نكونها، والتي نريدها دائماً موحدة
قوية، مرحة ودؤوبة. إنه لكنز حقيقي هذا الذي نحمله فينا، والذي يجب أن
نعنتي به وأن نصونه كزهرة رائعة، وكلما كان حبنا عميقاً كلما استطعنا أن
نفهم الناس الآخرين، وكذا المجتمع والعالم الذي نعيش فيه. لأن الذي يحب
يصبح شديد الكرم، ويعمل على أن يصبح الناس كلهم سعداء.

ياسين، لقد شعرت بألم عميق للحادثة التي وقعت لك، أتمنى أن تكون ذراعك
قد شفيت. في يوم الجمعة المقبل، أمل أن أراك في صحة جيدة.

قرأت هنا كتاباً رائعاً، وأرغب كثيراً في أن تقرأه حتى ولو كان طويلاً شيئاً ما:
وهو معنون بـ «القصيدة التربوية» سأحاول أن أخرجك كي تتمكن من قراءته.
سوف تجد بعض مقاطعه معقدة إلى حدٍّ ما ولكن أكثر أجزاءه بسيط وستفهمه
بدون صعوبة.

لقد أحببت رسومك، حتى ولو كانت حزينة قليلاً. فهي رسوم شاعر حقيقي.
بالمناسبة، هل مازلت تكتب من حين لآخر؟ صارحني بذلك، لا يسعني إلا أن

أشجعك على الكتابة كما كنت تفعل قبل عامين أو ثلاثة.

ياسين، سأكون سعيداً إذا ما قرأت لك ولو رسالة واحدة كل أسبوع، هل يمكنك أن تمنحني نصف ساعة صغيرة من وقتك؟ سأعتمد عليك في ذلك. وبالمناسبة هل تقرأ لكم جوسلين الرسائل التي أكتب لها؟

لقد طلبت منها ذلك مراراً، ولكنها لم تجبني في ذلك. إليك يا بني... كل حناني.

8 فبراير 1976

عزيزتي إيليت،

رسائلك المفعمة بالرقّة، ذات اللهجة العنيفة في أغلب الأحيان تُؤلِّد فيّ دائماً حاجة متزايدة لمعرفةك. حقّاً، مناقشاتنا القصيرة المتقطعة وإن كانت تكشف العديد من التناقضات والرؤى المختلفة (وهذا أمر طبيعي باعتبار اختلاف ظروف العيش ومهام كل واحد) فإنها تتيح التقدير المتبادل. لكن تجربتي الخاصة أقنعتني بأن الحوار مثله مثل القصيدة، رحلة معقدة تجند كل الطاقات، القدرة على الإنصات، على الحلم، بل وعلى الاستسلام للآخر. ذلك أن الأمر يتعلق باقتسام أقوى ما فينا، يتعلق الأمر «بقرايين وجدانية» حسب العنوان الجميل لـ «طاغور»⁽³²⁾. أن يتمكن المرء من التعبير عن ذاته، ويتيح للآخر فرصة التعبير عن ذاته أيضاً مثل احتياجه للنور، أن يستطيع المرء إلغاء الفرقة واسترجاع صوته الأصيل، حينئذ يكون للكلمة دويها العميق عند الآخر ويتحول الإنصات إلى استنفار داخلي. لعلي متطرف بخصوص هذا الموضوع وأعترف أنني صَدَمْتُ، بعنفي هذا، العديد من أولئك الذين لا يحتملون أن تنتهك عوائدهم وطمأنينة بالهم. أنا حزين؟ لا، أبداً. ما يحدث هو فقط أن المرء في أقصى درجات الحنان أو الرفض، في أقصى درجات الشعور بالمأساة، يرى أحسن ما سوف يكون، ذاك الذي ينزف الآن، يهيج المرء من فرط آماله، تهزه عواصف الاجتثاث فتخاله يجهش من فرط الحنان. ما هذا؟ لحظة، لحظات يقتسم فيها المرء إلى أقصى حدود طاقاته. أتفهمين؟ (...).

18 فبراير 1976

جوسلين،

(...) الموسيقى، أجل، أفتقر إليها كثيراً. في الواقع، منذ السجن، أصبحت أدرك أهميتها أكثر، أشعر بما يمكنها وحدها أن تعبر عنه في الإنسان: قاراته الداخلية، تحولات حساسيته. إنها تحقق هذه المفارقة، الظاهرية فقط، أن تكون مجردة إلى أقصى حدٍّ، وأن تكون في ذات الوقت واقعية بشكل كبير، كوسيلة تعبير إبداعية وإنسانية. في الواقع لم أكن في الماضي لا مبالياً بالموسيقى إلى ذلك الحد. كنت دائماً أعشقها كثيراً. لكنني كنت متعصباً إلى حد ما، ولم أكن أتذوق إلا ما كان يثيرني تلقائياً وعلى الفور. كانت المسألة مسألة قابلية ثقافية. في فترة ما، كان رفضي باتاً، وعنيفاً، وكان هذا مشروعاً في مرحلة من استرجاع الهوية الثقافية ورفض «الاستلابات». فخلال هذه المرحلة الأولى من صيرورة تشكل الوعي، لا يستطيع المرء تلمس الجزئيات. وهذا ما يفسر قلة تحملي وتفتحي على الموسيقى «الكبيرة»، وبصفة عامة الموسيقى غير العربية (مع بعض الاستثناءات: الموسيقى الروسية، إذا كنت تذكرين، بعض مقاطع الجاز، معزوفات على القيثارة). أجل سيكون عجيباً أن أعيد اكتشاف الموسيقى معك. كل الألحان الجميلة. في هذا الصدد، هل تعزفين دائماً على القيثارة؟ إنك لم تعودتي تتكلمين لي عن هذا. أما أنا فكثيراً ما أغني، بمفردي، فيروز، أوبريت قيس وليلي، الأغاني الفرنسية القديمة التي كنت تغنيها لي. تضعيني الكلمات باستمرار وتتقلص محفوظاتي بشكل كبير. لكن بعدما أغني، أشعر بالانشراح كما لو أنني تطهرت داخلياً (...).

29 فبراير 1976

عزيزتي نيكول، (33)

(...) أرتفع كي ألتحق بقصيدتك المؤرخة بـ 21 فبراير. لا أجد لفظاً آخر أعبر به عما كتبته لي. فما القصيدة، إن لم تكن تلك المساحة – الإيقاع العضوية حيث يتجمع المرء في حركاته، متغيراته، رؤاه لينطلق نحو الآخرين في قربان حار، مفتوح اليدين على اللقيا، واعداء بالإخاء المتشدد. إن هذا هو فعل الحضور الشعري. سبق لي أن قلت لك ذلك مرة أو مرتين، كم أتمنى لو تكتبين بذات الوضوح وتكشفين هكذا عن حقيقة ذاتك. لماذا تختلف قصائدك المنشورة إلى هذا الحد؟ ما سبب تلك الكثافة في العبور نحو الآخرين؟ إن ما يهز مشاعري منك هو ذلك الدفق الوجداني الذي تقوين عليه وتصدرينه بكل تلك العفوية. أظن أنه لا يجب أن تثقله، أو تحجبه في قصائدك (...). فالكتابة ليست باستمرار وبالضرورة فض حساب مع الذات، وليست عملية طرد للأرواح الشريرة. الهواء الطلق وشمس الحوار، التواصل هما اللذان يتحان، ليس فقط المؤاخاة لكن أيضاً تقييم الذات (...). صديقتي، لقد انبثق الربيع دفعة

واحدة ها هنا. خرجتُ صباح اليوم إلى الشمس ولم أكن أصدق عيني. كانت السماء شاسعة. لم أكن أتففس، بل الهواء المفعم بالرقّة هو الذي كان يسري داخلي. نبت العشب في الساحة التي أتفسح فيها. فكرت في أنني قضيت حتى الآن أربع سنوات في قلعة المنفى هذه، أربع سنوات لم أفقد فيها أي شيء مما يملؤني بإبائي كإنسان. مشيت خلالها بدون توقف كي لا تكون يدي أبداً خالية من العطاء، كي يصبح الأمل ملكةً طبيعية. ألغيت العديد من الصحاري في داخلي، قوضت العديد من الأسوار. أنا مغمور بكل تجليات الحنان التي تعطي معنى للحياة، ورحلة المكابدة والصحو هذه لا تزال في بدايتها.

16 مارس 1976

حبيتي،

(...) تليذت بقراءة كتاب «لوتورنو» عن مدينة فاس في سنة 1900. أُرَجَع لي، بعمق، أجزاء كاملة من طفولتي وفترة مراهقتي. يا لها من دقة ويا له من صبر في الملاحظة والفهم! إن ما أثار انتباهي واستطاع المؤلف أن يعبر عنه، هو مدى اندماج أوسع جماهير أهل فاس (تجار صغار، حرفيون...) في الإيديولوجية السائدة، إيديولوجية الأرستقراطية المثقفة والبرجوازية التجارية الكبيرة، وإلى أي حد يُقَبِّع التوازن الناتج عن هذا الاندماج المغالطات وتعارض المصالح. قبل دخول المدينة في مسلسل التبلتر كان التقليدي هو السائد، وكان كل جديد يجهض. أوكد على ذلك لأن هذه الملاحظات تساعدني في فهم ما قبل تاريخي، تلك المحاولات المرهقة التي كنت أتخطب فيها إلى مرحلة متأخرة من مراهقتي. هل قرأت أنت هذا الكتاب؟

حبيتي، بعد مطالبات متكررة، تمكنت أخيراً من الحصول على مصباح قوي، مما جعل زنرانتني الآن مضاءة بشكل جيد، تمكنتني من القراءة والكتابة دون إرهاق بصري. في الآونة الأخيرة، أصبح نومي مضطرباً، لا أعرف ما السبب. من حين لآخر أتناول مسكناً. اطمئني، إنني شديد الحرص من هذا الجانب. تعرفين أنني أتحفظ دائماً في تناول الأدوية ولا أستطيع المبالغة في ذلك (...).

23 مارس 1976

حبيتي،

تلقيت كلمتك القصيرة المؤرخة بـ 18 مارس، وكذا رسالة ورسم هند. حقاً إن هذه الرسالة مثيرة. لقد فاجأتني هند، كلها رقة الطفولة، قوتها، وهشاشتها في الوقت نفسه. كيف لا يلين القلب تجاهها؟ قبضت علي متلبساً، أليس كذلك؟ إنها تلك الرسالة هي التي حركت أعماقي بعنف. لكن كم أصبحت رسومها رديئة. تلاحظين كم يمكن للمدرسة أن تكون مُعقِّمة، وكم من مواهب وفضائل تنطفئ أو تفسد فيها. ذلك لأنني أعتقد أن السبب لا يعود للسن فقط، يمكن للإنسان أن يحفظ وينمي طاقاته الإبداعية والتلقائية مهما كان سنه. يكفي أن يكون المجتمع متقبلاً لذلك، أن ينتظم بهدف الخلق. كارثة ومأساة، عهد البشرية البائد هذا! أمس، رأيت أبي. كان في منتهى النشاط وأدخل البهجة علي. كأنه استعاد شبابه. إنه أكثر ثقة بنفسه، أكثر انفتاحاً ويملك رؤياً جد واضحة عن نقط الضعف والحقارات لدى الناس. فاتحته في مشروع مصاحبة هند معه إلى فاس. أتمنى أن كل شيء قد تم بخير (...).

تعرفين اليوم، حلقت شعري ولحيتي، أنقصتُ منهما كثيراً. أولاً لأنني اشتجيت ذلك ثم لأنني أردت أن «أعطي المثال» لياسين. أنتظر بتهيب رد فعلك. يا لك من مستبدة على هذا الصعيد! اعتبري ما أقدمت عليه كعملية لـ «إثبات الذات».

شمس ساطعة هذا الزوال، وأنا أنظر إلى العشب في ساحة الفسحة. فكرت فجأة في أمي، وشعرت بأن إحدى رغباتي عند خروجي من هنا، هي زيارة قبرها. لم تكن فكرة سوداوية، لا بالعكس، كانت نوعاً من النداء المؤثر نحو عالم جذوري الذي أصبحت أمي، لأسباب مختلفة، رمزاً له. كان اسمها يترددُ في رأسي، وأحسست بالسعادة لهذه اللقيا. آه ما أجمل اسم تلك المرأة! حبيبتني، ها هم أغلقوا الأبواب، وبدأت السهرة منذ الآن. سأحضر بسرعة بعض الأكل، ثم إلى الفراش مباشرة، كأس شاي أسود وكتاب. سأودع السنة الرابعة من فراقنا. لا أعلق، أقبّل يديك وأحبك للماضي والمستقبل.

29 مارس 1976

زوجتي الحبيبة،

ها هي العزلة لم تعد إلا ذكرى⁽³⁴⁾. أسرع نحو الشمس لأتدارك كل ما ضاع مني خلال الشهور الأربعة الأخيرة. سرعان ما تغير لون جلدي. كنت أشعر وكأنني أشرب الهواء، أتيمم بالضوء، ألتهم الحرارة. أعيد اكتشاف رثتي، جلدي. أمشي كثيراً، إلى حد الإرهاق. أضحك، أرددش. انبعث بمعنى الكلمة. رأيتني سعيدياً ومنتشياً. إنني لا أزال على تلك الحال. اقترن وصولنا إلى هنا مباشرة

بأشغالٍ في حِيننا. أَعِيدُ طلاءَ الزنازنة، جدراناً وأبواباً ونوافذ، كل شيءٍ أصبح
لامعاً، وضاءً، جديداً. كأني أقوم بإشهار لقرية سياحية!

أنفر من الكتب في الوقت الراهن. ليست لي أية رغبة في القراءة باستثناء
بعض الأشعار. صادفت قصيدة جميلة ترجمتها لك... ها هي:

«نمْتُ

لكني قبلَ انتصافِ الليلِ

أفقتُ

لأن قيظَ الهوى

اشتد في قلبي،

قضَّ مضجعي

لا أنام.

أيا عصا الترحالِ

عَوَّدني هوى الحبيبِ

مفاتيح الترحالِ.

أناشدُكم يا صحابِ

إن وافاني المماتِ

ادفنوني والحبيبِ

حتى إذا صرنا رفاتاً

نادوا، هَيَّا أَقْبِلْ يا عذابِ.

قسماً إن مُتُّ

ولم يعد لي حبيبي

لَأَكْسِرَنَّ نَعْشِي

لَأَمْرَقَنَّ كَفْنِي

كيما أراه حبيبي» (...).

5 ماي 1976

جوسلين،

تلقيت رسالتك المؤرختين بـ 29 و30 أبريل. رسالتك الحارة، الساحرة ليوم الجمعة. أحبُّ كثيراً أن تكتبي هكذا، أن تتكلمي هكذا. رومنتيكية أو لا، أشعر بك حاضرة أكثر في خضم العالم، في الحب الذي تعبرين عنه، وفي حرارة الوجود هذه... قبل أيام كتبت لصديقة لي ما يلي: «أُنُّ أحياء، معناه قدرتي الدائمة على التأثير». لا أجد عبارة أصح لأصف ما تَمَدُّني به رسالتك، والشهادة التي تعطيها عن حياتك. من الغريب أنني في هذه الأيام، قليل الحلم والحساسية. عندما ينزل المطر ها هنا، تفقد الفسحة معناها. لا أثر لرائحة التربة المبللة. الطيور تنكمش في أعشاشها، مما يضطرني للبقاء في الفراش أقرأ أو أشرك في الدردشة الجماعية. لكن الجو يتحسن والطيور تغرد من جديد، كما تعود إمكانية الاسترخاء تحت أشعة الشمس. مساء أمس، فوجئنا بزيارة غير منتظرة. دخل إلى زنانتنا بوم. ألقى علينا نظرة استغراب وانصرف فوراً. وبما أنني غير شؤوم، فإني سررت بهذه الزيارة. لا أعتقد أنني رأيت أبداً هذا الطائر وأنا طليق.

قبل هذا الحدث، الذي أثار هنا الكثير من التعليق والسخرية، دخل إلى زنانتنا، ليلاً دائماً، عصفور كاد يكسر المصباح. هذا عن يوميات الرحلة.

أما عن قراءاتي، روايتان، إحداهما لـ جاك لندن و«ناقص اللانهاية» لـ أ. فيلبس، الروائي والشاعر الهايتي. وقد أعجبتني كثيراً هذه الرواية الأخيرة لأنها تتناول واقعاً قريباً جداً من واقعنا وهي مكتوبة بأسلوب شاعري، مشوق.. أَلحُّ عليك لقراءتها. أما كتاب ج. لندن، فإنه رواية بوليسية جيدة من حيث حيكاتها الأخاذة، وإن كانت مراميها الإيديولوجية تتجاوز إطار هذا النوع من الكتابة. لكن يمكن للمرء أن يستغني عن قراءتها، خصوصاً وأن نصف الكتاب لم يحرر إلا بعد وفاة الكاتب بنصف قرن من طرف شخص آخر انطلاقاً من بعض مذكرات لندن. شيء غريب! (...).

لم يبقَ إلا يومان كي نلتقي، وسيكون الأطفال معنا، وابتسامتك. إليك زوجتي الحبيبة، يدي مفتوحة.

14 ماي 1976

حبيبتي،

(...) قبل قليل أبديت ملاحظة أثارت لدي بعض التساؤلات. كنت قد قلتُ لك بأنك تمثلين بالنسبة لي خزاناً أستلهم منه الشجاعة. فكان جوابك أن ما يُبرِّز شعوري هذا هو أنك الشخص الوحيد الذي أراه. تعرفين أنني كثيراً ما أرتبك في نقاش شفوي مباشر. لا تحضرني دائماً الأجوبة التي تُعبرُ حقاً عن فكري كاملة.

ويعود السبب في هذا إلى عاملين:

الظروف التي تمرُّ فيها الزيارة وشتات الأفكار الناتج عنها من جهة، ومن جهة أخرى نوع من «الخجل» الراجح لأنني لا أتكلم كثيراً في الحياة اليومية. أنا لا أعبر عن آرائي حقاً إلا عندما أكتب، لأنني حينئذ أتوافر على الوقت الكافي لاستجلاء ردود فعلي العميقة، والإحاطة بكل أبعاد المشاكل المطروحة. إذن أعود إلى ما تبادلناه من أفكار خلال زيارتك. أجد جوابك لاذعاً بعض الشيء. إنه يحمل في طياته نوعاً من خيبة الظن، ذلك ما تعنيه موضوعياً هو أنك تعتقدين من جديد أنني أبالغ في تقدير ما تمثلي به بالنسبة إلي. جدل كنت أظن أنه انتهى وتجاوزناه. تعرفين مدى مقاومتي لكل الأوهام وكل المغالطات التي يمكن أن تفرضها علي ظروف الاعتقال. لو لم أكن واعياً بها لكانت حياتي غير ما هي عليه، ولكانت ردود فعلي مُخالفة تماماً. لو كان الأمر كذلك لكان وقعه خطيراً على ملكاتي الأساسية. اطمئني، إن يقظتي لا تنحصر في رد الفعل التلقائي، الآني. إنها ثمرة موقف شمولي يتحكم في ممارستي وتفكيري، كما في رؤيتي، إلى علاقاتي بك حاضراً ومستقبلاً، هذه العلاقات التي تمثل بالنسبة إلي دليلاً أتبين من خلاله العلاقات الأكثر عمومية.

إن الخطر المحدق بتممين طبيعة وأسس هذه العلاقات هو المتمثل في عزلها وتناولها خارج كل سياق، وبالتالي الحط من شأنها وإدراجها في إطار العلاقات المبتذلة. وأنت تعلمين جيداً كيف أننا نحن الإثنين نتموضع في سيرورة من التحولات التي سبق لها أن قطعت عدداً من الوثبات النوعية. لذا علينا أن نحترس كثيراً من ردود الفعل التي قد تبدو بريئة كي نتحاشى خطر استعادة مواقف قديمة وتخوفات محوناها من قلبنا وصحونا. إذا كنت تؤكد على هذه

الملاحظة فلأن تصريحِي قبل قليل كان تعبيراً عن جوهر ما أشعر به تجاهك في الفترة الأخيرة. لم تكن إشارة عابرة، لكنها صرخة تُعبّر بصدق عن حساسيتي (...).

17 ماي 1976

عزيزي جسلان،

وصلت رسالتك وأحوالي سيئة بعض الشيء. مشاكل صحية طفيفة وخصوصاً «سخطي على عتمة ما يعجز اللسان عن وصفه»، غضب لا يمكن رده، خثارة ضخمة في حلقي. كيف السبيل إلى كبح كل هذا الحب وهذا الحقد؟ كأنني أجلّد في عروقي، في جبهتي الشمسية: كأنني منفي خارج صوتي. ثم أترك نفسي تسيل على صفحة السماء، محيط السجين هذا، فتنفجر من صدري الأنهار، نافورة من دمي الأسود، سلام محموم، حنان لا يطاق. عشقي. أن أعشق يُعنف اختراق الرصاصة الجسد. عيون الحبيبة التي تحدثني عن قارتنا، يدها منشورة على السياج، وفي ذات الحين، شعبنا، وعود مسيرته، هذه الغابة الهوجاء التي لم أشعر أنني غائب عنها أبداً. أتري، إنني أعبر بك صحاري، أقدم لك كئيباني الوعرة وواحاتي. أحياناً أكون إنساناً – صرخة بدون أي لغة أخرى، لكن بالنسبة إليك، لرفيقتك، ولكل الرجال الحقيقيين، إنني – وسأكون دائماً – مواطن الأمل.

كم أفرحتني رسالتك. لست أدري إن كان هذا مجرد إحساس لكنني أعتقد أن الحواجز ارتفعت نهائياً من قناة حوارنا. أتمثل أكثر رحلتك، أفاقك، التناقضات التي تواجهها وتحاول حلها. صدقني، إن همي الأساسي هو اجتناب تجميد أي كان الحكم عليه، تصنيفه، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بك. سيكون ذلك عدواناً سافراً، محاولة اغتيال الحياة. إذا كنت أتحدث إليك، أكاتبك، أناقضك، أو أوافقك فذلك لأن عهد الشعر بيننا. وأنت تعرف ما تمثله بالنسبة إلي شجرة الشعر. وما الكتابة إلا برعم منها. فهناك أيضاً كلما يحملها الشعر ويفتح أزهاره، ويفعمه نسغاً وإلقاحاً، ما يمدده بعيداً، بعيداً في كفاحات البشر (...).

24 ماي 1976

عزيزتي نيكول،

رسالتان منك (30 أبريل و6 ماي) لا تقلان توهجاً عن سابقتيهما، مفعمة بذات الغنائية – النفس – النبض: صوتك العميق. كم هو عجيب أن يتكلم المرء هكذا من الداخل على غرار ما تفعلين، إيقاع تنفسك الزلزالي الذي يلوي أعناق الكلمات ويجعلها تنتصب في أبهى حُلِّها. هكذا يصبح الشعر احتفاءً بالحياة.

لقد أخبرني جسلان عن مناقشتكم في موضوع الكتابة، وأعرف أن هناك العديد من المواقف، وزوايا النظر والإحساس، والعديد من الصيغ داخل الموقف نفسه. مع الأسف لا يمكنني أن أشارك في مناقشاتكم بشكل كامل. إن مجال الكتابة الذي أتوافر عليه جد ضيق. ثم علي الخصوص، أتحاشى الأحكام المستعجلة، النهائية. لا يمكنني أن أساهم إلا بشهادة عن تجربتي الخاصة، وحتى في هذا أعتبر شهادتي نسبية لأن النص عندما يكون جاهزاً يصبح ملك العموم. ولن تكون قراءتي له إلا واحدة من بين العديد من القراءات الأخرى. لا أدعو هنا إلى نوع من النسبية المطلقة. فقط أؤكد على ضرورة الاحتراس من الاندفاعات السطحية، من غيتو النزعة الذاتية. إن الأفكار الصحيحة لا تتساقط من السماء ولا يهمسها إلينا صوت لا عقلاني بمجرد ما يتكون لدينا الوعي. إنها ثمرة ممارستنا، والصراعات المتعددة الأبعاد التي نخوضها ضد التحجر والموت داخلنا ومن حولنا، كما أنها ثمرة هذه المواجهة الأليمة والدائمة التي نخوضها مع ذواتنا، ومع كل ينابيع الحياة والحقيقة. فالمشكل لا ينحصر إذن في الخيار العقيم بين العفوية أو الصنعة المتكلفة، بين السيلان الخام أو وشي الصائغ، الغريزة أو العقل، الحساسة أو الذكاء. كل هذه الخيارات تعتمية لأنها تحاول فصل ما لا ينفصل، فصم ما هو متلاحم جدلياً. إنها سلسلة من التشويهات. عندما أقرأ النص لا أجهل الحالة (طبيعية كانت أم لا) التي تمّت فيها كتابته. ما يهمني هو مدى كونه يعنيني، يثيرني، يمددني في كل واحد. من جهة أخرى من البديهي أن المرء عندما يكتب فإنه لا يتوجه لا إلى قارئ نموذجي ولا إلى نظائره وحدهم. فالكتابة عطاء في حدّ ذاتها. والذي يهمني أكثر من أي شيء آخر هو أن توصلني بكل الرجال الحقيقيين، كل المعذبين وكل المهانين. هؤلاء وحدهم يهمونني، وأعتبر أن ليس لي الحق في التبرؤ منهم إذا كان ما أقوله لا يبلغ بوتقة الأخوة هذه. كم أكره استعلاء الكتاب «غير المفهومين». أغلبهم مصابون بورم النخبوية، وهذا الورم من شأنه أن يؤدي إلى الفاشية الفكرية. أن يقرّر المرء درجة وحاصل ذكاء قرائه، هذا شيء فظيع. نيكول، إن أكبر عطائنا هو الذي يتمثل في الطريقة التي ننظر بها، نحبّ ونكره بها، نسبح بها ووسط نهر الحياة. تلك التي تجعلنا نتبنى مصير كل المُسيّجين، أشقاؤنا.

أضطر إلى الإيجاز. أردت فقط أن أقاسمك التفكير، أن أقول لك إلى أي حدّ تهمني القضايا التي تثيرينها. حوارنا هنا لإذابة كل الغيلة، كي تستعيد

الشمس مكانتها الحقّة. أخالني أسمع خريّر ذلك الشلال الذي تتحدثين عنه في رسالتك، وأتخيّل زخمك، كينونة وإرادة.

شمس أخوية، لك.

27 ماي 1976

حبيبتي،

توصلت هذا الزوال برسالتك المؤرخة بـ 24. أوافقك في موضوع إعادة التوازن الذي سيطرأ على علاقاتنا في المستقبل. لم أفهم فكرتك فوراً. لكن إعادة التوازن هذه لا تعني الكيف. أراها أكثر بمثابة تكيف جدلي مع الحياة الاجتماعية، تعقيدات العلاقات التي تحتويها، المهام التي تقتضيها. وعلى كل فإن هذا الأمر يهمني بقدر ما يهّمك أنت. سيكون عطاؤنا وبذلنا متعددي الأشكال والاتجاهات. ما هو أكيد هو أننا سنتحاب أكثر، أي أحسن لأن علاقاتنا ستكون أكثر إنسانية لكونها أكثر تجذراً في الممارسة الحيّة، الخلاقة. وعلى العكس ستتخلص علاقاتنا من هذا الجانب المأساوي الذي تصبغه عليها الفرقة وكل الحرمانات المفروضة. سنريح إذن الموضوعية دون أن تتحول مواقع كل منا عن المركز الذي تحتله.

حبيبتي. صديقتي الحلوة، وأنا أتحدث إليك هكذا، يدهمني جمال المستقبل. أتتصورين كيف سيكون؟ كلانا، ليل نهار، استيقاظنا، أعياد الوفاق هذه، ملؤها الدعابة والافتتان، نجوم ضحكاتنا المتألقة، تطابق عفويتنا، الأفق تملؤه مشاريعنا، إنجازاتنا اليومية. هذا الصباح ذاته، لم أغادر الفراش إلا بصعوبة لأن بهاء هذه الاستيقاظات كان يغمرنني. كنت أردد في وحدتي العبارات التي أجذبك بها من نومك وأدعوك لاستقبال الشمس، نصيب الحنان اليومي. أتذكرين؟ أجل، إنك تذكرين. قصيدتنا الدائمة. لتعيش طويلاً وتخصب مسيرتنا إلى ما لا نهاية. لا تبالغي في الإطراء عليّ بصدد أول كتاب أقرؤه باللغة الإسبانية. ذلك أنه قصير أولاً: 100 صفحة. ثم إن أسلوبه ليس أدبياً محضاً. لكن على كل حال، لم يفتني الافتخار بهذا الإنجاز البسيط. أتيت الآن على نهاية كتاب الإسبانية بدون عناء. أقوم بمراجعة عامة قبل البدء في ممارسة الإسبانية الذي يبدو لي صعباً: مقتطفات لا بأس بها من الأعمال الأدبية، ومن بينها مقتطفات من «سيرفانتيس». لست أدري حتى الآن ما هي اللغة التي سأتعلمها فيما بعد. أنوي تحسين إنجليزيتي ثم أو في الوقت نفسه، من الممكن أن أبدأ في البرتغالية (تغريني الإيطالية والألمانية ولكني أميل أكثر إلى البرتغالية). أغازني سؤالك عن جوريس أيفنس⁽³⁵⁾. أكيد أنني أعرفه. أما

عن فيلمه كيف حوّل يوكونج الجبال، فقد قرأت عنه العديد من الدراسات في مجلة سينمائية تصلنا ها هنا (سينما 76). في الواقع، يتعلق الأمر بالعديد من الأفلام التي تتناول نفس الموضوع. إنه عمل ضخم، لأن السينمائيين والفنيين المحليين والشعب نفسه، كلهم شاركوا في إنجازه من بدايته إلى نهايته. أنا جدُّ مسرور بقراءة هذه المجلات (سينما 76، الشاشة، دفاتر السينما). أطلع بجدِّ على ما يجري في هذا الميدان، فالمقالات الأساسية متقدمة جداً، خصوصاً تلك التي تتناول السينما الأفريقية والعربية (الفلسطينية والتي تتمحور حول فلسطين بصفة خاصة). إن العيب الوحيد لهذه المجلات هو غلاء ثمنها (10 دراهم فما فوق).

حبيبتى، هذه الرسالة قبل أن أراك غداً. آخذ يدك، نعم. كم أنا مسرور بالحديث إليك هذا المساء. لك، وكلّي أمل.

2 يونيو 1976

جوسلين، حبيبتى،

أجيب بدون تأخر على رسالتك المؤرخة بـ 30. في الواقع لا يفي لفظ «الجواب» بالغرض. فإني في حاجة إلى الحديث إليك بعد أن قرأت هذه الرسالة. أن أحدثك بدون جدول أعمال، دون مبرر، دون أي شيء مسبق. أن أكون معك وجهاً لوجه أو بجانبك، أن أفجر الكلمات – اللمسات، الكلمات المحملة بالقرايين، أن احتفي بكل ما يهمننا، قارات إنسانية، غابات سائرة، شجرة حناننا، أن أنصت معك إلى الصمت حيث تنبت كلماتنا فوراً، حيث تتجذر رؤانا، أن أكتب مثل ديبب النسغ في كل منا عندما تستحيل مقاومة الرغبة في الاستسلام للآخر، والالتحاق به في أوج زخمه، في توسيعه إلى أقصى تخومه، أن أكتب مثل عملية زرع عندما تتجاوز الأرض والشمس ذاتهما كعناصر لتتفتق وتتوحد في أوج الحياة الخصبة. أن أكتب مثل انبعاث للجسد والفظنة. ألا أتكلم عن منفاي وأسيجته، كُتبه وشمسه المقفلة، طيوره الخيالية ولياليه السجينة. سأخلص من عَيْبِي المؤلم. سأبسط أخيراً يدي كي أحرّر كل النجوم المغتالة، أنهار الالتقاء. ألا أتحدث عن الدم، عن نير الإجهاضات. سأقول الأمل السعيد. سأحرص على بهاء فجرنا. معك، حبيبتى، هكذا. جنباً لجنب.

اهتزت مشاعري لما يبديه الأطفال من عناية بك. لعلك سعيدة لاكتشاف هذا الحب يوماً بيوم. إن لحظات كهذه تعوّض عن العديد من المجهودات والمعاناة. يشعر المرء هكذا بأنه ساهم في تفتق حساسيات جديدة. أثق في أطفالنا. لقد

استطاعوا الوقوف في وجه المحنة، وستكون هذه التجربة مصدر قوة كبيرة بالنسبة لهم في المستقبل، رغم جوانبها السلبية (...).

4 يونيو 1976

زوجتي الحبيبة،

أكتب لك مباشرة كي تقرئي شيئاً مني خلال الأسبوع. أبدأً لن تستطيعي اتهامني بأنني غير منتظم (آخر رسائلني مؤرخة بـ 27 و30 ماي ثم 2 يونيو). ماذا تريدان أكثر؟ أن تهجمي لتدافعي عن نفسك: أسلوب قديم لن ينجح معي. لو كان الأمر رهيناً بي وحدي لكتبت لك يومياً. لكنك تعرفين أن الورق شيء نادر ها هنا، كما يجب علي أن أجيب على مراسلات الأصدقاء. ألم تقولي أنت مؤخراً أنه لا ينبغي لي اعتبارك كل شيء في حياتي؟ أحاول قدر المستطاع الاستجابة لنصائحك. على أي حال لن تعقديني في هذا الشأن. يمكن لي في يوم ما مقارنة نفسي بجولييت دروي، رفيقة فيكتور هيجو (في حالة جهلك بهذا، فإنها كتبت حوالي 11000 رسالة لصاحب «البؤساء» وهو في المنفى). لا علينا، لنعد إلى اليوم. يا لها من زيارة خرقاء! إنهم يضعوننا في ظروف تخيم عليها المغالاة، كل شيء مكبر مهيج: الصوت، الحركات وحتى العواطف. أن يضطر المرء إلى التخاطب بالإشارات والحركات الميمية، أن يقول ما يمكن التعبير عنه بشكل آخر في هدوء، في طمأنينة الحضور بلا قيود، يا لها من فرجة عند رؤيتها من الخارج! دعيني أضحك من نفسي بعض الشيء: حركات، قفزات، أرسل القبلات، أرفع قبضتي في جنون... إلخ لكن لا علينا. فطريقة التواصل هذه ليست أقل أصالة من غيرها، إنها صورة وفية لوضعيتنا.

صدقت. فُدس تعرف جيداً أنها جميلة وكل الباقي، لا بد من الاحتراس. أتأمل صورها وأكتشف إلى أي حد هي تميل إلى التأنق (...).

حبيبتني الرقيقة، هذا المساء أشعر بنفسي مستعداً لضحكات عاتية، لجنون اللعب، لكل ما تحبين. أتخيلك سعيدة، مرتاحة، مليئة بالعشق. إليك إذن، ملء أكفي شعراً.

6 يونيو 1976

هند، ابنتي العزيزة جداً،

أكتب إليك الآن، كما وعدتك بذلك، ليس فقط للإجابة عن رسالتك القديمة، ولكن هكذا، لكي أترثر معك قليلاً وأشاكسك، وأبتسم لك، ولأشعرك من خلال كتابتي وكأنني ألامس رأسك. إذن لأشاكسك أولاً: لم يبق لي أن أناديك بـ «سمكتي الصغيرة». لقد كبرت الآن وسمنت شيئاً ما. أريد أن أقول كذلك أنك قد ازددت جمالاً وعذوبة. ولكن لن ألح كثيراً، حتى لا تتحولي إلى مُحبة للتأنق والتزين المبالغ فيه. إنك تعلمين ما موقفنا – أنا وجوسلين – مما يسمى بالجمال. سواء كان ذلك بالنسبة للبنات أو الولد، ليس الأهم هو أن تكون العيون جميلة أو الأيدي ناعمة... إلخ نعم إن ذلك شيء لطيف، ولكنه ثانوي. الأهم هو ما نقوم به، والطريقة التي نتصرف بها مع الآخرين، والجهود التي يبذلها كل واحد منا لكي يفهم ما يجري في الحياة، ولكي يصحح ذاته في اتجاه نقاء وعدالة أكبر. ما أقوله لك هنا يمكن أن يبدو لك معقداً بعض الشيء. ناقشيه إذن مع جوسلين.

ماذا عني؟ إذا كنت لا تعرفين ذلك، فأقول لك إنه منذ جئت إلى هنا، تعلمت أشياء كثيرة لم أكن أعرفها، ولم أكن ببساطة أقوم بها من قبل. تعلمت التصيبين والطبخ وكافة الأعمال المنزلية الأخرى. كما تعلمت بعض الألعاب الترفيهية. حين سنعود من جديد لبعض، سنتقاسم العمل في المنزل وسنلعب كثيراً كشياطين. وأنت، ماذا فعلت في الأيام الأخيرة؟ إذ أنك لا تتكلمين كثيراً حين تأتين لزيارتي. تكتفين بالابتسام لي وبإلقاء نظراتك العذبة، حتى أنني أتساءل هل أصبحت تتكلمين أقل من ذي قبل أم ماذا؟ لأنني أعرف أنك، عادة، تثرثرين كآلة تسجيل صغيرة، أليس كذلك؟

بعد امتحاناتك، سوف أنتظرُ منك الكثير من الرسائل والرسوم، وسوف تحكين لي عن كل ما تشائين. إلى ذلك الحين، أتمنى لك التوفيق.

8 يونيو 1976

حبيبتى،

(...) لا شيء أحكيه لك عن حياتي السجنية. رتيبة هي في الفترة الأخيرة. بل هناك جديد: منذ أيام وأنا أشاهد في الساحة معارك حقيقية وطاحنة بين العصافير والخطاطيف. هذه الأخيرة، كم هي عدوانية! إنها تُقبل لتهاجم أعشاش العصافير حيث توجد الفراخ. العصافير تدافع جيّداً عن نفسها، تنظم حراسة مشددة. لكن كما في أي حرب، هناك ضحايا. وكم مرة وجدنا على الأرض جثث الضحايا من الطيور، وعدد العصافير هو الأكثر. لم أكن أظن أن الخطاطيف، هذه الطيور الرشيقة تستطيع أن ترتكب مثل هذه الشنائع.

أما من حيث قراءاتي، فهي مستمرة. استفدت كثيراً من كتب الأدب والفن. لقد انتعشتُ بها ذاكرتي. ما ينبغي، هو شيء من الممارسة. لكنك تعرفين نزواتي في هذا الصدد. أتطور حسب هزات أو عواصف، ثم يخيم الهدوء ويبدأ الاختمار (...).

14 يونيو 1976

زوجتي الحبيبة،

(...) أجل، أود إعادة قراءة هذا الشاعر. إنه أخ كبير بالنسبة إلي. أذكر جيداً قصيدته (150.000.000) وخصوصاً ذلك الولوع بالشعر لديه الذي يصل إلى حد الاستشهاد. الموت في الكتابة، هكذا كان الأمر فعلاً بالنسبة إليه. لكن ليس من أجل التيهان في دهاليز هلوساته. هذا العطاء الجنوني هو الذي أتاح تفجير الكلمات – الصنوج التي شكلت إيقاع ملحمة شعبه. لم يقتصر «ماياكوفسكي» على الالتقاء والالتحام بتلك الملحمة، كان نهراً من نسغها، ثلّم في حقل إنباتها.

بشكل عام أود أن أقرأ أو أعيد قراءة أقصى عدد ممكن من الشعراء، خصوصاً الإسبان والأمريكيين اللاتينيين، والروس، وبعض الإنجليز والأمريكيين، سأفكر فيما سأطلبه منك (...).

21 يونيو 1976

عزيزي جسلان،

(...) يصعب عليّ إصدار حكم فيما يخص بلداً مثل فرنسا وشاعراً يعيش هناك. لكن على مستواي، ومستوى العديد من أولئك الذين يكتبون فيما يدعى ببلدان العالم الثالث، يمكنني أن أبدي رأيي بلا تردد. ليس للشعر، للأدب الذي نسعى إلى بنائه من معنى إلا إذا تولد من الطموحات الحقيقية، من الكفاح الملموس لشعوبنا. هذا الشعر يعبر عن هذا الالتحام ذاته، إنه نبضه. لا يمكنه أن يكون لا أدنى ولا أعلى ولا على هامش مسيرة شعوبنا. إنه جزء منها. فالشاعر ليس دليلاً، ولا ساحراً ولا «مهندساً للنفوس» بل إنه شخص يسير مع الآخرين، وفي ذات الوقت يحاول تحديد مركز كل الآلام والآمال المقتسمة. إن قمة الحساسية هذه تمكنه من تفجير الأغنية التي كانت كلماتها وألحانها متواجدة من قبل داخل كل واحد وكانت تبحث عن بوتقة انصهارها. صديقي لم يبق لي

مكان لمواصلة الكتابة. للأسف، كنت أود متابعة هذه الدردشة معك. أعانقك إذن. يد أخوية إليك.

5 يوليو 1976

زوجتي الحبيبة،

إلى حد الآن، لم أتوصل بأي شيء منك منذ رسالتك المؤرخة بـ 22 يونيو. ومن هنا تصوري إلى أي حد سعدت برؤياك رغم ضيق الوقت والتوتر الناتج عنه، رغم «مقياس الوقت» بيننا. كان جميلاً أن أراك في كامل بهائك. ليست هذه مجرد صورة. أحسست بك هكذا. أنا مَلِيءٌ بك، بهذا الحنان الذي عَبَّرْتَنِي به بقوة. عجيب أن أحبك، بِوَلِيٍّ وَطَمَأْنِينَةٍ، باليقين السعيد. كل هذا له مذاق اللانهاية، قوة اللإيكسرس، لأنه أصبح مَلَكَةً طَبِيعِيَّة. أن يعيش المرء، أن يغذي الأمل، أن يكافح، كل هذا لا ينقسم. لا يمكن للمنفي أن يكون جرحاً فاعراً متقيحاً، يُعْدي القلب والعين. يكاد لا يكون إلا اندملاً يَجُرُّهُ المرء معه طوال الفرقة، ويشعر بصداعه من حين لآخر. وشمة شمس على جبين كرامتنا. دعيني أكن عاطفياً هذا المساء، تلك العاطفية التي تعرفينها لدي، والتي ليست تيهاناً على هامش الواقع، بل هي نسغ يسري في شجرة الحنان الحقيقي، ذلك الذي يفتل أوصال قوة العلاقات الجديدة بين الرجال والنساء، بين بني الإنسان بشكل عام، مبدعي أعياد الأخوة الكبرى. إنني لا أحلم، لا أكتب قصيدة المتمنيات اللطيفة. أنا صاحٍ عندما أقول لك أشياء من هذا القبيل، في أقصى درجات الصحو، عندما أجروء على التصريح بالواقع الذي يكمن في داخلنا والذي سيخصب الحياة. لقد تركت الأحلام الكابوسية خلفي، في زمن مشوه بالشكوك وببشاعة الاستبداد، في الزمن القديم لِلَّيْلِ الْمُخَيِّمِ، ليل الوحوش وسلخ الجلد، ليل النزيف المرعد، ليل الأيادي المقطوعة حيث كنت أجول بعماي اليائس مثل أوديب رَحَّالَةً. بعيداً عن هذا الليل، في حين كل شيء من حولي يتعنت في محاولة إيهامي بعثمة أكثر كثافة. لكن هيهات أن تخدعني هذه المسرحية السخيفة. أستطيع دائماً وضع مسافة بيني وبينها، وأواصل مسيرتي.

رفيقتي الحلوة، لا تهجري الفرحة أبداً. دعي يدك مفتوحة مثل نافورة عمومية، ضاعفي من ثقتك في كل ما يستحق الثقة. لَتَرَّ عَيْنَاكَ دوماً بأكثر ما يمكن من إنصاف، من يقظة. لكن لَتَرَّ بحب، لتنفذ إلى حقيقة ما هو أقرب من متناولك، وما هو أبعد منه. كوني مُنْصِفَةً تجاه المستقبل عندما تنغمسين جسداً وروحاً في الحاضر. لا تهجري الفرحة أبداً.

تقبلي ما أقول لك هنا كلمسة، كرجاء متشدد. إليك يدي.

حبيبتي، لقد أقلقني ما ذكرت لي عن حالة فُدس الصحية. أعرف أنك ستبذلين أقصى الجهود لعلاجها. لكنني منزع لمعرفتي أن طفلتنا مهددة بمشاكل صحية. ستسهرين إذن على إجراء التحاليل الضرورية وتخبريني بانتظام (...).

7 يوليو 1976

هند، ابنتي العزيزة،

وصلتني رسالتك متأخرة جداً. ولهذا لم أجبك من قبل، أتمنى أن تتوصلي برسالتي هذه قبل يوم عيد ميلادك. سأشعر حينئذ وكأنني قد قبلتك قبلة إضافية. إذن سوف تُتممين سنواتك العشر يا هندي العذبة! أصبحت فتاة مقبلة على اجتياز امتحان الشهادة الابتدائية. يلزميني إذن أن أتعلم كيف أحدثك كفتاة عاقلة وناضجة لأنني تعودت أن لا أرى فيك إلا تلك الصبية التي كنت ألعبها فوق ركبتني، وتلك البنية/السمة الصغيرة التي كنت أعضّ على وجنتيها أحياناً. كل شيء يتغير، هذا ما يجعل الحياة جميلة: أطفال اليوم هم نساء ورجال الغد الذين سيعملون كثيراً حتى تصبح الحياة جميلة أكثر، ولكي يحترم الناس بعضهم بعضاً، ويتحابوا كثيراً. ها أنذا أقول لك من جديد أشياء معقدة، ولكن، على كل حال ستفهميني ولو قليلاً، أليس كذلك؟

عيد ميلاد سعيد يا بنيتي الحبيبة، وتَهانئي لنجاحاتك المدرسية. أنا سعيد لذهابك إلى تونس. إنها بلدٌ جميل. يكون الصيف في تونس أكثر حرارة منه في الرباط. ولكن الشواطئ جميلة هناك، وسوف ترين كثيراً من الأشياء الجميلة، وتتعلمين السباحة جيّداً وتغير الشمس بشرتك إلى اللون البرونزي. أعتد عليك وعلى ياسين كي تتفاهما هناك وتتساعدا فيما بينكما. سوف تكتبان لي وتبعثان بطاقات بريدية كما ستحاولان تعلم بعض العبارات من اللهجة العربية التونسية. التونسيون يتكلمون لهجة عربية قريبة من لهجتنا في المغرب، مع بعض الاختلافات. طريقتهم في الحديث تشبه نوعاً ما الطريقة التي يتحدث بها المصريون (لا بد أنك تعرفين اللهجة المصرية ما دمت تشاهدين الأفلام في التلفزيون). أما بالنسبة لي فأنا على أحسن حال. أقوم ببعض التمارين الرياضية كل صباح، وأستحم بالماء البارد وأقرأ باستمرار. وبالمناسبة لقد أعدت قراءة تلك الحكاية الجميلة لماكسيم غوركي، سبق لي أن حدثتكم عنها في يوم ما، «قصة دانكو» أتذكرين؟ الطقس جميل هذه الأيام. والسجن هادئ. أنا أيضاً أفكر فيك بحنان (...).

16 يوليو 1976

جوسلين،

أعدت قراءة البعض من رسائلك الأخيرة. لم أجب على سؤال طرحته علي في رسالتك المؤرخة بالسادس، إنه يتعلق بالصعوبات التي تعترضك أمام «الصفحة البيضاء المرعبة». لا أعتقد أن هذه الصعوبات تفسر بـ «ثروة داخلية» أقل، بالمقارنة مع طاقاتي. بل إنها انعكاس لممارسة ولظروف مختلفة. إن كثافة الحياة الداخلية لا تقاس بعادة التخيل والاستبطان الدائمين. فالإنسان الذي يرتبط مباشرة بالملموس هو الذي يتوافر بكل تأكيد على «حياة داخلية» أكثر كثافة. فقط لا تظهر له دائماً بوضوح سيرورة هذا الاستبطان. فهو لا ينتبه دائماً للتحويلات التي تحدثها الممارسة فيه. أما بعض المثقفين فإنهم مترقبون لكل متغيراتهم النفسانية، وغالباً ما يعتبرون هذه «العواصف في أكواب ماء» بمثابة كوارث عظيمة تعني الجميع، ويقدمونها على أنها مقياس مطلق لكثافة الحياة الداخلية. هذا بشكل عام، أما فيما يخصك، فإني أعتقد أن مشكلك منبعث من كونك لا تتوصلين دائماً (وأحياناً لا تبذلين الجهود الضرورية) إلى أن تتجردي عن المعيش اليومي كي تركزي وتفكري. هذا المجهود الفكري الذي يشكل المكمّل الضروري للممارسة، لا يتوافر على الاستمرارية اللازمة لديك. لا بد من مقاومة ذلك الميل إلى السلبية، وبيدك الوسيلة إذا قررت أن تتحملي بصرامة تجربتك وتجسيدها في عمل إبداعي. حاجة المرء أن يقول نفسه (ليس بمعنى الاستعراض) أن يقول العالم وأن يمنح الآخرين طاقة الإبصار، كل هذا يشكل مسعى يسير في خط متواز مع التحكم الذي نكتسبه تدريجياً في ذاتنا وفي العالم الذي نعيش فيه، مع القدرة على تغيير أنفسنا وتغيير العالم. إذن لا يتمثل مشكلك في ثروة قليلة أو كثيرة بقدر ما يتمثل في تفتح طاقاتك، والمجهود المستمر لإنضاجها واقتسامها (...).

لم أحدثك إلا قليلاً عن نفسي خلال هذا الأسبوع. ذلك أنه لم يكن هنا ما يستحق الذكر. لا أحداث، ولا قراءات. ومع ذلك فقد أعدت قراءة «شعراء الكومونة» بابتهاج وانفعال مجددين. «جان – باتيست كليمان»، «أوجين بوتيني». هؤلاء الشعراء السابقون الرائعون، أولئك الذين شقوا الطريق بالأيدي الأخوية. شرعت كذلك في قراءة مايا كوفسكي وسأحدثك عن هذا فيما بعد.

أتبع بانتظام حصص الرياضة البدنية. أشعر من جراء ذلك ببعض الألم في المفاصل، لكن مع المثابرة كل شيء سيحوّل إلى ما يرام. لا أتغيب أبداً عن درس الإسبانية اليومي، أجد في هذا متعة حقيقية.

بالإضافة إلى أخبار السجن اليومية، هناك كل ما يتحرك في داخلي، أسئلة عديدة كان بودي أن أتحدث عنها بإسهاب. أترك ذلك إلى رسائلي القادمة. أنا أيضاً في حاجة إلى «ضبط الحسابات». يوماً أشعر بالاختناق أمام هذه الصفحة الوحيدة. يبدو لي دائماً أنني أختزل أفكارِي، أقص أجنتها، بغض النظر عن الخصي المفروض على المحتوى. أحياناً أخشى أن تتخذ أفكارِي سحنة مشوهة في رسائل قصيرة بهذا الشكل، إنني في وضعية من يعرض نفسه في شكل قطع مفككة.

لا بأس، كفانا من هذه الشكاوى. حان وقت الابتسام لك، بسط اليد نحوك. عندما أصل إلى هذه النقطة من رسائلي أراك حاضرة أمامي، جسدياً تقريباً. لحظة مؤثرة مثل تلك الإشراقات التي تشكل جزءاً من تراث حبنا.

24 يوليو 1976

جسلان،

تأخرت في إجابتك لسبب واحد هو عدم توافر ورق الرسائل. ظاهرة غريبة أليس كذلك؟ لكن الأمور هكذا. في قلعة منفاي، كم من حركات، من اندفاعات مستعجلة تلغى، تصبح الحرية حينئذ مجموعة من المصادرات، من القذفات خارج الزمن، هذيان من الرؤى الحبيسة بين الجدران. أصل إليك رغم أسيرة الوجود وهانذا أشدُّ على يدك.

مناقشتنا عن التفاؤل والباقي، أكيد أن الأمور ليست بيضاء تماماً أو سوداء، محسومة ميتافيزيقياً، الغد المترنم الساحر أو العصر الذهبي الذي مضى بدون رجعة، أي الانحطاط المحتوم إلى أن يحل الدمار. إن إيماننا في الحياة، في قدرة الإنسان على التغيير والإبداع أكبر من أن يسمح لنا بالهروب، سواء إلى الأمام أو إلى الخلف.

إن الأمل، كما رددت ذلك كثيراً، ليس نظارات توهم بنعيم الفردوس بقدر ما هو صحو سائر. هنا أو هناك، والآن ودائماً، ينبغي ألا نقف مكتوفي الأيدي والقبضات. يجب أن نكون عنيدين، ذلك العناد الذي لا يقدر عليه أي حيوان آخر. هذا قاس بالنسبة إليك، أعرف ذلك. أن تكون بين فكي الغول الذي يمتلك العقول، يفرغ العلاقات الإنسانية، يسحق الطيبين، أن يعيش المرء هذا الكابوس الذي لا يكاد يُقْتَع وجهه البشع، شيء خانق بالفعل. أن يكتب المرء في ظله يزيد صعوبة، خصوصاً إذا لم يتعلق الأمر بالامتثال لسلطة المال والطلبات الغبية، عندما يتعلق الأمر بفقء دمالات العيون، بتمزيق تمائم

الطمأنينة، بوضع الرجلين الداميتين وسط صحون وليمة السرقة. لكن لا يمكن فعل أي شيء آخر غير متابعة المسيرة، فضح جميع حيل ممتصي الدماء، أن يكافح المرء ويحب، أن يحب إلى آخر رمق (...).

أما عن حياتي هنا، فلا شيء بارز، أكاد لا أكتب شيئاً. تتخذ الكتابة عندي شكل العواصف، تدفق البراكين، وبعد هذا النوع من الولادة يخيم الهدوء خلال فترة طويلة من الملاحظة، والإنصات والتراكم استعداداً لانفجار بركاني آخر. غريب، أليس كذلك؟ رغم كل ما قيل في هذا الصدد، فإن ظروفنا مثل هذه التي أعيش فيها لا تمثل الجو الملائم للكتابة. يعيش المرء وسط عالم من الرسوم المتحركة حيث كل شيء يتقلص إلى أبسط معانيه. يحدث أحياناً أن يعجب المرء حتى من صوته الخاص فيعيش بقوة ما يتجمع في الصرخة.

إلى أن أقرأ لك، صديقي الشمولي.

30 يوليو 1976

حبيبتي،

كلمة قصيرة اليوم، لأنني، تصوري، مريض: زكام عنيف مصحوب بنوبة روماتيزم. مثل ما وقع لي خلال سفرنا إلى غرناطة، وإن كان هذه المرة أقل حدة. هذا ثمن مشاكسة الآخرين. على أي حال، لم أستطع أن أفعل أي شيء منذ يومين: لا قراءة، لا فسحة... لم تكن لي حتى قوة مكاتبتك. تحسنت حالتي بعض الشيء اليوم. أمس تناولت أدوية كثيرة وعرقت غزيراً خلال الليل. أعالج نفسي كما أستطيع.

توصلت برسالتك المؤرخة بالسابع والعشرين التي تحكين فيها أنت أيضاً عن متاعبك. ها نحن متضامنان حتى في المرض. تضامناً كان يمكننا أن نكون في غنى عنه!

أتمنى أن نستعيد قوانا كلانا في موعد الزيارة المقبلة. يبدو أن قُدس قد تتمتع بكامل العافية إذ أنها حالت تماماً دون إنهاءك الرسالة. يسعدني كثيراً هذا (شفاؤها بالطبع). أميل للمزاح رغم الحمى، أشعر بنوع من الخدر.

إليك حناني.

13 غشت 1976

زوجتي الحبيبة،

قررت أن آخذ عدة أيام عطلة. جائزٌ لي، أليس كذلك؟ لا قراءة، الاستمتاع بالشمس، الخروج من الزنزانة طوال الوقت الذي تكون فيه الأبواب مفتوحة. هنا في الساحة، أتمدّد، أعيد اكتشاف محيط السجن. زرقته تخطف البصر. الأفق يتجلى عمودياً. أشعر بنبض صدر العالم في عمق هذه الزرقة الشاسعة. في نهاية الزوال تظهر الطيور، أسراب من الخطاطيف تحلق عالياً، تنتقل كل واحدة في اتجاه مغاير في حين تبقى الكوكبة ملتحمة وتدور على نفسها مثل دوامة صغيرة. ثم اللقالق المحلقة على مسافة أقرب، رزينة ومتبخترّة، توحى لي وكأنها منبعثة من عصر بائد. راحة نادرة. أشعر وكأنني أنبعث من جديد في جسدي، في رحم الأرض. الأوردة ترتجف من سريان الدم، اليد تنبعث ببطء، الدماغ يرعد، سرب من الصور، انبجاس الأفكار. الحياة تسري، وكأن جسدي يغرز عروقه في الأرض، وجميع المسام مفتوحة لمرور العناصر التي أنضجتها أعراس الصيف. أذوب في خصم الإنبات الشامل.

بعد الشمس، أستحم بالماء البارد. ما أن أفتح الصنبور حتى أُثقل إلى حلم آخر. الماء المتدفق شيء رائع، ناعم بالنسبة لمن يقوى على الإبصار والإنصات. تمد يدك وتترك الماء يملؤها. تتكون فقاعات ملونة في راحتك، تتفرقع، أخرى تُحلّ محلها. هكذا تنفذ إلى سر ما لا ينضب وما لا ينقرض (...).

17 غشت 1976

جوسلين،

يا له من جنون أن نتحدث بكل تلك الجزئيات عن العودة. لقد عرفتُ أمس تلك الحالة التي يتكلم عنها «مايا كوفسكي» في إحدى قصائده: «المضجع الممزق أرقاً». وليس يعني ذلك أنني من أنصار التفاؤل الأخرق. فمرجع هذا فقط إلى كوننا تكلمنا عن هذا الاحتمال. إنه في الوقت نفسه حلو ومؤلم أن يكون المرء مضطرباً هكذا. جائز لنا هذا، إذ أنه لا يحدث إلا مرة كل سنتين... تقريباً... على أي، رغم الأرق، فقد استعدت تمام هدوئي، إنني واقعي إلى أقصى حد. لست أدري إن كنت قد لاحظت هذا فيّ من قبل، لقد اكتسبت نوعاً من اللامبالاة تجاه المصاعب والضربات التي يمكن أن تصيبني من قبل المحنة. لا مبالاة ليس بمعنى الوهن بالطبع، ولا بفتور في العواطف بسبب نزعة قدريّة ما. إن كوني متشبثاً بالحياة، ومعنياً وطرفاً في المسألة، لا يسمح لي أبداً بالانقطاع عن الواقع. ينبغي فهم هذه الكلمة بمعنى التحكم في الزمان والمعيش، والمسؤولية الحقة تجاه مصيري الخاص. لا أقول بأنني بلغت قيمة هذا التحكم

وهذه المسؤولية، لكنني أحاول الوصول إلى ذلك بكل قواي. وإلا كانت الهشاشة وعدم الاستقرار العقيم. لا علينا... فيما عدا ذلك، تستهويني الكتابة. وهذا ما يفسر تهمي في الآونة الأخيرة. أفكر بصفة خاصة في نوع من الإضافة لقصيدة «نداء الشرق»⁽³⁶⁾ إضافة بمثابة مواصلة وليس في شكل تناول جديد لهذه القصيدة القديمة. في الواقع، إنها كل هذه الوضعية المأساوية في العالم العربي هي التي تناديني⁽³⁷⁾ أود أن أجري نوعاً من الكشف الشعري لهذه الوضعية. ثم أود أن أصرخ، أصرخ بكل ما يمكن من صحو، بكل ما يمكن من غنائية. لن تكون مجرد قصيدة «مناسبة» لأن الأمر يتعلق بالتاريخ والكفاحات التي تتجاوز الظروف التي يجتازها الوطن المعجزة (...).

20 غشت 1976

عزيزتي إيليت،

رسالتك – البسمة، زئبق أناملك النافورية. تبدين في أحسن حال وهذا يسعدني. تعرفين، إني أحب أخبار النزاهات. لعل هذا ناتج عن حسي. وعلى أي حال فإن «نيكول» تتحفني بها. كثيراً ما أسافر صحبتها في باريسها. وهكذا فإن صورة الحقول، تلك الطائفة التي كانت تحلق من خلفكما أنت وصدقتك، ضحكاتكما، كل هذا حرّك داخلي. لا، لم أكن «غيبوراً»، كان نوع من وخز شرارات الفرح. إني كما تعلمين رجل اقتسام. أنا أيضاً منشرح في الأيام الأخيرة، إلى حد أن جوسلين أصبحت تشتكني من مشاكساتي. على الأقل، هي تتظاهر بالمضايقه، لأنها لم تستقبح مني أبداً روح المداعبة (...).

26 غشت 1976

صديقي جسلان،

أعيد قراءة رسالتك المؤرخة بالثاني عشر غشت، والتي توصلت بها منذ بضعة أيام. تعبير آخر عن أخوتك، إننا نمتلك بفضل هذا مَعْدِنًا نادراً أو إن شئت، شعاع نور أساسي يرشدنا، يجعلنا طرفاً معنياً، عضواً ضمن قارة إنسانية عجيبة حيث تزهو أخيراً العلاقات بين بني الإنسان وتنضج أجود ثمار الحياة. من عَلَمنا هذه الرقة، هذا العناد أمام الموت، هذا الشره إلى العدل إلى حدود البكاء؟ يمكنني بالطبع أن أجيب، لكن أحياناً، وأنت تعرف هذا، أن يصرخ المرء، مجرد الصرخة، هذا هو الأصح...

نادراً ما أحدثك عن حياتي هنا. ذلك أنها رتيبة، بحركاتها المحكمة التنظيم والقواعد. يمكن بسرعة الإلمام بالأمكنة وبـ «البرنامج» اليومي أو الأسبوعي: رقم، أبواب تفتح وتغلق في أوقات مضبوطة، الفسحة التي ألقى فيها السماء، السحاب، الطيور، الزيارة الأسبوعية التي تمثل بالنسبة لي كل مرة رحلة طويلة. ثم الرفاق. أحاديثنا، ضحكاتنا، أفراحنا ومعاناتنا المقتسمة. الليل حاسم أكثر لأن العتمة تبعث الذاكرة، يسترجع الجسد شكله، تمّحي الجدران في النهاية. عندئذ تعج الحياة، ويعود العالم إلى الذهن بجنون صاخب. أدخن، أفكر، أنظر في ذاتي، أخترق دروع الصمت. أخيراً يمكنني أن أشيد، أن أحب، أن أستدعي القصيدة. أعذرني عن هذا الخليط. لست أدري ماذا دهاني كي أتكلم هكذا جهراً. أشكرك على الكتب التي أرسلتها إلي. كنت قد قرأت فيما سبق «العقب الحديدية» وكذا جزءاً هاماً من أعمال «ج. لندن». إنها من أحسن اكتشافاتي خلال هذه السنوات الأخيرة. أوافقك على ما قلته عن الإنتاج الأدبي لبداية هذا القرن: إذا قارنا جل الإنتاجات التي تقدم اليوم على أنها أبرز العطاءات الأدبية بالانفجار الذي حدث في تلك الفترة فإنها ستبدو شاحبة. ذلك يعني أن التدجين يحقق الكثير من الانتصارات. فالأدب – البضاعة ينتج الكتاب – المرتزقة، متواطئين أو ضحايا. الكتابة، عندما لا تكون مساهمة مباشرة في بسط الهيمنة، فإنها تستهدف الترقية والاستثمار المطمئن. وهذه الظاهرة ليست خاصة لما يدعى بالغرب. إننا نصادفها حينما يحتاج القمع إلى تبرير معنوي. المهم اليوم رغم هذا، هو أن هذا الأدب فَقَدَ كل هالاته ومظاهر زينته في أعين المستضعفين. إنه لم يعد يهمهم. إنهم في حاجة إلى أشياء أخرى غير هذا، وإن كانت هذه «الأشياء الأخرى» ليست دقيقة وواضحة دائماً. وهذا ما يجعل من الكتابة مسؤولية جسيمة (...).

23 شتمبر 1976

زوجتي الحبيبة،

(...) فيما يخص الموضوع الشائك الذي أثرته في رسالتك، هل تكونين قد قررت أن تقومي برحلة متأخرة في عالم التعصب لـ «الانغلاق النسوي»؟ لآتفه الأسباب ثارت حفيظتك وأنزلت بي سيلاً من فيض ثوراتك المكبوتة، المتراكمة، وأبيت إلا أن تذكّرني بالحقائق التي لا بد من معرفتها، إلخ..

طيب، لنحلل «الهبوة» التي صدرت عني. وسأمضي فيما بعد إلى تحليل تحاملك.

1 _ عندما أتحدث عن «الضعف» الجسماني للمرأة، لا يخطر على بالي البتة، أن الأمر يتعلق بعاهة طبيعية، مطلقة. بالعكس، وهذا ما أوضحتها، إنها عاهة محددة تاريخياً، أي أنها لم تكن معروفة في كل زمان (مثال: المشاع البدائي حيث لم يكن النظام الاجتماعي (الطبقي). وإنما لا بد وأن تتجاوز عندما يتم تجاوز الظروف الموضوعية التي تُدني المرأة إلى وضعية نقص على جميع المستويات. إنها حقيقة لا غبار عليها بالنسبة لكل من تناول هذه المسألة من منظور المادية التاريخية. أما من جهة أخرى، وبغض النظر عن السيرورة التاريخية التي أدت إلى تنقيص المرأة (حتى على مستوى الإمكانيات الجسمانية، والترويض العملي لهذه الإمكانيات: فالنشاط الحربي والتمارين الإعدادية التي من شأنها تنمية القوة الجسمانية كانت خاصة بالرجال في كل المجتمعات (الطبقية)، أقول بغض النظر عن هذه السيرورة، من البديهي أن المرأة تعاني، على الصعيد البيولوجي، من بعض العوائق الطبيعية كالحمل والحيض اللذين يجعلانها، ولو مؤقتاً، أقل تحملاً من الرجل. بالطبع هذه العوائق نسبية وتتجه الجهود نحو تقليصها إلى حدودها الدنيا. في إطار إنجاب مراقب، لا تمس هذه العوائق المرأة إلا خلال فترة قصيرة من حياتها (ما بين 9 و22 شهراً مثلاً). أما حالة الحيض فهي أقل إجهاداً. وبالتالي فإنني عندما أتكلم عن «الضعف الموضوعي»، فإنني أموضعه تاريخياً، وأعطيه أسسه

المادية. لقد أوضحت بما فيه الكفاية أنه مرتبط بظروف تاريخية وبوضعية طبقية معينة وبالتالي فإنه سيتجاوز مثل باقي أوجه النقص التي تعاني منها المرأة.

2 _ أما فيما يخص تحاملك، فإني متفق مع حججه. لا أجهل الظواهر التي تتكلمين عنها. ومع ذلك إني أعتقد أن براهينك تستند على نوع من الخلط. لأن الموضوع المطروح للنقاش ليس هو «درجة استغلال المرأة بالمقارنة مع الرجل»، فأفكارنا واضحة تماماً في هذا الصدد. فالاستغلال المزدوج للمرأة الكادحة (لا بد من الحرص دائماً على هذا التمييز) لا يغيب عن ذهني. ومجموع الأشغال المنجزة في اليوم تخبر عن مدى تحمل العامل أو العاملة، وليس عن القوة الجسمانية الخام.

لكني أتفق معك على أن المشكل الأساسي ليس هو مشكل هذه القوة الجسمانية الخام (سيكون المجتمع الذي نسعى من أجله في غنى عن قوة الإنسان القديم هذه، لأنه سينمي الذكاء وروح الإبداع لدى الجميع، نساء ورجالاً. حينئذ ستمرُّ علمية التحكم في الطبيعة عبر الذكاء والعلم وليس عبر قوة العضلات). إذن عندما تحدثُ عن نقص المرأة، كنت أعتبر في كلامي المجتمع الحالي كإطار، والمجتمعات الطبقية بصفة عامة.

3 _ لا أرى جيداً وجه المعنى الثاني الذي تريه في عبارة: «ما تقوم به امرأة يجب على الرجل أن يقوم

به» بالنسبة لي، أرى من البديهي أن الأمر لا يتعلق بمجرد واجب أخلاقي، بل إنه ضرورة عملية. إن هذا يحدد طبيعة العلاقات المستقبلية التي نسعى إلى تحقيقها، ليس فقط بين الرجال والنساء ولكن بين جميع أعضاء مجتمع الغد. تريدان الاقتصار على ما هو عادي ويومي، حسناً. أما أنا فأعتقد أن إقامة هذه العلاقات الجديدة على أساس المهام الجديدة التي تنبئ عليها، ستؤدي إلى قيام نزعة إنسانية جديدة، وتكشف عن قيم جديدة، وسيكون المجتمع الذي سيحدث فيه هذا مديناً بالكثير للنساء لأن تجربتهن الطويلة مع جميع أشكال القمع والاستغلال تجعلهن أكثر قدرة على الاقتراب من عدالة أفضل والتعجيل بحلولها.

هكذا، أتمنى أن يكون كلامي واضحاً هذه المرة. أما عن تجربتك بالنسبة لوضعية المرأة، فأعرف أنك فكرت فيها، وتناقشت فيها. أمني كان ولا يزال هو ألا يبقى كل هذا مقتصرًا على هذه الحدود، وأن يمكنك في يوم ما أن تعبري عنه بشكل شامل، بحيث يمكن أن يستفيد من هذا كل أولئك الرجال والنساء الذين يعيشون وضعيتهم دون أن يتمكنوا من تفسيرها وتغييرها. هكذا لقد استطعت أن أكتب لك رسالة طويلة. سأحاول أن أفعل هذا أكثر في المستقبل، لأنني بصراحة، أصبحت أختنق في هذه الصفحة الوحيدة. أفضل أن يكون عدد المراسلات أقل مع تعميق أكثر لمسألة ما، عوض الاكتفاء برسائلنا – البرقيات (...).

15 أكتوبر 1976

زوجتي الحبيبة،

(...) أمس، تلك النزهة العجيبة.⁽³⁸⁾ كانت شمس حقيقية تضيء غابات بكاملها، حقولاً مترامية الأطراف، تتقدم حتى جنبات الطريق لتهدى فتنة ألوانها.

سيارات، مارة، وفجأة زحمة المدينة، أزقتها، ساحاتها. تبخترُ محظوظيها مثل تحدُّ من اللامبالاة. لم أستطع بعد أن أرى بوضوح في مشاعري. كان الدوار بالغ الحدة. لقد أنهكني ذلك الارتماء وسط الواقع الحي. في الليل كان نومي كثير الاضطراب. لا أتذكر العديد من الأحلام التي شاهدتها. لقد كانت على أي حال كثيرة الحركة. السجن، يا له من مؤسسة غريبة! من الصعب أن يتخيل المرء شيئاً أكثر ظلماً وأكثر سلباً للحياة. لكن رغم ذلك فمن أهم ما نعتر به أننا بقينا في أصعب الظروف أقوياء إلى أقصى حدود حيويتنا وإيماننا في كل ما يقرب الحياة الحقيقية. جوسلين، إني سعيد وأحب هذه البدعة. ما السعادة إن لم تكن هذا الدوار الذي يعترني الإنسان برمته؟ (...).

16 نوفمبر 1976

جوسلين،

(...) حبيبتي، من حين لآخر أجد نفسي في أمس الحاجة إلى صوتك الداخلي، ما أسميته ذات يوم «رسائلك الباطنية»: النظرة التي تلقينها على الأشياء والأحداث، على حركة الحياة من حولك... إلخ. أحب أن تحلمي هكذا معي، أن تفتتِك الأشياء أو تدهشك، أن تحدثيني عن نفسك على ممر انطباعاتك وأحاسيسك، أن تهمني لي حضورك. أعرف أنه من الصعب عليك في غالب الأحيان توفير الظروف التي تتيح فرصة إرضاء هذه الأمنية، فالحياة التي تعيشينها لا تسهل قط فرصة التأمل والحلم. لكن هذا لا يعني أنك لا تعيشين كل يوم لحظات تغوصين خلالها في أعماقك، تخاطبين نفسك، تبتسمين في شروق عندما ترين أو تسمعين شيئاً ما، تنفصلين خلالها عن كل ما يحيط بك، تسرحين مع سيل الصور، الذكريات. الصعوبة تتمثل في إمكانية إعادة تركيب هذا المعيش بعد ذلك. كم أنا متشدد، أليس كذلك؟ الحب، هو هذا الاقتسام المتجدد باستمرار، لا يتكرر بالصورة نفسها أبداً.

رقة الصمت. الليل ينتشر، يمدد جسدي. على جيبني، في يدي، نجوم كثيرة. السدود تنهار. أمواجك تدهمني. أمسك بيدك وأشعر كأنني أضغط عليهما مثل تلك اللحظة المؤثرة من يوم وضعك لأحد أطفالنا. كنت إلى جنبك، وكنت أقبض على يديك بحرارة، ألتحق بك في آلامك، كنت أحس بنسغ الحياة القوية يتصاعد في داخلي، وينفذ بي إلى سر جمالك وقوتك. أتذكرين، حبيبتي؟ يا لعظمة هذا الحب! هذا أيضاً، يستحيل نسيانه. أتوقف عند هذا الحد لأن الأمر قوي إلى أبعد الحدود. إننا غير منفصلين.

19 نوفمبر 1976

زوجتي الحبيبة،

رغم المشاكل مع الأطفال، كنت سعيداً برؤيتك، وبتجديد حناني لك. أود أن تعرفي أنني أرى تماماً حجم المشاكل التي يطرحها الأطفال عليك. تكلمت لك كثيراً عن هذا في الماضي، وها أنا أعود اليوم إلى هذا الموضوع. المدة القصيرة التي تتيحها لنا الزيارة للتحدث، وضيق مجال الرسائل لا تسمح لي بأن أبين لك إلى أي حد تشغلني هذه المسألة. لا يمكنني أن أستنقص هذا المشكل أو أن أتناوله سطحياً. أعتقد أنني قلت لك في إحدى رسائلي السابقة أنني عندما أفكر في هذا الموضوع أحس حقاً بعجزتي. أحياناً إنها مأساة، لأنني لا أتحمل هذا الإحساس. رغم هذا أحاول قدر المستطاع أن أقدم لك مساعدة وإن كانت جد متواضعة، بالمساهمة حسب إمكانياتي في التفكير في المشاكل التي تطرح وفي محاولة إيجاد الحلول لها. وأريد على هذا المستوى وعلى غيره، أن تكون هذه المساهمة المتواضعة دائمة وأن تطاليني بها باستمرار. أرجو منك فقط أن تتحلمي أكثر في نفسك أمام هذه المشاكل، أن تتجني قدر المستطاع ردود الفعل المرتجلة، أن تكوني يقظة إلى أبعد حد. في موضوع الأطفال لا شيء محقق بصفة نهائية. هناك مشاكل جديدة يمكن أن تظهر باستمرار، ينبغي التكيف مع كل الحالات، والانتباه للمتغيرات المتعددة التي تحدث، وتجديد التحاليل على ضوء المستجدات وتكييف المواقف والتصرفات حسب كل هذا. المجهودات التي يتطلبها هذا السلوك جبارة وليست من العدل في شيء. لكن، لو اقتصرنا على مجرد التبرير في مثل هذه الأحوال، كم من أفعال ومشاعل وضغوطات ستبدو لنا عبثية ولا تطاق. لا حاجة لإعطاء أمثلة مستمدة من وضعيتي الخاصة، إنني أكره هذا النوع من «التبجح». تشجعي حبيبتني، من أجلنا ومن أجل كل المعذبين في الأرض. جراحنا، هي التي ترسم الأمل (...).

21 نوفمبر 1976

جوسلين،

هل أنا حزين هذا المساء؟ أم هكذا أترجم هذا الحنين للعيد الكبير، عيد نهاية كل المنافي؟ هذا المستقبل الذي يُجَنِّني، ذاك الذي لا يمكن قياسه، لا هو ولا مدى قربه. هل سأعيشه؟ هل سأكون رجل هذا العيد، مُتَمِّياً أخيراً كل عطاءاتي؟

ها هو الليل يخيم من جديد. إنه لا أعمى ولا أصم. إنه محيط آخر للسجين، بقدرته على الاقتلاع، عواصفه في بحر الذاكرة وهديره المرعب. أنا هنا أنصت ليلنا المشترك كي ألغي سدود الوحدة، أنتشل منه حصتي اليومية من الفرح. إذن لست حزينا. «شاعر» شيئاً ما فقط. شعر مثل الحضور، مثل نافورة تتغنى بالإخاء. حظ صغير، ليس بمعنى الامتياز أو الاحتكار. إنه الشعر الذي ينبغي أن ينبثق في كل واحد منا. فحسب. ماذا دهاني حتى أتكلم هكذا؟ ما إن نظرت في عينيك والتقيت ببسمتك حتى أهلت صحرائي السجنية، وظهرت فيها واحة تغمرني بدفقتها. أحياناً، ليس من الإبداع في شيء أن يحاول المرء أن يفهم. كفاه أن يأخذ ما يُعطاه، ويكتفي باستيعاب كثافة هذا الحدث.

كفى، أنزل إلى الأرض. الزنزانة مازالت هنا، والرفاق، والكتب، اقتراب وقت العشاء والنوم. كنت أدخن دون أن أعير انتباهي لذلك، الضوء ضعيف وشخص ما يتكلم في الحجرة المجاورة، الجو معتدل. سهرة مثل العديد من شببهاتها.

ها هو أذان صلاة العشاء. صوت المؤذن جميل، لست أدري إن كان صوت سجين أم هو تسجيل. سيجارة أخرى للاستمرار في مؤانستك. وأنت ماذا تفعلين الآن؟ كم يصعب تخيل هذا. في أغلب الأحيان أتصورك هادئة وبالتالي في هيئة مجردة إذا أمكن القول. كنت على وشك أن أسألك في أي الأوقات تفكرين فيّ. شخصياً لن أستطيع الجواب على سؤال من هذا النوع. غني ولا متوقع أن أفكر فيك (...).

21 ديسمبر 1976

زوجتي الحبيبة،

تلقيت رسالة وحيدة منك منذ بداية هذا الشهر، رسالة 13. مضطرب شيئاً ما، خصوصاً وأنا منذ العيد لم نتمتع بأي زيارة هادئة. مما يجعلني أحس بالحرمان منك. لاحظت أن هذا الفتور يعترينا من حين لآخر، بسبب تحالف عدة ظروف مستقلة عن إرادتنا. لكن دعينا من هذه الملاحظات وكأبتها.

إنني أقضي ليالي جد مضطربة في الآونة الأخيرة. أحلام متقلبة، بشعة في أغلب الأحيان. من جنس تلك الأحلام، في فترة معينة، والتي تخللت «العين والليل». غريب كيف أن مخاوف وانبهارات قديمة، محرّمات وهلوسات قديمة لم تعد تحدث في حالة الصحو ولكنها تظهر في الحلم بحدة مرعبة. عندما أحلم، أكون لا أزال رجلاً بدائياً، أستعيد بعض السلوكيات السحرية. أحياناً،

يكون ردُّ فعلي بعد ذلك، إيجابياً، منتقداً، فأسخر من تخوفاتي وسط كياني
الحالم، لكن هذا لا يمنع من سحر اللحظة.

إلى جانب هذه الأحلام، تتراءى لي أحلام أخرى عادية أكثر من سابقاتها. أحلام
السجين، لا تقل عن الأولى اضطراباً وتنتهي عموماً عند نقطة بدايتها، أي خلف
القضبان، حتى قبل أن أستيقظ لألاحظ أن لا شيء تغير، وأن الجدران
والأبواب لا تزال هنا. على أي حال فالحلم قدرة عجيبة، ووجهة العجب فيها أنها
لا تُفمَعُ بالمعنى الصارم للعبارة. أحد المجالات النادرة التي تفلت من محاكم
التفتيش. منبع شعر بدون جدال...

24 دجبر 1976

حبيبتي،

أخيراً، زيارة ملائمة. شعور بلقياك بعد غياب طويل.

إسباتك العارض. أذكر أنني، في رسالة سابقة، حدثتك عن الأمر نفسه. الفتور
حالة مقتسمة إلى حدٍّ بعيد، وبالأحرى في وضعيتنا، حيث نشعر أحياناً وكأننا
نسير على خطى «سيزيف». أفهمك إذن، وأرأف بك صادقاً. مني إليك، لقد
بدوت لي في أحسن حال. ذلك الجزء من الربيع الذي ينضح من ملامحك
وتشيعينه، كيفما كانت الظروف. تسمحين بهذا الإطراء؟ كم ستكون حياتنا
المشتركة جنونية! لا أدري لماذا يذكرني هذا بفقرة من رواية لـ «سانت
اكسوبيري» كنت أدركها لتلاميذي (في إطار المقرّر). يتعلق الأمر برجل
صحراوي هاجر إلى أوروبا ووجد نفسه ذات يوم أمام شلال. طار به أمام
سيلان المياه العارم. واستطرد الكاتب، مؤولاً هذا الافتتان على أنه تساؤل
حول جنون السماء. لم أتمكن من استعادة كل جمال هذه الفقرة. كان هدفي
من خلال هذه المقارنة أن تلمسي هذا الانفعال الذي يلم بي كلما فكرت فيما
كان وما سيكون أقوى في قارة حناننا. سيجارة لأقترب أكثر منك.

هل تشعرين أحياناً بنفس ما أشعر به: فجأة لا تعرفين أين أنت، من حيث
المكان والزمان. ليس لك وعي بأي تاريخ كيفما كان، تفقدين اللحظة الوعي
بالانتماء لأي شيء، بأنك تسكنين جسداً، لا ترين شيئاً أمامك، من حولك أو
خلفك، وإنما تشعرين بنفسك في مكان ما، في نوع من البعد الرابع. شيء
يشبه الأبد؟

ثقي بي، إن هذا ليس ناتجاً عن المبالغة في الإنصات لنفسي والتحليل. لا، إنه شيء عفوي لا يدوم إلا إلى حين يشعر المرء بأنه ذهب إلى أبعد مما ينبغي أو أن السيارة احترقت تماماً. حينئذ يطفو من جديد، ويشعر في آن واحد بالطمأنينة والخيبة لأنه هنا فقط، مع كل ما يقتضيه هذا الوجود. أحلام أخرى!

مع هذه الأمطار التي تمنعني من الساحة، من الفسحة، أقرأ أكثر، من حيث الكم. لكن من حيث إمكانيات الاستيعاب، وبالتالي الفائدة الحقيقية، فإن الأمر ليس بديهيًا. عندما أفكر في هذا ملياً أجد أنه مشكلي الأساسي، ذلك الذي يزعجني أكثر. حاولت كل شيء لكن دون أي نتيجة ملموسة. العلاج الوحيد هو، من حين لآخر، الإضراب عن القراءة. هذا الحل الذي لا يمكنه أن يدوم طويلاً. حالياً أنا منكب على كُتُب الاقتصاد: «سمير أمين». «بيتلهام»، وسأنتقل إلى «والعلو» وآخرين. كما ترين إنني أستكمل اطلاعي. هذا المساء، تفهمين أنني أعبر في الواقع عن حاجة إلى حضورك. أن أتسم لك، أن ألامس يدك أو شعرك، أن أفكر في هدوء فيما سنشيده غداً وفي كل رحلة مسيرتنا.

الأطفال كانوا رائعين، وما يعجبني أكثر فيهم ثقتهم الكبيرة في الحياة وأملهم المتوقد (...). اكتب لي، حبيبتي الرقيقة. شجاعةً وحباً لبقى نصف السماء الذي تمسكينه عالياً.

28 دجبر 1976

ولدي الحبيب ياسين،

أكتب كما وعدتك بذلك، رغم التأخير الكبير. في الواقع، كان لا بد أن أتمعن في قصيدتك وفيما سأكتب لك. ليس من السهل أن أتحدث عن الشعر لفتى في مثل سنك. مع الأسف، نحن الكبار، تعودنا أن لا نتحدث عن مسائل من هذا النوع إلا فيما بيننا، وكأن الفتيان أو الأطفال ليس في إمكانهم أن يفهموا أو أن يحسوا ما هو الشعر، وما هي الموسيقى والعديد من المسائل الأكثر أهمية، كالعلاقات بين الناس، بين النساء والرجال وبين الراشدين والأطفال، وغيرها من المشاكل التي يعيشها كل مجتمع... إلخ. يلزمنا بالتأكيد أن نتخلى عن هذه العادات السيئة، وأن نتعلم كيف نتحدث لمن هم أصغر منا سنًا، والبحث عن لغة تمكننا من التفاهم معهم.

ما أقوله لك هنا يجب أن يشجعك على المطالبة بحق الحديث عن كل المشاكل التي تطرح عليك. مارس هذا الحق بكل ثقة وبدون خجل أو حرج.

أعود الآن إلى قصيدتك، وقبل كل شيء يجب عليك أن تتخلص من ذلك الشعور بالخجل الذي ينتابك حيال ما تكتبه. أن تكتب معناه في العمق أنك تتقاسم مع الآخرين شيئاً ما. كما لو أنك توجه الدعوة للتفاهم والمحبة والإقدام على فعل ما، يرضي الجميع. عندما تكتب قصيدة، تقول في قرارة نفسك وأنت تفكر في الآخرين «هذا هو أنا»، وهذا ما أحبه (في هذه الحياة) وما أكرهه، وهذا ما أدعو إلى أن نقوم به جميعاً. ما رأيكم في ذلك؟ إن كنتم غير متفقين أجيئوني ولنتناقش حول ذلك، وسوف أكتب قصائد أخرى تعمق وتقوي الروابط بيننا». كما تقول هذا داخل نفسك: «قصيدتي تقتضي جواباً، أجوبة. هدفها هو أن تصبحوا أنتم جميعاً شعراء، لأننا حينئذ سنتفاهم أكثر ونناضل بشكل أحسن لكي تصبح الحياة أكثر جمالاً وأكثر عدالة، وينفى عنها القبح والبشاعات».

كيف وجدت قصيدتك؟ إنها لرائعة، لسبب أساسي: لقد استطعت أن تعبر عما يخالج أحاسيسك، ولقد فعلت ذلك بكل شجاعة. الشعراء الفاشلون لا يستطيعون الوصول إلى الصدق في القصيدة، ولهذا لا يمكنهم التأثير على أحد. وعندما نقرأ قصائدهم لا نشعر بأي شيء. أما الشعر الحقيقي فهو على العكس من ذلك تماماً، يحرك مشاعرنا وبهزها، وفي الوقت نفسه يغني شخصيتنا حين نقرأه، ويجعلنا نكتشف أشياء لا نستطيع التعبير عنها بوسائلنا الخاصة. وقصيدتك هي بالضبط من هذا النوع، غنية، تهز القلب وتدعو إلى الحلم والتفكير.

هكذا ابني العزيز، كنت أود أن أحدثك طويلاً عن «الشجرة الدامية»، لأن الحديث عنها لم ينضب بعد، هناك الكثير مما يمكن أن يقال عنها، ولكن لم يبق لي متسع من المكان. سنعود للحديث عن كل هذا عندما تبعث لي بقصائد أخرى.

أتمنى ألا تجد صعوبة كبيرة في فهم ما أقول، وإذا كان الأمر كذلك، فحدثني عنه.

أعانقك بحرارة، يا شاعري الناشئ. إليك.

1977

17 يناير 1977

حبيبتي،

مازلت في انتظار مراسلات الأسبوع الماضي. لكن لا بأس، لتحدث قليلاً هذا المساء. أشعر ببداية نزلة، رأسي مثقّل، حالة شبه ثمالة. لم أنزل إلى الساحة هذا الزوال. بقيت ممدداً، فكرت كثيراً فيك، استرجعت لقطات من الماضي، ثم من الفترة التي قضيتها مريضاً بالمستشفى. كنت أجلس خلف النافذة، وأرى أشجاراً حقيقية تعبت بها الريح، سيارات، مازّة. كنت أتبع الشمس وهي تغيب، وميلاد النهار. كنت إنساناً عادياً تقريباً. حضورك الذي يعجز اللسان عن وصفه، كنت أكتشف حناناً لا يخطر على بال، يكاد لا يطاق.

أجل، مثلما نجد حدّاً إذا بلغه الألم تحوّل إلى شيء مجهول بالنسبة للإنسان، فإن نوعاً من الحياة الكثيفة يكتسي حجماً غير اعتيادي. وبالتالي فإنه يتجاوز قدراتنا العقلية والحسية. كم من مرة استطعنا هكذا تلمس اللانهاية!

في منطقة أبعد من متاهات ذاكرتي، تنبعث صور الحياة اليومية لما قبل تاريخنا، ثم لما بعده، أمدك ذراعي لنزهة قصيرة، جولة بالسيارة ليلاً دون هدف محدد للاستمتاع فقط بطراوة البحر وهديره، ثم عند العودة للمنزل، التمتع بمنظر الأطفال وهم نيام. يا له من منظر رائع هذا! في مثل هذه اللحظات كم نشعر بقوة جمال الحياة، وبأنها تستحق أن نكافح من أجل تحقيق انتشار بهاء هذه الطمأنينة على أوسع نطاق. كنت بدون شك تشعيرين بذات الشيء. حلاوة الحنين، حبيبتي الحلوة (...).

انتهيت أمس من قراءة «ماريانا بينيدا» وبخلاف ما عبّرت عنه في رسالتي الأخيرة، لقد أعجبتني هذه المسرحية لـ لوزكا. إنها تتفتح على آفاق أكثر اتساعاً والتزاماً من الأخريات. تذكّر تلك اللازمة في مطلع ونهاية المسرحية.

«أي يوم حزين في غرناطة

بكت له الصخور رقة.

ماريانيتا تلفظ أنفاسها في المشنقة.

الموت ولا الخيانة».

جميل، أليس كذلك؟ (...).

22 يناير 1977

زوجتي الحبيبة،

أولاً رسالتك المؤرخة بالسادس عشر. «إعطاء القدرة على الإبصار». يمكن أن يتحقق بأشكال مختلفة، وليس وقفاً على الشعر المكتوب. يخونني التعبير. ما أردت قوله هو أن الشعر الأصيل لا يمكن أن يصدر إلا عن منبع الاقتسام، والتأجج الغنائي للوفاق. الشعر، على غرار أي فعل إبداعي آخر، يتولد عن هذا. أن تبصري بعينيك، أن تقتسمي معي حنان العالم. أي حضور، حبيبتني! فجأة ألغيت الأسيجة، أسوار قلعة المنفى. تلك المشاعر التي حدثتني عنها. أجل، أدرك أننا محرومون من نوعية من الحياة في الوقت الراهن، لا يمكن تحقيقها، على الأقل بالمقارنة مع ما سبق أن عشناه وشعرنا به. أكيد أن هناك نوعاً من الانكسار الذي يعطل بعضاً من قدراتنا، ويمزق جانباً من حساسيتنا. إنه يشبه كثيراً ذلك الانكسار الذي يفرق كل البشر المكبلين بأغلال العمل المستلب، ويحرّمهم من التمتع بالاكتمال. مع ذلك الفرق الكبير المتمثل في أننا واعون كل الوعي بهذه المسألة، وأنا نستطيع في لحظات متميزة تكسير الانكسار، تجميع شتاتنا من جديد، والعيش على وتيرة الوفاق الجنونية.

لو عدت في يوم من الأيام بين أحضانكم، هل سأشعر حقاً بالغرابة؟ هذا ما لا أعتقد. كثيراً ما تخيلت هذه العودة، رسمت وتصورت ما يمكن أن يسمى يوماً نموذجياً من حياتنا المستقبلية: ما سوف نقوله، نفعله، حركاتنا، هيئاتنا، دردشاتنا، تناقضاتنا الصغيرة والكبيرة، هزل ودعابة، ضحكات، عراكات صغيرة (مصطنعة بالطبع مع الأطفال) وكل الباقي. في كل مرة كنت أرى نفسي متكيفاً تماماً، مساهماً في كل شيء، أشبه قليلاً الرجل الذي كنته قبل المحنة، وكثيراً ذلك الذي أصبحته منذئذ، سأحتل مكانتي الطبيعية بجانبك، كي نرفع عالياً قبة السماء بكاملها (...).

26 يناير 1977

جوسلين،

رسالتك المؤرخة بالتاسع عشر. أتصور تماماً جلساتك بالمستشفى، دوامة حقيقية. أعرف جيداً الديكور، الطقوس، الحوارات. ألاحظ كم أنت متأثرة بكتاباتي، يمكن لعلاقتك بها أن تشكل موضوع دراسة طريف. في الواقع، لم أعد أعرف ما رأيك في تلك المرحلة من أعمالي. أما أنا فكثيراً ما أفكر فيها، خصوصاً في رؤية «العين والليل». يبدو لي أن تجربة جد مكثفة تكمن فيها. إنها تجربة ما قبل تاريخي، وبوادر تحولي وميلاد الوعي لدي. لا يستبعد أن أعود إليها في يوم من الأيام، أن أستأنف هذا العمل بمفهوم المحافظة – التطوير – التجاوز. سيكون ذلك بمثابة كتاب عن كتاب، تساؤل حول التساؤلات الأساسية لهذه الرحلة. مرة أخرى العرائس المتداخلة، التعميقات المتوالية. لعل هذه إحدى التوجهات الأساسية لفكري. في هذا الصدد، أخبرك بأني أفكر في عدة مشاريع، تدهمني في الآونة الأخيرة مجموعة من أفكار التأليف: روايات، مسرحيات، قصائد مطولة. أتصور تمفصلاتها، اتجاهاتها، لكنني مازلت عاجزاً عن الانكباب على العمل، وعلى تحقيق هذا بشكل ملموس. السجن لا يتيح العمل المتواصل المنظم الذي أحلم به. أجل، إنني أحلم بتخصيص كل وقتي لهذا (ولو لفترة محدودة) 8 أو 10 ساعات في اليوم. أن أنظم حياتي حسب هذا، وأقول هكذا خلاصة ما تجمع في داخلي وأصبح يلح في المطالبة بحقه في الوجود، في الاقتسام. أخبار حياة السجن هزيلة: أمطار، قراءات. لقد روى لي رفيق حكاية جميلة جعلتني أفكر في كتابة قصة للأطفال انطلاقاً منها: إنها حكاية بربرية تتضمن مواجهة بين شهري يناير وفبراير، سأعمل على تحريرها. وستكون هديتي لُقُدس بمناسبة عيد ميلادها (...).

28 يناير 1977

زوجتي الحبيبة،

أن أمدد تلك الزيارة الرائعة. نادراً ما تتاح لنا فرصة نخصصها للصمت، لحلاوة التأمل، مما جعلني أنتعش بالإنصات إليك على ذلك النحو. أي عذوبة في ببداء قلعة المنفى هذه! كنت في منتهى النشاط، مثلما تكونين عليه في أحسن أيام عنادك كمواطنة في قارة الأمل. ثم... كدت أعبر لك عن العديد من الإطراءات. لكن هذا لا يمكن أن يقال إلا همساً، في حضن الحنان. تصوري حناني. قلت لك قبل قليل إنني بدأت في الآونة الأخيرة أتصور الطرف الآخر لمحنتنا، وهذا ما لم يكن يخطر لي على يال من قبل. فالعودة (على الأقل بمعناها المتعارف عليه) كانت تتواري بعيداً في زمن خارج نطاق الإدراك. في حين أنها تتراءى لي الآن بشكل مخالف تماماً. أحس أنه لا يزال هناك عمر طويل قبل العودة، لكنه عمر أرى حدوده وأبعاده، لأنني قضيت منه عمراً آخر مماثلاً. وأعتقد أن هذا

الإحساس سيتعمق ويتجلى أكثر عندما سنطوي سنة أو سنتين أخريين. أتمنى أن تشاطريني عن قريب إحساسي هذا.

أسف بخصوص البرقية التي بعثتها لياسين، والتي لم تصل. إذن أجدد له أجمل متمنياتي. حقاً، إن طفلاً يبلغ الثانية عشرة، وعن قريب مراهق، هذا ما يحدث شعوراً غريباً لدى أبوين في عنفوان شبابهما وخصوصاً مقتنعين إلى أقصى حد بفتوة ربيعهما الصامد. لنبق واثقين من نفسيينا، رغم كل شيء، لنحذر المركبات. حتى لو أصبحنا جَدّاً وجدّة، أعتقد أن هذا لن ينال منا أي شيء. عَهْدُ شاعر. ترين، حبيبتي، أن الشعر الشامل الذي نؤمن به، هو ما يدعى بـ إكسبير الشباب الأبدى (كم يستهويني طنين العبارات أحياناً)! أوّمن في هذا بإصرار. أقبل يدك.

منذ فترة طويلة خصصت كل قراءاتي الأدبية لأعمال «لوركا»، أتيت على نهاية كل مسرحياته وأركز جهدي حالياً على الشعر. لعلّي أصدرت أحكاماً قاسية على هذا المسرح، في إحدى رسائلي السابقة. لم أكن قد قرأت بعد «ماريانا بينيدا» والمسرحيات القصيرة. لهذا فإنني ميسّعد لأن أطف أحكامي في هذا الموضوع. أعتقد أنني لم أعتبر – حينذاك – إلا جانباً واحداً من المسألة: ميول لوركا إلى اختزال المرأة في نوع من القوة الطبيعية، تحركها أساساً الغريزة البيولوجية، أي تحقيق الوظائف الملازمة لها. كنت قد أهملت (وهذا ما أشرت له في جوابك) الوظيفة النقدية لهذا المسرح على الصعيد الاجتماعي. هذا بالإضافة إلى أن هذا المسرح، في إطار القضية النسوية، يمثل مثلاً حياً على انتفاضة المرأة، وإعادة النظر في كل الأغلال التي تثقل كاهل النساء، وتحول دون تحقيق ذاتهن.

إن كون المرأة هي التي تحتل مقدمة الخشبة في كل مسرحيات لوركا، لا يخلو من معنى، هذا ناهيك عن الخصال الشعرية لهذه المسرحيات، ذلك الحنان الرائع تجاه العالم، الأرض، ثقافة الشعب، ذلك التأكيد على كل المثل التي تعطي معنى للحياة. هكذا أدارك إجحافاً صغيراً.

لا أستطيع التعبير إلى أي حد أُجسُّ بنفسي قريباً منك هذا المساء. إذن عليك أنت أن تصليني في هذا الصمت الذي يجب الاستغناء فيه عن الكلام. لك دوماً.

30 يناير 1977

صديقتي نيكول،

شهور دون أن أقرأ شيئاً منك، وأعرف أن لا مسؤولية لك في هذا. لكن الأساسي هو أن أستطيع الإنصات إليك من جديد (...). هذا التحدي الدائم الذي نقتسمه لأننا كما تعلمين، محتاجون لكل ذكائنا، كل حساسيتنا لتقويض هذا العالم القديم، هذا الجذام الذي يفتال الحياة، يجمد كل قدراتنا البشرية. ومن ثم ينبغي لنا أن نسير، نسير، بالعناد العجيب لجنسنا. بإبائنا الشمسي (...).

ماذا أقول عن سجنِي الرتيب؟ تمرُّ ثلاثة أو أربعة أشهر دون أي حدث ملحوظ. لكن ماذا يسمى حدثاً؟ بالنسبة لي شخصياً، هذا لا يعني شيئاً. ليس هناك إلا مدُّ فكري، وانشغالي بما يمس من قريب أو بعيد مبررات حياتي، مما يبرر عنادي في الإبقاء على أكبر عدد ممكن من النوافذ المفتوحة على مسيرة شعبي، على الواقع الحي. وهذا ما يجعلني في كثير من الأحيان أشعر بأنني لا أسكن جسداً محدداً بحاجيات وغيرها من المتطلبات المادية، بل إنني أشعر وكأنني قلب أو دماغ ضخم عميق الجذور. إن إدراكي للمكان والزمان يعتربه الخلل دون أن يتخذ ذلك بُعداً مرضياً. كل ما في الأمر هو أنني لست في القبر الذي يسعون إلى دفني فيه، وخصيي واستطفالي. أنا موجود، أو بالأحرى أرحل في أرجاء أخرى مدهشة، ودليلي فيها هو عشقي للمستقبل.

عودة إلى الحياة اليومية. أقرأ وأدرس باستمرار. أحياناً إلى حد الغثيان، لا أستحمل الكتب. فأقرر فترة «عطلة». وعند انتهائها، أستعيد بكل بساطة عاداتي المألوفة. حالياً، أقرأ الكثير من الأعمال باللغة الإسبانية، خصوصاً مسرح وشعر لوركا. هل تعرفين أغاني لوركا؟

إلى أن أقرأ لك، عزيزتي نيكول. أشد على يدك وملء عيني شمس.

4 فبراير 1977

زوجتي الحبيبة،

يوم حافل هذه الجمعة، بدأ يذكرني بطفولتي، حيث كان لهذا اليوم معنى آخر. كان يوم عيد، وجبة شهية، «مصروف» للنزهة أو لسينما الزوال، ثم على الأخص، اجتماع الأسرة كلها، ونسيان مؤقت لكل خصومات الأسبوع. كان يوم تسامح بكل معاني العبارة. أحس بشيء من هذا. الجمعة، تمثل أولاً، منذ الاستيقاظ لازمة تتكرر طول النهار. ثم «الوضوء الكبير» وأخيراً أجمل يوم للفسحة. يفكر المرء أحسن وهو يمشي، الحوار الداخلي ينطلق ويتمفصل على وتيرة الخطو. رائع منظر السماء، حركة السحب، تحليق الطيور. يكاد لا يشعر المرء بأنه سجين. العالم الخارجي يقترب مثل تَفَسٍ وجداني كبير. يوم

الجمعة هو أيضاً، يوم عثرات وفتلات اللسان، يوم الضحك، ومن ثم، يوم إخاء كبير.

كم أستحق في نظرك. على إنشائي الجميل هذا؟

أدعوك بكل فرح إلى الضحك من مواقفي الحالمة.أحبك.

ولكن، كم أنت عصبية! إنه جزء من مزاجك الذي أعزُّ. لكن، مبدئياً، لا يمكنني أن أوافقك عليه. لنحلل هذا. أولاً، عندما تكونين في حالة مماثلة، تحركين مشاعري. وتجعليني أراك كاملة، قريبة أشد القرب وربيعية. لكن من جهة أخرى، كل هذه الطاقة التي تبذرينها، بسبب أشياء تافهة في أغلب الأحيان، ليس معقولاً على أي حال. من الواجب علينا أن نحتفظ بطاقتنا لما هو أهم، أن نتحكم في أنفسنا إلى أقصى حدٍّ ممكن. عند هذا الحد لست أدري إن كان ينبغي عليّ أن أميل نحو التعبير الحُرِّ، أم نحو الانضباط الذاتي. على كل حال، لماذا يجب الفصل؟ أحياناً تبدو بعض التناقضات المعلقة جميلة في حد ذاتها. أليست طريقة بارعة هذه التي بررتُ بها تصرفك؟

بسمتك، حبيبتي، يدك، نبض فرحك (...).

7 فبراير 1977

جوسلين،

لحظة هدوء رفقتك. كان يومي مضطرباً، حقرات صغرى تتخلل حياة السجين ولا تستحق الذكر. عندما نعتبر الإنسان، فإن السجن يمكن أن يُفرِّزَ الأحسن والأقبح في الوقت نفسه. عندما يسقى الصلب يكتسب مزيداً من المتانة، أما مزائج المعادن الفاسدة فهي تتفتت بشكل بشع. الحفاظ على الأمل رغم النوائب. كل حلقة من صيرورة التغير تقذف بالحثالات إلى مزيلة التاريخ، وتحتفظ بالنبات الحية الواعدة بالجديد، أحجار زوايا المستقبل. لكن دعينا من هذه الزوبعة في كوب ماء.

لم أتوصل بعد بأي شيء منك منذ 26، وهل وصلتك رسائلي المؤرخة بـ 22 و26 و28 يناير، ثم الفاتح والرابع من فبراير؟ بدأت المراسلة تتعثر من جديد.

لم أقم بشيء يذكر باستثناء قراءة «آنا كاريننا». كانت بالنسبة إلي فرصة ترفيه بمعنى الكلمة. عشت طيلة ثلاثة أيام خارج الزمان والمكان السجينين.

كنت أجول في الفضاءات الشاسعة التي تفتحها الرواية الروسية. فضاءات مزدوجة: مادية، تتيح العَدْوَ الجنونيَّ عبر الأرياف، ونزهات القنص التي يتفَنُّ «تولستوي» في وصفها (تذكرين مشهد القنص الرَّائع في رواية «الحرب والسلام؟»). ثم فضاءات سيكولوجية، جحيم وجنات داخلية لـ شخصيات الرواية. هناك مشهد قوي جداً (ولادة كيتي) جعلتني أسترجع إحدى اللحظات من بين أقوى وأصدق ما عشناه من حنان. أتدريين أيُّها أقصد؟ تلك اللحظة التي كان فيها المُكُّ يلوب جسدي، حيث جعلتني أقاسمك أحد أعظم أسرار الحياة. في العمق يكاد هذا الإحساس يكون مماثلاً لما يشعر به المرء خلال التَّعذيب، حيث الولادة تعني الكرامة المصانة. لقد أعجبتني كثيراً رواية تولستوي، إنَّها صفحة تاريخ مفتوحة حيث الوثائق، والأرشيفات والشهادات هي رجال في خضم الحركة، رجال أحياء لأنَّهم مصنوعون من عجينة الواقع الحي، ملتحمون بالمصالح التي تحدّد سلوكهم، أفكارهم، والتي تتجاوزهم كأفراد. نسبياً، يمكن القول بأن اكتشاف الواقعيَّة، كما تجلت في رواية القرن التاسع عشر، كان له نفس الأهمية في تطوير العقل البشري التي كانت لبعض القوانين العلميَّة التي أتاحت تقدُّم العالم الحديث. على أي حال، فإن هذه الاكتشافات وهذا التقدم ليسا عديمي الارتباط بينهما. بالعكس، هناك تفاعل وتلازم متبادلان. حتى وإن كانت هذه السيرورة لم يتم استجلاؤها بعد بالشكل المطلوب.

صحتي متدهورة بعض الشيء منذ يوم الجمعة. أعالج نزلة وبداية التهاب روماتيزمي. جسمي مقياس حساس لتحويلات الطقس، لذا أتأثر بأدنى تغيير يطرأ (...).

حبيبتي، أنتظر رسائلك. الأيام تمضي. هذا فظيع، وما يحزنني في كثير من الأحيان هو عجزني عن ملئها بكل طاقاتي، واستثمار كل ثانية منها. إنه ضياع، ذلك لا ريب فيه. وكل ما يمكن فعله هو العمل على الحد من هذا الضياع إلى أقل ما يمكن. نوع من الضريبة! (...).

28 فبراير 1977

زوجتي الحبيبة،

كانت مفاجأة ساوَّة حقاً، وكم أسعدتني. لم نكن في حاجة إلى الصراخ. لقد استعدت بعض نبرات صوتك التي أحرم منها عادة. كما كانت هناك نبرات جديدة. لم أكن أعرف لديك هذا الصوت العميق، القوي والمرتج في آن معاً، وهذا ما يجعلني أرى فيك أحياناً ملامح بطلة خشبة، تتقن ما هو تراجيدي –

كوميدي. إنهم يغتالون «موزار» أليس كذلك؟ الآلة الجهنمية لعهد البربرية. لا بأس، ما ضاع منا حلم إلا واكتسبنا أحلاماً.

يومٌ رائع هذا، أضاء كلَّ شيء من حولي، والرأس والعينين. إنَّه يوم عيدك، وبالتالي عيدي. (39) إنَّه يوافق الربيع الذي هو برجك الحقيقي. لا أدري لماذا أثنى عليك لهذا الحد وفي كلِّ حين. إنَّ الشاعر فيَّ هو المسؤول، وكذلك عنايتي المتطرفة.

افتراضي أنك من جديد في نقطة البداية. هل ستحيين شاعراً؟ أجيبي. أما أنا فأعترف بأنَّه لو كان لي الاختيار لما اخترتُ غيرك.

فرحة الكتابة إليك تلازمي دائماً. أن أكتب لك معناه انهيارٌ مؤقتٌ لمنفائي، ملاقاتك خارج الجدران في قارنتنا الفريدة.

قلت لك إنني رغم استعدادي وتأهبي، لم أستطع بعد أن أفعل شيئاً يذكر. يخيم جو العطلة والدردشة كم أودُّ أن تكون لي براعة حاك كي أبعث يوماً كلَّ هذه التجربة، تاريخها المتقلب، خصوصيات الرجال، الحقارات والثروات. وحتى إن لم تكن هذه التجربة أصيلة متميزة فإنها على الأقل ستتميز بصدقها. لكنني لست متيقناً من إمكانية تحقيق هذا العمل على الوجه الأكمل. ليست لي أي موهبة في الحكى. إنَّ ما يستهويني ليس هو تسلسل الأفعال الخارجية، لكن الحركات التي تتسبب في ميلادها، والتي تبعثها وتفسرها. تبدو لي الإجراءات والآليات التي يقتضيها الجنس الروائي مضجرة. كم من لف ودوران لضبط ما هو أساسي، في حين أنَّ الشعر لا يحتاج إلا لبعض جمل للتعبير عن الأمر نفسه. لكن رغم هذه التحفظات، أعني تماماً أنَّ الرواية وحدها اليوم قادرة علي أن تمس أكبر عددٍ وبالتالي بلوغ الأهداف المتوخاة. ممَّا سيدفعني ربما يوماً ما إلى تبني، جزئياً، الكتابة الروائية. لكنَّ الشعر الذي يجب أن أعتمده حالياً هو: كفى تنظيراً ومزيداً من الممارسة، إنَّما في أعماقي أنا متيقنٌ من أنَّ لا شيء يضع ممَّا يستحقُّ أن يقال (...).

8 مارس 1977

جوسلين،

(...) إنني أمرُّ بمرحلة غريبة هذه الأيام. نوع من القحط الموسمي. إذن ليست فترة حيوية عالية. أستسلم للتيار، مع علمي بأنَّ هذا مؤقت، وبأنَّ سلبياته ليست جسيمة. لعلي لا أوظف أكثر من 10 بالمائة من طاقاتي. الصورة جافة،

لكنها تعبر جيداً عما أشعر به من حينٍ لآخر. اطمئنتي، هذا لا يطول أبداً. تعلقني الجنوني بالوجود، بكل ما هو حي، يمكنني دائماً من تجاوز هذه الحالات. حينئذٍ أتب خارج خنادق الفراغ هذه، أنطلق لألبي كل النداءات، أنظر، أنصت، دماغي يشتغل على وتيرته الطبيعية، أعشق حبيتي، أعذري هذه الشكاوى. إنها صادرة عن رغبتني في أن أكون شفافاً بالنسبة إليك يوماً بعد يوم، في السمو والانحدار. في الرّخم والفراغ. كيف أجعلك تتلمسيني حياً أمام عينيك إن لم أخبرك بكل هذه المتغيرات التي تشكل جزءاً مهماً من نسيج حياتي اليومية؟ أخشى فقط من حينٍ لآخر، أن تبدو لك هذه المجهودات، التي أبدلها كي أخبرك بحضوري، مبالغاً فيها ومعقدة. لكن افهميني، أنت تحققين ذاتك كلها في أفعالك، في حين أنه بالنسبة إلي، يتموضع الحدث على صعيد الفكرة، الإحساس. إنها أفة انعدام الممارسة، المنفى الداخلي إن شئت.

أترقب زيارتك المقبلة بفارغ الصبر. حنيني إلى الأطفال قوي. أحتاج إلى سماع أصواتهم، إلى رؤية ابتساماتهم، إلى ضمهم إلى صدري بحنان.

يحزنني انقطاع المراسلة مع الأطفال. أتساءل ما السبب. قلة الوقت لا تبدو لي مبرراً كافياً. تميل علاقاتنا نحو الركود. إنها تتوارى تحت قشرة العادة. لا بد من إيجاد الوسائل لبعثها، لجعلها أكثر فاعلية، سواءً على المستوى العاطفي أو الفكري. أن تكون هذه العلاقات موضوع انشغال، تساؤل، أن تكون مثيرة على جميع الأصعدة. لنفكر جميعاً في هذه المسألة. إنها تُقلقني كثيراً.

الليل يُرخي سدوله. الجدران تكتنفها حرارة الإخاء. المحن الملتحمة تولد قوة كبيرة⁽⁴⁰⁾ كل شيء على ما يرام، وأنا أحبك، وردتي الربيعية التي لا تذبذب. إنك تنبضين بشدة في داخلي.

21 مارس 1977

ابني العزيز،

لنتحدث أولاً عن القصيدة التي بعثت لي بها مؤخراً. لقد قرأتها مرات عديدة وإني لأجدها جميلة حقاً. لقد تغيرت طريقتك في الكتابة وأصبحت تعبر بطريقة أكثر بساطة من السابق. بالإضافة إلى هذا، وعلى عكس قصائدك القديمة، حيث كنت تريد أن تقول كل شيء دفعة واحدة، مما كان يعكس نوعاً من الاضطراب، يتجلى من هذه القصيدة أنه أصبح لك هدف واضح، وأنت فكرت في الطريقة التي توصلك إليه، وأنت قد وجدتتها أخيراً. هذه الوسيلة هي مقارنة بين وضعيّة الطائر في القفص، وبين وضعيّة كل الناس الذين يتألمون

ويطمحون للحرية ولحياة حقيقية. كل هذا يبين أنك فكرت جيداً فيما يحيط بك، وبدأت تشعر أن حياتك ليست مقطوعة عن الآخرين، وأن مشاكلك هي مشاكل كل الناس. إني لسعيد بهذا التحوّل الذي طرأ عليك.

وإليك الآن بعض الملاحظات البسيطة: الإنسان – الطائر في قصيدتك يتحدث عن حياته وعن المعاملات السيئة التي يتلقاها، كما يتحدث عن ضياع حرّيته. وبعد ذلك يفهم تدريجياً أنّ وضعيته تلك ليست إلاّ وضعيّة مؤقتة، لأنّ الإنسان الحقيقي، الطائر الحقيقي يتمكن من استرجاع حرّيته أخيراً بإصراره واستماتته. ولكن عبر مسار أفكاره، يتناقض الإنسان – الطائر مع نفسه، حين يقول مثلاً:

«السّلام أبداً لن أحصل عليه

الحرية أبداً لن أحصلَ عليها»

وقبل ذلك يقول الشّيء نفسه:

«حرّيتي أريدها

لكن لن أحصلَ عليها»

مع العلم أنّه في آخر القصيدة، يؤكّد العكس تماماً:

«هؤلاء النّاس الحقيقيون...

سيقاتلون...

وسيطفرون بحرّيتهم..

هذه الحرية ستعيش

وتبقى إلى الأبد».

تفهم لماذا أقول إنه يتناقض مع نفسه. ولكنني مع ذلك أرى جيداً ما أردت أن تقول: لقد كان الإنسان – الطائر في البداية يزرع تحت نير الواقع ويشك في إمكانية استرجاع حرّيته، ولم يستعد الأمل واليقين في ذلك إلا في الأخير، حيث تأكد أنّ كلّ شيء سيغيّر. إذا كانت هذه هي الفكرة التي كنت تريد التعبير عنها، فقد كان عليك أن تجبّب الطائر من أن يجزم بشكل قطعي: «الحرية أبداً

لن أحصل عليها». كان عليه مثلاً أن يتناول الفكرة في شكل سؤال: «هل أحصل يوماً على السلام، على حريتي؟»

حدّثني عن رأيك في هذه الملاحظات، وإذا لم تكن متفقاً معي فاشرح لي ذلك (...).

إليك أيّها الشَّمس الصَّغيرة التي تكبر بسرعة.

22 مارس 1977

حبيبتي،

أمس، كتبت للأطفال كما اتفقنا. كنت قد اقترحتِ عليّ في رسالتك ما قبل الأخيرة «ترك باب مفتوح على اهتمام ما» لجعلهم يتحفزون بصفة أكيدة. لقد قمتُ بما في وسعي، وأنا أشعرُ بأنني أتلمّس الأمور ليس إلّا. في الواقع، اكتشفت بأنني لا أتوافر إلّا على فكرةٍ جدُّ مختزلة عن انشغالاتهم المحتملة، عمّا يمكن أن يستقطب اهتمامهم. في هذا الميدان، لا يمكن الاكتفاء بمعلومات نظريّة عامّة أو نوايا حسنة. محتمل ألا نرى المشاكل المحسوسة المُعاشة، إذن مساعدتك لي ضرورةً ويمكنها أن تتم على مستويين: أوّلاً في إخباري بتطوّرهم على جميع الأصعدة، بانشغالاتهم الأساسيّة في كل مرحلة، وكذا عمّا تقومين به تجاههم بقصد ضبط علاقاتهم بي. في هذا الصّد، يبدو لي مفيداً أن تفتحي معهم من حين لآخر نقاشاً تخبرينهم خلاله بوضعيتي، بما أقوم به بصفة عامّة، وتناولين فيه معهم قضايا عامّة وتشرحين لهم وجهة نظري فيها، بعبارةٍ أخرى ينبغي أن أكونَ حاضراً في كل نقاشاتكم كمتحاورٍ حقيقي. وكتكملة لهذا، أودُّ أن تقرئي لهم الرّسائل التي أبعث بها إليك، أو على الأقل الفقرات التي يمكن أن تهّمهم، فمشكل اللغة ومستوى التّجريد يمكن أن يسوّى. أنتظر منك رأيك في هذه الاقتراحات.

أقبل الرّبيع كما تعلمين. كافتتاح، أمطر الجو اليوم، لكنّ السّماء على الخصوص كانت شديدة التّقلب، سحب بيضاء ورماديّة جميلة تتلاحق مثل قطع مذعور، خطاطيف وقحة لا تتردّد في التسيّر بين المارّة، هبة ريحٍ علية تنعش بشرة الوجه عند ملامستها. شاهدتُ أيضاً مرور نورسة مُترامية الجناحين، وفجأةً بدأت السّاحة ترتج مثل سفينة، تراءى لي البحر. كان الوهم قوياً إلى درجة أنني بدأت أسيتشق رائحة البحر القويّة وأتلذذ بمذاق الملح على شفّتي. حياة زاخرة بالشّهب في الذاكرة، في جسدي الخافق. أجل، إنني أعرف على هذا الموطن الآخر. كم لي من مواطنٍ وجدانيّة!

كيف أحوالك، حبيتي؟ الربيع يوافقك جيداً. أتمنى أن تكوني قد استرجعت كامل عافيتك.

أما أنا ففي أحسن حال. لا شيء غير المألوف. مرّت خمس سنوات. شعور بقطع شوطٍ ما. أتعرّفين الصُّورة التي يستعملها السجناء في هذه الحالات؟ إنّها صورة جبل يتسلقه المرء، فيبلغ قمّته ثمّ يبدأ في الانحدار. ها أنا إذن قريباً جداً من السّماء، إنّهُ أفضل موقع يسمح بالرُّؤية الشّاملة لدرب المحنة. إلى الأمام إذن نحو هذا التّزول. لنحذر الدوار، فالوقت غير موات.

أترين حبيتي، كلُّ شيء على ما يرام. المسيرة متواصلة، مع فارق هام هو أنّ الطريق خالٍ من الأسرار بالتّسبة لنا. رجل/ امرأة جديداً، أجل، نحن هكذا، وليست هذه غاية، لكنّها مجرّد منطلق، منطلق جيد. كرامة سليمة، حُب وفرحة. إنّنا عبارة عن عطاء من قمّة الرّأس إلى أخصّ القدمين. إنّنا ننبث ونزهر وسط جسد شعبنا. إليك إذن يدي.

20 أبريل 1977

ابنتي الحبيبة،

(...) إنّك لا تتصوّرين كم يسعدني أنّ أستلم رسالة منك، إنّها بمثابة حفلة صغيرة. إذن ما ترغيبين في تحقيقه هو أنّ أخرج من السّجن. «وأن نعيش سعداء كما كنّا من قبل»، هذا ما قلّته في رسالتك. نعم، بنيّتي، سوف تتحقّق هذه الأمنية إنّ عاجلاً أمّ آجلاً. يلزمنا فقط مزيداً من الصّبر. ولكن لتفاهم: الصّبر، لا يعني أنّ ننتظر وأن نحزن من حين لآخر. إنّ الصّبر، كما أفهموّه يعني أنّ نعرف كيف ننتظر بشجاعة، كما أنّه يعني أنّ نعمل ونتعلم كيف نتطلع نحو الأحسن، وهكذا حين سنلتقي من جديد لن يكون الأمر كما كان من قبل فقط، بل أحسن من ذلك. سوف نتعاون أكثر فيما بيننا ونعمل على فهم بعضنا البعض بشكلٍ جيّد، وكلّ واحدٍ منّا سيدلي بأفكاره ومقترحاته حتّى يحسّ الجميع بأنّ له دوره وأنّه يساهم بشكلٍ نافع وفعّال. سوف نكون كما سبق لي أنّ قلت مرّة لجوسلين، كأصابع اليد الواحدة. انظري إلى يدك، كلّ إصبع، صغيراً كان أو كبيراً، له دوره وأهميّته الخاصّة، وإذا ما أزلت واحداً منها فلن تستطيع يدك أن تحسن القيام بأيّ عمل، وعلى العكس من ذلك، فإنّ اليد بأصابعها الخمسة أداة رائعة. إنّها تتمتع بمرونةٍ كبيرة وبخفّة ودقّة كبيرتين. هكذا نحن الخمسة (في أسرتنا الصّغيرة). وإذا فكرت قليلاً فستجدين أنّ ما حدث لنا ربّما هو أمر إيجابي، فقد تعلمنا كيف نحب ونحترم بعضنا البعض بشكلٍ أحسن من ذي قبل. إنّ نفهم، فذلك يقوّي إرادتنا في تغيير الأشياء التي تمنع الحياة من أن تصير

أكثر عدالةً وجمالاً (...). أضُمَّكَ إلى صدري بحرارة بالغة وأداعب رأسك بحنان.
إليكِ ابنتي العزيزة. اکتبي لي.

23 أبريل 1977

عزیزتي نیکول،

رسالتك المؤرّخة بـ 15 أبريل أمامي مثل أعجوبة، بعد انقطاع دام عدّة شهور.
هيا، لا يهم هذا الصّمت الاصطناعي. لم تنفكي تكلميني. أعرف هذا، وإِنَّه كلُّ
ما يهْمُنّا. رجال/نساء جدد، إِنَّ لنا نحن أيضاً معجزاتنا، لكنّها عقلانيّة، ملموسة،
تحدّي كلّ الاستلابات بالمعنى العميق للعبارة. ها هو التّبع يتفجّر من جديد،
نافورة صداقة رائعة لا تُقهر. يا لها من طراوة حيويّة! جميل أن يبسط المرء
كفه، أن يرى فيها التّقاء أوردّة الفؤاد، أن يوقف للحظة زمنَ جنون السّلب
المنتظم، أن يركّز نبض العالم في دقات قلبه، أن ينبعث بعنف (...).

ليلة سجنية أخرى. مرّت خمس سنوات. أصبحت من قدماء المساجين. أحياناً
أشعرُ بالمرّ العادة، شعورٌ مزعج بالتعوّد على هذه الحياة واعتبارها «طبيعيّة»،
أحياناً أقول. أجل هذا السدّ المنيع بين الأنا والذّات الذي تتحدّثين عنه. لكن لا
يتعلّق الأمر بي، أتخاشى أن أضع نفسي في مركز أيّ شيء. بل إِنَّ الأمر يهْمُ
جبهة أملٍ كاملة ينبغي الحرص عليها، حمايتها والدّفْع بها بدون توقّف.

الأحوال بخير، صديقتي، سواء معنوياً أو غيره. أقرأ حالياً «خريفَ البطريق» لـ
جابريل جارسيا ماركيز. هل قرأتِ «مائة عام من العزلة» لنفس الكاتب؟
أنصحك بهذا بالحاح. لقد كان أدب أمريكا اللاتينية من بين أغنى أكتشافاتي في
السّنوات الأخيرة (مانويل سكورزا، خوليو كورتزار، أوتيرو سيلفيلو أليخو
كاربانتيه. هل تعرفين نيرودا، نيكولاس جيلين؟) ماذا تقرئين حالياً؟ (...).

13 ماي 1977

زوجتي الحبيبة،

نوعٌ من الفرح المُتميّز هذا اليوم. مرّأك بعثت في رعيشة الحياة الحقيقيّة. آه،
سأكون غنائياً إلى أقصى حدّ، تلك الغنائيّة المحرقة التي تعرفينها لدي، عندما
أكون «حباً من قمة الرّأس إلى أخمص القدمين»، عندما تنبضين بشدّة في
داخلي، وتقذفين بي خارج كلّ الممنوعات، خارج درع معيش المنفى، خارج لا

جاذبيّة الزّمن السجني. ها هي يدك تمحو الكسر، وأستعيد حيويّتي كرجل تام،
نسغي الهائج، قدراتي على الرُّوبا. الانبعاث، ينبغي أن نحول اتجاه هذه الكلمة
لفائدتنا، أن ننقشها بزخمننا. كم هو عادل أن أحبّك!

أغلق الباب. اللّيل يرخي سدوله من حولي، لا شيء تغير، الكتب لا تزال في
مكانها، أنا هنا على مصطبة التّوم. هذا الشّعور يأتي على متن مركبة فضائيّة
تحلق في اتجاه قارّة جديدة، قابلة للحياة. مغصّ المجهول والسّعادة المرتقبة.

لا بدّ من النّزول على الأرض، لكنّ لألّقاء من جديد (...). سبق لي أن حدّثتك
مؤخّراً عن «أطفال كسيشا»⁽⁴¹⁾. أذكر أنّي أديت حكماً قاسياً على هذا الكتاب
الذي لا يزال يشكّل في نظري كاريكاتوراً للأدب الجديد الذي ينبغي إبداعه. لا
يقتصر الأمر على تلك الصّورة اللاجدلية التي أعطيت عن اليابانيين، والتي لا
تمتّ بصلّة إلى الواقع، فتصوّر الأبطال «الإيجابيين» هو بدوره بعيد كلّ البعد
عن الحقيقة، ويخضع لنفس الافتقار. هؤلاء الأطفال الذين يكبرون بكيفيّة
سحريّة، والذين تنسب لهم، رغم صغر سنّهم، أفكار وأقوال في منتهى النّضج
الإيديولوجي والسياسي، ذلك الصّياد الذي يسمع «الأمميّة» فيتحوّل فوراً إلى
ثوري. كلّ هذا ينم عن فقر في التّصور وابتعاد عن النظرة الماديّة والجدليّة
للتناقضات الاجتماعيّة وسيرورة اكتساب الوعي، هذا بغض النّظر عن الفكرة
التي تُقدّم في هذه الرّواية، عن دور الإنسان – المعجزة، القائد إلخ...

بشكل عام، إذا كنت أتقبّل أن تقدّم أعمال مثل هذه على أنّ لها إيجابياتها في
إطار تحطيم ما هو قديم ومحاولة خلق أدب جديد. فإنّي لا أقبل بأن تُقدّم على
أنّها نموذج ناجح مكتمل يمكن اتّباعه. لا يكفي لخشبة الأدب الجديد أن تخلو
من الشّرائح الاجتماعيّة التي كانت تحتلها في الماضي، بل يجب بالإضافة إلى
ذلك أن تُملأ ببشرٍ من لحم ودم، وليس بأشباح باهتة مختزلة إلى الشّعارات
التي ترفعها.

علينا أن نواصل هذا التّقاش (...).

30 ماي 1977

حبيبتني،

(...) ماذا يمكن أن أقول عنّي ممّا يستحقّ الذّكر؟ رأسي كأنّه خلية نحل حقيقيّة
في الآونة الأخيرة. طنينٌ ووخزٌ يلمّ بي. حالة من التّوتر الكبير حيث يتزاحم
حنقي، حرارة حناني، مقاطع شعريّة من غير ألفاظ، انفجارات داخل الذاكرة.

حالة أستطيع أن أعيشَ بها طويلاً على زورق في عباب البحر، أو وسطَ الأدغال، في البيداء، أن أحترق بصمتي، بإعصاري. دب، إن شئت، لكثيِّه دبُّ فائر الدَّم، يعدو، ويعدو ولا يبرح عن مكانه. إحدى مشاكلي القديمة والتي تعرفينها. جسدي لا يحتوي بما فيه الكفاية، عليَّ أن أعيش في شكل شظايا. أمّا عندما تضاف قلعة المنفى، متاهة الممنوعات، يصبح العبء أثقل. هيا! لنوقف هذا الحريق الوجداني. أقف بصحوي العنيف في وجه كلِّ الأعاصير والعواصف (...).

ما هي أختيار الجميع في البيت؟ لقد تلقَّيت رسالتك المؤرَّخة بـ 23. أعيد قراءتها للحظة. غريبة هذه الحيرة، أليس كذلك؟ لا ينبغي هذا. معي، من أجلي، كوني دائماً مطمئنة. لقد اشتدَّ عودي وسط المحنة، واكتسبَ جلدي مناعةً ضدَّ الألم (...).

3 يونيو 1977

جوسلين، حبيبتي،

رسالتك المؤرَّخة بـ 31، زيارتك. لست أدري لماذا أصبحت أعيش معك في الفترة الأخيرة نوعاً من الانبهار. لا أدري إن كنت تفهميني. يُشبه هذا شمساً قوية الإشعاع، ولكثيِّه أرغب فيها بنهم، وهي تخترقني بشدَّة حرارتها. أشعر بكِ مضطربة، مزهرة، زاخرة بالعطاء. وكلُّ هذا الحذر الذي يكتنفي، جموحي المكبوح من أصله، أيدينا المسيجة. حبُّك يؤلم أحياناً. أعذري هذه الاندفاعات الهوجاء. اليوم لن يمكنني أن أكون لك إلا بعنف، خارج ما يمكن التعبير عنه. بل، لا تعذري أيَّ شيء، أحييني كما أنا، عندما أهيك نفسي. لكن دعينا من هذا الجنون.

بكلِّ تأكيد يواتيك جيِّداً الانقطاع عن التدريس. في يوم ما، لا بدَّ لنا من قراءة كتاب لا فارح: «الحق في الكسل». العنوان شديد الإغراء، أليس كذلك؟

كنت سعيداً برؤية هند. كنت أشعر وكأني لم أرها منذ زمن بعيد. وكم كنت في حاجة إلى رؤيتها، الشَّيطانة!. لكنَّها كم أصبحت صامته بدورها. إلهي، ما ذنبي؟ هل أنا الذي أصبحت مرعباً إلى هذا الحد، أم هي ظروف ردهة الزيارة؟ على أيِّ حال فالأطفال لا يتكلمون كثيراً. أتساءل هلاً يكون من الأفضل أن أخصَّص لهم، ابتداءً من السنَّة القادمة، زيارة لهم وحدهم. سننظر في هذا في حينه. قبلي ياسين عني بحرارة. أسفت بشدَّة لغيابه. أتمنى أن يكون بخير (...).

قرأت أخيراً «الطريق المختصر» لـ أليبرتينا سارازان. ما أعجبنى في هذا الكتاب ليس له أيّ علاقة بالمحتوى، الذي لا يختلف في شيءٍ عن مواضع رواياتها الأخرى. إنّما أعجبتني لغتها. إنّها امرأة لا تتردّد في التعبير عن آرائها بعبارات مدهشة وصريحة. مع الأسف، لم تستطع هذه «الكاتبة الأصيلية» أن تتجاوز غيتو تجربتها الخاصة. إنّ طبعاً من هذا النوع، ووسائل التعبير التي جندتها، كان من الممكن أن يعطي شيئاً آخر لو استطاعت الكاتبة أن تتخلص من دوامتها التّرجسيّة. لكن، كم يعجبنى هذا الطبع، هذا التمرّد العاري (...).

13 يونيو 1977

زوجتي الحبيبة،

(...) غريبٌ كيف أجهض الصّيف. الطّقس رديء هنا منذ عدّة أسابيع، كلّ ما يسبّب إصابات الرّكام والتّوازل. لا أحد أفلت منها، كنت على وشك نوبة روماتيزم عنيفة. تداركت ذلك في حينه بتناول كمّيّات كبيرة من الأدوية. يتأثر مزاجي بحالة الطقس في غالب الأحيان، وبالتالي فإنّي لست مشرقاً البتّة في هذه الأيام. أميل نحو الصّمت، نحو الانغلاق. ما أحتاج إليه هو فرصة تناول الكلمة، حيث أدمي كلّ الجراح المستبطنة، وأفجر صوت جسد المحنة، وأبدّد أغلال الصّمت. لكنّ تناولاً مثل هذا يقتضي لغةً أخرى غير لغة المنفى. هذا ما هو قاسٍ أحياناً في وضعيتي: أن أفلت العديد من المواعيد مع ذاتي، أن أتأمر ضدّ صوتي الخاص. صدّقيني، فهذا الاضطرار ليس له أيّ علاقة بالكسل، ولا بأيّ عقم في القول. إنّهُ صادر عن تخوّف مبرّر، ألا وهو التخوّف من التّيه في هذه التّجربة، في حين أنّ حدودها الموضوعيّة تفرض عليّ تحوير فكري، بل وحتّى مقاصد عملي. إنّني شديد الجذر من هذا الطبع الثّاني الذي ينتهي المرء إلى السقوط فيه عندما يبني نظاماً من الاستبدالات. لا أقبل بالتنازل عن صوتي الكلّي مقابل وهم الاستمراريّة. أحياناً ينبغي للمرء أن يعرف كيف يتحمّل مسؤوليّة الصّمت. حين أفكر في هذا، أكتشف أنّ علاقتي بالشّعور تشبه إلى حدّ بعيد علاقتي بك: استحالات مماثلة، لكن أيضاً هذا الرّخم المتميّز، لحظات الوهج هذه، هذا الاصطدام بتراث المستقبل، هذه اليقظة الدّائمة (...).

15 يوليو 1977

حبيبتني،

(...) علاقتي بالشعر: تدعوني للتحدي. ألم أواجهه كلما استطعت ذلك؟ لكن ما هو حقيقي أن هذا أصبح يصعب عني شيئاً فشيئاً. فالوضع السجنية لها رتابتها و«استنزافها» - لاستعارة أحد تعابيرك - كأى وضعية أخرى تكون فيها القدرات الأساسية عرضة للتعقيم. يتيه المرء رغماً عنه في الجزئيات التي تستقطب انتباهه باستمرار وتلتهم جُل الأوقات وخصوصاً ذلك التفرغ الذهني الذي يتطلبه التركيز، والحلم، والغور داخل الذات، والملاحظة. كما أن الواقع الذي يتيسر لي شديد الاختزال، في حين أن الشعر يقتضي الانصهار وسط الحشد، محيط العلاقات البشرية، المرئي الملموس، المحسوس. عندما لا يتوافر هذا الواقع، هناك مخاطر الانسياق في مسلكين خطيرين: التيه عبر المغارات الداخلية للذات، أو التحليل المجرد. فيما يخصني ليس هناك أي إمكانية في أن أسلك أحدها، وحتى عندما يكون الأمر كذلك فإنني واع تمام الوعي بأنني أقصد منه إنجازات آنية، أو ضبط اتجاهات مستقبلية. الشعر يختلف عن العمل النظري مثلاً، الذي يجد مجالاً رحباً في ظروف مثل هذه. لكنك تعرفين جيداً أنني لست من يدعي نفسه منظرًا. وعلى أي حال اطمئني من جهتي. حتى ولو أنني توصلت إلى إدخال عنصر النسبية في علاقتي مع الشعر، فإنني لا أهجره بسبب ذلك. بالعكس، أصبحت مقتنعا بضرورته وصبغته اللائعوض منذ أن توصلت إلى موضوعة أهميته ودوره بشكل صحيح، على مستوى الفرد كما على مستوى المجتمع. سبات، نعم، لكن في الوقت نفسه حلم كبير، لا يحتاج إلا إلى قليل من السعادة لكي ينضج ويتفتح.

امتناني لك على انشغالك بهذا. افعلي هذا أكثر ما يمكنك، لأنه يساعدي، كما قلت لك، على رفع الحواجز، وعلى تهوية وتنظيم أفكاري (...).

5 غشت 1977

زوجتي الحبيبة،

أتمنى أن تكوني قد توصلت برسالة أول أمس، حيث بدأت في مناقشة القضايا التي أثارناها في الأيام الأخيرة. لعلك لاحظت أن بعضاً من آرائك قد أثارني. كنت في حاجة إلى كل ما في وسعي من صحو لأضبط أعصابي وأنا أكتب لك. أعدت قراءة رسالتك مرات عديدة لكي أتأكد من أنني لا أبالغ في خطورة عمق أفكارك. لا، أظن أنك كنت واضحة، وأنت تفتحين الباب على الشك، والرؤية، بعد إمعان نظر طويل على ما يبدو. لكنني لا أزال أأمل أن أكون خاطئاً في فهمي، لأنه يصعب علي أن أصدق تحولاً مفاجئاً بهذا الشكل. أدع جانباً تقييمك لحصيلة السنة المنصرمة. إنَّها مسألة بسيطة، يمكن أن نعود إليها

فيما بعد. أعود إذن إلى مسألة علاقاتنا، حاضراً ومستقبلاً، (سيكون هناك بعض التكرار، لكن لا يهم). الأسئلة التي يجب علينا أن نطرحها في هذا الصدد، إذا كنا نريد تجنب المشاكل الهامشية، وموضوعة التناقضات الحقة، هي كالتالي:

ماذا هيمنَ على علاقاتنا منذُ بداية المحنة؟ أهو ما قرّبنا أو ما فرّقنا؟

ما الذي يفرّقنا بالضبط حالياً، ويمكن أن يفرّقنا في المستقبل؟

هل المشاكل التي ستعترض سبيلنا في مرحلة إعادة التعلّم (والتي من شأنها في نظرك أن تعرقل عملية إعادة تشييد حياتنا المشتركة) هل هي تناقضات لا حل لها، أم هي تناقضات قابلة للحل؟ لا بدّ إذن من تدقيقها وتوضيح طبيعتها.

إنّ الجواب على هذه الأسئلة سيساعدنا كثيراً للمضي قدماً، أنا متيقن من هذا.

أودّ الآن أن أجيبَ على سؤال كنت قد وجهته لي في رسالتك الأخيرة. نعم، أنا أيضاً فكرت في كلّ هذه القضايا. إذا كنت لم أفتحك فيها فذلك لأنني لم أكن أرى جدوى هذا الحديث في الوضعية الراهنة. أنطلق في هذا من فكرة أنّ هذه المشاكل – وبعضها يمكن أن يكتسي حدة خاصة في المستقبل. تنتج عن تناقضات قابلة للحل. كنت أؤمن فينا كي نواجهها بشجاعة في المكان والزمان الضروريين، وحلّها على الوجه الصحيح وبكامل العدل. إنّها بالنسبة إليّ قناعة أبوئها مكانة مبدأ. ومن هنا ثقتي اليقظة والمطمئنة في أنّ واحد.

أريد أن أسبق شيئاً ما مناقشتنا المقبلة لأقول ما يلي: أعتقد أنّ المشكل الأساسي الذي تثيره الأفكار التي وردت في رسالتك، لا يتعلق في الواقع باليقين أو عدمه بخصوص قدرتنا على تجاوز ما فرّقنا بسبب المحنة. إنّنا نعرف بعضنا جيداً، حبيبتي، نعرف في أيّ اتجاه تطوّرنَا، ما تغيّر فينا، وما في وسعنا أن نبذله. نعرف ما الذي حققه وفاقنا. رغم كلّ شيء، إنّنا نعرف بعضنا جيداً من حيث الطبع، والعادات الصّغرى ونقط الضّعف، والهفوات، لكن أيضاً من حيث الطاقات الأساسية. إذن، لا ينحصر المشكل ها هنا بالأساس. بل أرى المشكل شخصياً في علاقتنا بالآخرين، في الموقف الذي علينا أن نتبناه اتجاه التاريخ الذي نلتحم به، في النظرة الموضوعية أو الذاتية التي يمكن أن نتخذها من هذا التاريخ، في كلّ مرحلة على حدة، في الموقف المبدئي الذي يمكن أن نتخذه تجاه كلّ التناقضات (تلك التي تهّمنا كزوج، وتلك التي تندرج في السياق الاجتماعي التاريخي).

أكتفي بهذا القدر اليوم، في انتظار رسائلك. مع الأسف تفاجئنا هذه الربوعة في الوقت الذي تحتاجين فيه أكثر إلى الرّاحة، إلى الهدوء. على كلّ حال لا بد

من الصبر (...).

8 غشت 1977

حبيبتى،

نقاشنا المباشر كانَ إيجابياً. لقد مكنا من تطويق إحدى المشاكل والتقدّم في توضيحه. أخصّ إذن:

إنّ النظرة المثالية لا تطرح بالنسبة إليّ. إنّ الوجدانية التي أعبر بها عادة عن عواطفى تجاهك لا ينبغي أن تفهم على أنّها مبالغة في تقييم وفاقنا. إنها طريقتى في نفخ حنانى فيك. وهذا لم يمنعني من الحفاظ على اليقظة الضرورية لانتقاد بعض تصرفاتك أو أفكارك التي تبدو لي خاطئة. كما أنّ هذا لا يمنعني أيضاً من أن أكون واعياً لبعض هفواتك أو نقط ضعفك التي يمكن أن تسبب لنا مشاكل فيما بعد، لكنّي اعتبر أنه لا جدوى من إثارتها بشكل مجرد – عندما ستطرح فيما بعد، على صعيد الممارسة اليومية، يمكننا أن نجد لها حلاً حينذاك، وبالشكل الصحيح –. بالإضافة إلى هذا، ينبغي أن أشير إلى أنّنا سنواجه أيضاً مشاكل لا متوقعة تماماً، كما سيحدث لنا أن نخطئ في حلّ مشكل ما. لا يمكننا أبداً أن نكتسب مناعة ضد أخطاء من هذا القبيل. فالأفكار الصحيحة، والممارسات الصحيحة لا تنزل من السّماء، فاكتمسبها عبارة عن صيرورة جدليّة معقدة. هذا لأؤكد لك أنّني لا أرى الأشياء بتفاؤل أخرق، ولا بتبسيط أعمى. فالحياة أغنى وأعقد من هذا. لكنّي في الوقت نفسه متيقن من أنّنا سنكون صارمين بحيث لن نتجاهل أي مشكل، أو نترك له الفرصة كي يطفو فوق رؤوسنا، سنواجهه بالثقة والشجاعة الضرورييتين.

تكلّمت حتى الآن عن سلبياتك أنت. وأنا، أليست لي سلبيات؟ لا بدّ أن تتكلّمني لي عن هذا، فتخوفاتك بشأن علاقاتنا المستقبلية لا تصدر فقط عن اعتبار نقائصك وحدها. ما هو وجه مسؤوليتي – بشكل ملموس – في تكوين هذه التخوّفات؟ ما هي إذن المشاكل التي يمكن أن أطرحها عليك في المستقبل؟ أجيبي عن هذا.

المسألة الثانية لها علاقة بالعواطف التي تشعرين بها تجاهي. أتمنى أن تكون مناقشتنا قد بيّنت لك أنّ الأمر لا يتعلق «بتقهقر»، بل إنّّه تطور عاطفة جديدة، كثرمة لنظرتك الجديدة إلى العالم، إلى العلاقات الزوجية، وإلى الحنان. إنه أيضاً ثمرة تحررك، وإعادة النّظر في المرأة القديمة. لا أفهم فيم يحرجك هذا التطور. على أكثر تقدير، أرى فيه تعبيراً عن حنين إلى اكتشافنا الواحد للآخر،

إلى «شباب» أو بالتالي مراهقة حينا. فيما يخصني، وفي هذه النقطة بالذات، إني أشاطرك تماماً هذه العواطف الجديدة، وأعتبرها وحدها جديرة بنا، بأفكارنا، بآمالنا. وإذا كنت أعبر لك عن حناني بكل هذه الحرارة، فلأنه يتجدد في هذه الأواصر الجديدة التي خلقناها. أعتبر أن الصيغة التي يعبر بها المرء عن عواطفه ليست مسألة مبالغة أو استصغار. إنها مسألة مزاج، واستعداد. وهكذا، إذا كان نوع من الوجدان الشعري هو طريقي في التعبير عن حناني، فهذا لا يعني تماماً أنني أعطيه امتيازاً مطلقاً. أعرف أنه، في موضوع الحنان، أغلبية الأشعار ليست مكتوبة. إن التعبير عنها يتم عبر العديد من الأشكال، حركة، ابتسامة، التفاتة، باختصار عبر ممارسة.

هكذا، اقتصرت على ما دار في نقاشنا. سنتعرض للباقي فيما بعد.

لم يسعني الوقت حتى لأقول لك أنني تعرضت لنوبة روماتزم عنيفة. أحاول تتبع العلاج كما يجب.

إليك حبيبتي. اكتبي لي بسرعة.

13 غشت 1977

زوجتي الحبيبة،

لم أكتب لك منذ يوم الاثنين المنصرم لأنني كنت أنتظر أن تتوصلي برسالتي الخامس والثامن حتى نواصل مناقشتنا. ثم بسبب تلك النوبة التي تكلمت لك عنها، لقد تتبععت العلاج ويبدو أن الأمور تتحسن.

تلقيت رسالتك المؤرّخة بالخامس. هناك نقطتان ينبغي توضيحهما:

عندما تكلمت عن «التكلم فيما يخص مناطق الظل فينا»، لم أكن أقصد أنه ينبغي لنا تجنب المشاكل، وتفادي إثارة «تخوّفاتنا». لم أفكر في يوم ما في الدّعوة إلى هذا النوع من الهروب إن لم أقل التّفاق، ولن ألجأ إليه أبداً. لقد اخترت دائماً أن أواجه المشاكل معك، بل كنت سباقاً إلى وضعها تحت مساقط الضوء وفي مركز التّفاق كلما أحسست بوجودها وبضرورة مواجهتها. يمكنني القول صراحة بأنني ناضلت على هذه الواجهة، ولم أتخوف أبداً من المشاكل. إن ما أسميه «مناطق الظل» هو شيء آخر. أعني به كل الجراح التي تصيبنا من الحياة اليومية، حالات الوهن العابرة، فورات الغضب المكبوتة، كل هذه المشاكل التي نستطيع، كل على حدة، أن نحلها في حينها

دون أن نجعل منها «مأساة عامة». إنَّ هذا الجزء من مقاومتنا اليومية لا يجوز أن نملاً به مجال حوارنا، وذلك لأسباب عدة: الاحتراس من جهة، كما سبق لي أن أوضحت ذلك، ومن جهةٍ أخرى لأن هذه المشاكل تبقى ثانوية في آخر المطاف، ويمكن لنا أن نحلها بالاعتماد على الطاقات الخاصة لكل واحدٍ منّا. وإلا فستطغى على علاقتنا الشكاوى والنواح، ولن تكون وضعيتنا صحيّة قط.

قلت لي بأنك تقدّمت منذ ما قبل تاريخك، ولكنك توقّفت أيضاً، بل تتهقرت منذ فترةٍ ما. أجدني مضطراً لطرح السؤال التالي: أين يكمن الخطأ؟ كلّ العناصر التي بررت بها هذا التوقّف – التّقهقر، لا تعدو أن تكون عوامل خارجية. هل صحيح أن يفسّر المرء أي شيء بعوامل خارجيّة وحدها؟ تعرفين أنّ العامل الأساسي لا يكمن في هذا. لا بدّ من طلبه في الذات نفسها. مهما كان وزن وأهمية الحدود الخارجيّة، يبقى أنّ أسباب هذا التّقهقر – إذا كان تتهقراً بالفعل – ناتجة عن نقائصك الخاصّة، عن ضعف اقتناع أو عزيمة على تحويل عوامل الرّكود إليّ عكسها. تتحدّثين عن ضيق مجال الممارسة – تستعملين هذه العبارة التي سبق لي أن عبرت بها عن حالتي – ولا أنكر هذا الواقع. لكنك تعتبرين هذا المعطى كحتمية لا يمكن لأيّ شيء خلاق أن يخرج منها. إنَّك لا تبدلين المجهود الكافي كي تستخلصي من هذه الممارسة المحدودة أقصى ما يمكن من أسباب الرّضا والارتياح، وكي تدمجها في الكفاح الذي يتجاوزها. هلا تسقطين في مغبّة الكبرياء عندما لا ترين في كلّ ما تقومين به أو تستطيعين القيام به إلا أموراً تافهة، لا ترضي حلمك في الإقدام على منجزات جبّارة من شأنها وحدها أن تمنحك الشعور بالتقدّم؟

إنّ كل مرحلة من التّغيير على الصّعيد الاجتماعي، مدّ وجزر، سموّ وانحدار، كلّ مرحلة تقتضي مهاماً وتملي الموقف الملائم الذي ينبغي تبنيه. لا يجب إدماج المساهمات البسيطة في الأعمال الحقيرة، التي يغض من شأنها لا لسبب إلا لأنها بسيطة. وإلا لسقطنا في النخبويّة والاستعجال الانتهازي. أكتفي بهذا القدر اليوم. سعيديّ بأن رأيتك في عافية، ذلك ما أثلج صدري. أنتظر رسائلك بفارغ الصّبر. أقبل يدك.

22 غشت 1977

حبيبتني،

قصيرة، قصيرة جداً زيارة اليوم. زد على ذلك أنني لم أتوصّل بعد بالرسائل التي بعثتها إليّ (...).

حتى لا يعترني نقاشنا أيّ تأخير سأواصل حديثي. سأتناول نقطة واحدة اليوم: مسألة الأطفال.

حسب ما أعرفه، إنّ تجربتك مع الأطفال لها جوانب إيجابية وأخرى سلبية. أهم ما حققته من إيجابيات في هذا الصدد يكمن في كونك نجحت على العموم في جعلهم يكتسبون الأفكار الصحيحة حول أهم المشاكل التي اعترضت سبيلهم حتى الآن، وبالتالي استطعت أن تحدي إيجابياً من التأثير السلبي لمحيطهم. إنّه مكسب هام، وإن كان لا يزال مهدداً، وبالتالي متطلباً للصيانة، والتعميق في كل وقت. لا أقول بأنّ النجاح نهائي – هذا مستحيل في هذه المرحلة من نموهم – لكنّه أمرٌ حقيقي ولا غبار عليه.

أمّا الجانب السلبي، فأعتقد أنّه يكمن على الخصوص في العلاقات التي أقيمت بينك وبينهم من جهة وفيما بينهم من جهة أخرى. هذا النقد الذي أوجهه إليك ليس جديداً. كثيراً ما عبّرتُ عنه في مناسباتٍ مختلفة. يمكن تلخيصه فيما يلي:

1 – إن الروابط العاطفية تطفى على علاقاتكم، وما ينتج عن هذا هو تفاقم تبعيتهم بالنسبة إليك والحدّ من استقلاليتهم ومسؤوليتهم. هذا التضخّم العاطفي يمكن تفهّمه أو بالأحرى يمكن تفسيره: ميلٌ لا شعوري نحو التعويض، لكنّه أساساً ينم عن نظرة خاطئة للعلاقات بين الآباء والأبناء. إنك لا تعين دائماً بأنّ هذه النزعة العاطفية يمكن أن تكون خانقة وكابحة إلى أقصى حد بالنسبة للأطفال. على العموم إنّ هذه الملاحظات تنطبق أكثر على حالتي ياسين وقدس، وبشكل أقل على هند.

ولكي لا تبدو لك هذه الملاحظات نظريّة محضة، سأعطي عنها بعض الأمثلة. إنك تنشغلين أكثر من اللازم بهم، وتقومين بأشياء كثيرة نيابة عنهم، وتحرمين نفسك لفائدتهم – وقت، ترفيه... إلخ – وترضين كلّ نزواتهم. تنقصك الصرامة، بمراعاة ما

يمكنك أن تعطيهم، وما يجب عليك أن تمنعهم عنهم.

2 – على المستوى التربوي، ليست لك خطة واضحة تتفرع عنها مواقف حازمة، ثابتة تجاه المشاكل التي تظهر يومياً. يخامرني الاعتقاد بأنك ربما تتبين مواقف متناقضة، متذبذبة، لحل مشاكل ذات طبيعة متشابهة.

هذا منتهى السلبية عندما يقصد المرء أن يحظى بثقة الأطفال ويحرز على طاعتهم إذا اقتضى الحال. فالطفل لا يفوته أن يستغل هذه التناقضات، ونقط الضعف هذه. وعندما لا يعي إمكانية استغلال هذه الفرص، فإنه يبقى حائراً.

3 – في سياق النقطة السابقة نفسها، إنك لا تتحكمين دائماً في أعصابك. تظهرين غضبك، توترك، وحيرتك – وأحياناً تتفجرين بكل بساطة – ولا شيء أكثر سلبية من هذا عندما يكون الهدف هو الإقناع أو الحصول على الطاعة. في هذا الميدان لا يكفي المحتوى الصحيح، فالشكل له دور هام، أي الطريقة التي تُستعمل في الإقناع، في إعطاء الأوامر. («كتاب الآباء» لماكارينكو مفيد جداً في هذا الصدد. لا بد من قراءته).

4 – تنظيم حياتكم المشتركة: إنني لا أعرفها جيداً، لكنني لا أعتقد أنني خاطئ إذا قلت بأنها لم تتغير كثيراً بالنسبة لما سبق أن عرفته عنها. لعلها تتميز إذن بما يلي: الأطفال مخدمون في كل شيء. مساهمتهم في أشغال المنزل، في العناية بأغراضهم الخاصة

وحتى جسدهم تبقى رمزية ليس إلا. لتتفق، ليست «إنتاجية» هذا العمل هي المهمة أساساً في نظري، بل الأهم هو تعلم الاستقلالية، وتغيير النظرة التي يمكنهم أن يتخذوها عن هذه الأشغال وهذه العناية (محتقرة، ثانوية، خاصة بالنساء أو بالخدمة).

سؤال بسيط: هل ياسين يعرف كيف يخطط جورباً أو زراً؟ وخصوصاً، هل يقوم بهذا راضياً إذا ما طلب منه دون أن يعتبره أمراً تافهاً، لا يعنيه؟ أعرف أن هند قد تعلمت حبك الصوف - ياسين لا أعتقد - لكن هل تحسن بعض أشغال الخياطة البسيطة؟

إن هذه المسائل بالغة الأهمية. إذاً نحن لم نجد لها، ومنذ الآن، الحل الصحيح، فإن الأطفال سيقون معوّقين خلال فترة طويلة من نموهم. يجب إذن إعادة تنظيم شامل، اكتساب خطة جديدة، وإقرار جديد. لا بد من التوصل إلى أن يساهم كل واحد من أطفالنا في أشغال وأعباء البيت، وأن يشعر بأن مساهمته ليست سُخرة تُنقص من شأنه، بل مسؤولية تنم عن كرامة حقيقية. لا بد من قهر الإحساس بـ «اللاجدوى» والتبعية. يمكن أن تحدّد لكل واحد مهام بسيطة بالإضافة إلى المهام العادية التي يقوم بها كل واحد على حدة.

من الممكن أن تولّد لديك ملاحظاتي إحساساً بأنها تتطلب وقتاً طويلاً، وحرصاً لا مُتناهياً كي تكون في مستوى ما تفرضه هذه المهام. وهذا ليس صحيحاً. إذ أن المجهود الأساسي يكمن، في نظري، في التفكير في هذه القضايا وتحديد خطة يجدر التشبث بها بصرامة، بل على العكس فإنك بتطبيق هذه الخطة، ستلاحظين بنفسك أن الأطفال يعتمدون عليك أقل، ولا يلتهمون كل أوقاتك، ويهتمون أكثر بأنفسهم وبمشاكلهم. كل واحد سيكون مستغرقاً في القيام بهذه المهام، وبذلك يمكن للعواطف أن تنبني على أسس أكثر صلابة. أبدو وكأني أصف لك هنا نوعاً من الجنة لكنني أعتقد أنها في متناولك، إنه ليس من السهل تغيير هذه العلاقات بين عشية وضحاها، كما أن هناك دائماً «التأثيرات السيئة للمحيط» والتي ستشكل عرقلة وستسبب تراجعاً وتقهقرات، لكن المقاومة المستمرة تمكن من تجاوزها تدريجياً والحد من نتائجها. قولي لي رأيك في هذا (...).

27 غشت 1977

عزبتي إلبببب؁

كبف أقول لك ذلك الانفعال الؤب بلمُّ بب عنء قراءء رسالبك (ورسالة بسلان:
سأببب بءوره). بملُّ العبش بب كبف هؤه الصءاقة. هؤا المساء لك
ولبسلان وءكماب؁ أن امببب بهؤه البراءة؁ أن أسببب لها؁ أن ألامسها:

ألا ألبها اللبلُّ السبببب

فببب بانبك الربابرب.

لا ألبها

فب الإصباء إلى نبببببب.

ببب ببببب

مببب ببببب الببب

أفك لبام مهبربك

لأكبب بببب العببب

بكببب

بكببب قبببب البببب.

ابكب مرارة عرف أءبال ألبامب.

ابكب هروب الببب بلا هواءة

ورمالب المرهقة بالبببببببب.

لأقبببب لبببب

إن أنت برببب بالمبببب.

أببها القبببب البببب

أعربب عن عطاءبببب.

هكذا عفويًا، وأنا أفكر فيكما، هذه الأبيات. غريب، لآتي فقدت بشكل ما عادة الكتابة.

إيليت، عودة إلي رسالتك. ذكرت عدّة أشياء واردة عن الأطفال. (42) رسالتك أعطتني إحساساً ساراً بأنّهما لم يصبحا بعد غريبين عني. وأني أعرفهما بعض الشيء. أجل، تنتظرهما العديد من الصعوبات، سوف يحتاجان لكلّ ذكائهما، كلّ طبيوبتهما الفتية كذلك، للتغلب على العديد من المشاكل. لكنني أثق فيهما كما أثق في كلّ شبيبنا التي تتفتح أعينها على المسؤولية. صحيح ما ذكرته عن «تغرّبهم» لكن هذا لا يعدو أن يكون مظهرًا من السهولة فهمة، لأنّ الثقافة السائدة التي تحيط بهما، لا يمكنها أن تجذّرهما. فعندنا، كما هو الشأن عندكم، نجد نفس «التماذج»، نفس وسائل الاستهلاك، نفس المثيرات (تلفزيون وسينما وغيرها من واجهات خداع نمط الحياة الأوروبي). لكن اطمئني، هناك من جهةٍ أخرى قدرة ياسين وهند على التكيف مع أيّ وسط آخر. يبقى من الضروري أن تُطوّر لديهما الرّوح النقديّة وعمق التفكير... ولنا عودة لهذا الموضوع. ليست لي أسئلة مدققة في هذا الصّد. حدّثيني إن شئت، من حين لآخر في هذا الموضوع...

30 غشت 1977

زوجتي الحبيبة،

أجيب عن رسالتك المؤرخة بالثالث والعشرين. كنت واضحة إلى أقصى حدّ فيما يخصّ علاقاتنا، أشاطرك الرأي تمامًا في تحليلك. وبهذا تكون مناقشتنا قد قطعت أشواطاً مهمة وقد أجبنا على الأهم. هنا يكمن الجانب الإيجابي لأزمات مثل هذه التي اجتزناها. إنها تساعد على تعميق النظر في القضايا التي لا تناولها عادة إلا عرضاً، كما أنها تفجر التناقضات، تجسدها وتفتح الطريق لتجاوزها بصفة إيجابية.

وأهم ما ينبغي أن نستخلصه منها هو ضرورة الحفاظ على اليقظة اللازمة وعدم الاستكانة لطمأنينة خادعة، وأن نعمق وفاقنا ونحيطه بما يجب من العناية. ينبغي لحوارنا أن يتيح لفكرنا فرصة الاشتغال على وتيرته القصوى، ويكون من بين الحوافز الأساسية التي تساعدنا على مقاومة التحجر والرتابة والكسل الفكري والإهمال على جميع الأصعدة. في هذا الصدد أعتقد - وأقول هذا بدون أي خبت - أنه لا بد لنا من الاعتناء بمراسلتنا بصفة خاصة. يجب الكف عن اعتبارها - إذا حصل أن اعتبرت هكذا - كمجرد نقل للأحداث اليومية الصغيرة، صادر عن الرغبة في التعبير عن حناننا المتبادل. ينبغي أن تصبح

رسائلنا مناسبة لتفكير عميق تستهدف الشمولية. إن المطلوب هو انضباط تتحمل مسؤوليته بأقصى ما يمكن من التشدد. يجب أن تُبرمج مراسلتنا كأى مهمة أساسية أخرى، وليس كشيء نملأ به لحظة فراغ أو نفرغ فيه حالات وجدانية تعترينا من حين لآخر. وهكذا فإن كتابة رسالة ستصبح نتيجة تفكير جدي، اختياراً من بين المشاكل التي تبرز يوماً بعد يوم، أو قضية كبيرة تكون قد نضجت في حينها. أتمنى أن تكوني الآن واعية بأهميّة الرّهان. إنّنا متفقان في موضوع «مناطق الظل»، لم يعد هناك أي التباس (...).

أسعدني أن رأيتك في منتهى الحيوية والبهاء. كم أحببتك. لا تنتظري مني أن أتخلى عن وجدانيتي كلما تعلق الأمر بحبنا. أقبل يدك.

9 أكتوبر 1977

حبيبتي،

(...) عن عملي: ملاحظتك صائبة. عندما تحدّثت عن ميل «طبيعي» إلى الكسل، كنت أخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعيّة والدّاتية الخاصة بحياة السجن. كما أنّ اقتراحاتك تلتقي بتوجّهاتي الخاصّة في العمل. قصد تفادي التشنّج، يجب التركيز على عمل محدّد، طويل المدى. توصلت إلى حلّ هذه المعضلة. وعمّا قريب سيّخذ هذا العمل شكله: إنّ مشروع كثيراً ما بدأت، ثمّ تركته جانبا، وهو يتعلق بترجمة أعمال أدبية عربية هامّة. أمّا فيما يخص عملي الإبداعي، فأنتي واع كل الوعي بالنقص الفظيع الذي يعترني هذا الجانب من نشاطي. مع أنّي لم أتخلّ تماماً عن الإبداع، فأنا في الوقت نفسه لا أغذي النّفس بالأوهام. صدّقيني، إنّ الظروف الدّاتية على الخصوص قاهرة إلى حدّ كبير. هناك دائماً خطر التّجريد الذي يهدّد كلّ كتابة عندما لا تندمج في الواقع المعيش، عندما لا تنبع من هذا الواقع الذي تسعى إلى إعادة خلقه، وشحنه بالمعاني وتجسيده بواسطة التّواصل. خصوصاً وإني لا أرغب في أن أكون شاعر أحلامي ورؤاي الخاصة وحدها، بمعزل عن جسدها الحي: البشر، العناصر الطبيعيّة، المناظر الإنسانيّة والطبيعيّة، مسيرة الوطن اليوميّة. لا أريد أن تثن أشعاري باعتبار نكهتها القدسيّة، لأنّها نابعة من وسط قلعة المنفى، وإنّما أريد أن تعتبر في ذاتها، حسب إسهامها الملموس، ونوعيّة المجهود الفكري والحسي والفني الذي وُظف فيها... إذا أنا تنازلت عن هذا الالتزام، فالصّمت أجدر. هل تفهميني؟ (...).

26 أكتوبر 1977

زوجتي الحبيبة،

(...) في موضوع الصُّعوبات النَّاجمة عن موقف ياسين تجاه الزَّيارة، فأنا أشاطرُكَ الرَّأي: أن ننتظر عسى أن تنحلَّ المشكلة من ذاتها، أما إذا اتخذت أبعاداً أكبر، فينبغي الاهتمام بالأمر بشكل مباشر. وعلى أي حال، لا بدَّ من تفادي شيئين: 1 – إشعاره بشكل عنيف بأنَّه يسيء التَّصرف (الشُّعور بالذنب). 2 – الإلحاح أكثر ممَّا ينبغي لإقناعه بالمجيء، وبالتالي ينبغي أن نترك له المبادرة. في الواقع، وبعد التَّفكير ملياً في الموضوع، لا أعتقد أنَّ المشكل يكتسي خطورةً بالغة. أظنُّ أنَّ الأمر يتعلَّق برُدِّ فعلٍ عابر، سرعان ما سيختفي، ولو عاد إلى الظهور من حين لآخر. كما أنَّه لا ينبغي المبالغة في القلق تجاه أسباب هذا الموقف. تعلمين أنَّ الأواصر العاطفيَّة، عندما لا تتجدَّر في الممارسة اليومية وفي رؤية مشتركة للعالم، تبقى هشَّة للغاية، مهدَّدة وعرضةً لكلِّ المخاطر. وإذا كان هذا يحدث لياسين بالصُّب (وليس لهند مثلاً)، فإنَّ ذلك يعود إلى نضجه النَّسبي، إذ أصبحت له مشاغله الخاصَّة، وعالمه الصَّغير حيث ليس من الضروري أن احتلَّ مكانةً حاسمة. لا تقلقي تجاهي، فإنِّي أرى الأمور بموضوعيَّة، واطمئنان.

نقطة أخرى: إبداعِي الأدبي. تقولين أنَّي أعيش وسط واقع «يستحق رغم كلِّ شيء أن يترجم من خلال المعيش اليومي». هذا صحيح إلى حدِّ ما، وقد حاولت، كما تعلمين، أن أعمل بنصيحتك. لكنِّي اكتشفت أيضاً أنَّ هذه التَّجربة لها حدودها. وهي تحتمل مخاطر التُّكرار، واختزال الرُّؤيا وتشويهها. كما لا ينبغي أن نبالغ في «غنى» هذه التَّجربة. كثيراً ما أضطرُّ إلى توظيف كلِّ جهودي عسى أن أجعل منها شيئاً يحتمل، وأصارع من أجل كنس مناطق الظلِّ. فالعلاقات الإنسانيَّة التي تشكل الجوهر المنعش للكلمة الصَّادقة، كثيراً ما نجدُها مشوَّهة، مزيفة، وسط هذا الواقع. كلُّ هذه الأسباب تجعلني محترساً، ومتحفظاً فيما يخصُّ الوعود في هذا الشَّان. لكن هنا أيضاً، لا تقلقي.

لا شيء يضيع لديَّ، ولا شيء يندثر، عدا القشرة العقيمة للإنسان القديم. إنني في انتظار ظروفٍ أخرى لإعادة الاتِّصال مع ربيع الكلمة. وعلى كل حال، لن أكون أبداً موظفاً للأدب... لن أكتب إلا إذا كان عندي شيء أساسي لأقوله (على الأقل حسب رأيي (...)).

1 نوفمبر 1977

حبيبتي،

اليوم، قمنا بتنظيف شامل للزنزانة. وبالطَّالِي غَيْرَ كُلِّ مَنَّا مكانه حسب دورة التَّناوب، وكانت من نصيبي تلك الزَّاوية التي جعلنا منها منذ فترة طويلة شبه غرفة صغيرة، تفصلها عن باقي الحجرة شبه جدار من صناديق الكارتون التي نصفُّ فيها كتبنا (الخرانة، إن شئت). إنَّها زاوية لا تخلو من عيوب، إذ أنَّها محاذية لحويط المرحاض، لكن ميزاتها هي عزلتها. أشعر وكأني في زنزانة منفصلة. وهذا يساعد على التَّركيز.

أمس، وضعت إطاراً لرسم قُدس، وغطَّيته بصفحة من البلاستيك. إنَّه الآن لوحة جميلة معلقة على الحائط، فوق رأسي مباشرة. أمَّا صورتك، فيمكنني الآن، وقد أصبحت لي شبه غرفة خاصة، أن أعرضها أمامي دون حرج.

مضت فترة طويلة لم أجدتُك خلالها عن حياتي هنا، ذلك أنَّه لا شيء جديد يمكن أن يروى ضمن يوميات القلعة. فالسِّفينة تبحر في هدوء أعالي البحر. ونظراً لرداءة الطقس فإنِّي لا أحب كثيراً الفسحة في السَّاحة. الشَّيء الوحيد الذي يهمني هو حديقتنا. فالأزهار التي أتاني ياسين ببذورها قد بدأت تنمو، مكذِّبةً بذلك البيانات المطبوعة على علبتها في وقت نجد فيه شمساً باهتة لا ترسل أشعتها على السَّاحة أكثر من ساعتين في اليوم. لقد نما عندي تعلق كبير بالنباتات، وبحياة هذه القطعة الأرضية الصَّغيرة. في المستقبل سيصعب عليَّ أن أتنازل عن هذه «المبول».

هل قرأت «الأشعار الأوليّة» لـ نيرودا؟ فيها قصائد رائعة – مع الأسف إلى جانب أخريات أراها بصراحة مجانية، ومتكلفة لدى هذا الشَّاعر المجيد والخصب – إن ما يثير الانتباه في هذه القصائد، بالمقارنة مع قصائد «النَّشيد الشامل»، هو بساطتها مع ثراء غنائيٍّ كبير. إنَّ صوت نيرودا يلتقي ها هنا بصوت ناظم حكمت، لكن مع تلك الخصوصيات النيرودية التي تثير إعجابي: الاستهزاء، الاحتفاء بالحياة، ونوع من «الشوفينية الأرضية» إن صحَّ التَّعبير (...).

29 نوفمبر 1977

زوجتي الحبيبة،

كنت أظنُّ أنَّك قد تركت لي رسالة يوم الجمعة الماضي، لكن لم أجد شيئاً. كم أنا متشوقُّ لقراءة أخبارك، لأنِّي ما زلت أجهل كيف عشت حالة استنفار الأيام الأخيرة. (43) أتمنى أن تكوني قد واجهت الأمور بسعة صدر، وأنك استطعت أن تتغلب على «الصدمة» إذا كانت هناك صدمة. أحبُّك، على درب مسيرتنا المتواصلة. فالعودة ليست في نقطة نهاية العالم والحياة، إنِّي أشعر بها تخفق

في داخلي رغم مسافة السنين. لا يهم إذا كان هذا الإحساس يتعرّض للاضطراب من حين لآخر (نادراً على كل حال!) بل إنَّ هذا الاضطراب يضيف جمالاً جديداً على العودة ويقربها منّا بشكلٍ ما. أقبّل يدك.

أمّا عن أخباري، فإنها بخير. فكما ترين، لقد تخلّصت بسرعة من ذلك الحزن الذي تحدثت عنه قبل يومين. لقد سررت كثيراً بحدث يوم السبت الماضي. كانت بالنسبة إلي لحظة سعادة حقيقية (...).

16 دجبر 1977

حبيبتي،

هذا الأسبوع، انتابني عاصفة من الأسى... إحدى لحظات العناء والألم التي لا نستطيع الحيلولة دونها. هذا هو شأن المحنة: تناوب لحظات الانفراج ولحظات الانقباض، ورغم كل شيء فإن هذه الأخيرة هي الاستثناء.

أظنُّ أنّ رسالتي ستكون مقتضبة هذا المساء، إذ أنّ أخبار الرّحلة هزيلة جدّاً (...).

أشعر بأننا قريبان الواحد من الآخر، في نفس مستوى القوّة والعمق والأمل. لقد بلغنا مرحلة من مسيرتنا حيث تخلّصت أمور الحياة من قشورها، وأصبحت مُدركةً في حقيقتها وامتداداتها الملموسة، مמוضة وسط رهاناتها الحقيقية (...).⁽⁴⁴⁾

30 دجبر 1977

حبيبتي،

لا يسعني أي مكان منذ صباح اليوم. تغمرني موجة عاتية من الصّداقة العذبة.⁽⁴⁵⁾ هذه الأيادي الوثوقة التي أشعر بها في يدي، حرارة الاقتسام، متعة هذا الحوار المتّصل أبداً، والذي يجد اكتماله في الحضور التّام، إلى درجة أنني لا أشعر بالحرمان لأنني لا أستطيع الحضور بينكم، فأنا أعرف أننا متّحدون في العمق.

قبل قليل تلقّيت رسالتك المؤرّخة بالأمس، وأسعدني إذ عرفت أنّك تعيشين حالياً دوامة مخالفة عن تلك التي كنت تعيشين فيها عادة. أنا متأكد أنك لن

تتمني فقط هؤلاء الأصدقاء وتضعيهم في المكانة اللأئقة بهم، بل إنك ستحبينهم محبةً حقيقية. لم نكن محظوظين هذا الصباح: وقت ضيق نسبيًا، إقبال كبير، ضوضاء. ينبغي إذن في المرة القادمة أن تاتوا في الصباح الباكر، وإلا في بداية الزوال (...).

15 يناير 1978

عزيزي ياسين،

لقد كتبت إلى هند لأجيب على رسالتها الأخيرة. لكنه حرّ في نفسي أن لا أكتب إليك أنت أيضاً. رغم أنّك لم تفِ بوعدك لي خلال الأيام الأخيرة. أبعث لك إذن بكلمة قصيرة أملاً ألا تخلف وعداً قطعته على نفسك. نعم يا ياسين، الوعد شيء بالغ الأهمية والجدّة، ولهذا يجب احترامه بأي وجه كان.

لقد كنت سعيداً إذ رأيتك يوم الجمعة وإذ لاحظت أن علاقتك بهند أصبحت جيدة، لأنّي أعتقد أنه رغم خصامكما المستمر فسوف تصيران صديقين حميمين، قادرين على التعاون والتفاهم فيما بينكما، وهذا شيء طبيعي، لأنكما قد كبرتما ليس فقط في قامتيكما ولكن بقلبيكما أيضاً. لقد بدأتما تتساءلان عن الحياة وعن الناس، عن بلدنا وعن العالم. لقد بدأتما تكتشفان أسس الروابط التي تجمع بين الرّجل والمرأة وبين الآباء والأبناء، وبين الصّديق والصديقة، وبشكل عام، بين كل الناس الذين يعيشون الآلام نفسها ويعانون من ذات الوضعية.

إذن لقد بدأت الحياة بالنسبة لكما تأخذ معنى ما: فهي ليست فقط أكلاً ونوماً ودراسة، كما أنّها ليست فقط ممارسة لبعض الهوايات، ولكنها كذلك وعلى الخصوص، بحث دائم عن كيف نصير نافعين فيها وكيف نجعلها أقل ألماً وأكثر سعادة وعدالة للجميع، وهي في الأخير فهم لهذا العالم الذي نعيش فيه، لماذا هو هكذا وكيف يمكن أن نغيره حتى يصبح أكثر قابليّة للعيش والعمل فيه.

ها هي إذن يا ياسين، مجموعة من المسائل التي يمكن أن نناقشها بعمق أكثر، ربّما لأنها تشغل بالك شيئاً ما. فإذن لا تتحرج في الكتابة لي عنها. قل لي ماذا تقرأ هذه الأيام؟ هل تسمع الراديو؟ ما هي البرامج التي أنت متتبع لها؟ أي نوع من الموسيقى تحب أن تسمع؟ هنا في السجن، الطقس بارد جداً. يوم أمس لم أستطع الخروج إلى السّاحة طوال النّهار، فلزمت الفراش. حالياً، أقرأ «كرة من الشحم» لـ «غي دو موباسان». كما أنّي أستمّر في تعلم الإسبانية وأقرأ مجلات علمية، اقتصادية وأدبية.

هاأنذا كتبت لك رسالة أنت أيضاً. حتى أقرأك أيها البخيل (في الرسائل طبعاً).
لا تغضب. أقبلك.

12 فبراير 1978

جوسلين،

كنت أنوي الكتابة لك مباشرة بعد تلقي الرسالة التي أعلنت عنها، لكن منذ زوال يوم السبت تم نقلي إلى سجن «لعلو»⁽⁴⁶⁾ حيث عليّ أن أنتظر أن يكشف علي الطبيب ويوجهني نحو المستشفى. جميل أن أشعر بنفسي قريباً منك. هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك كل هذا الانقلاب الذي طرأ على حياتي اليومية. أن أجد نفسي بعد ست سنوات في نفس المكان الذي عرفت فيه أول تجربة سجنية لي. سجن متناهي في الصغر، مكتظ، ملئ الحركة والضوضاء. ليس هناك أي مقارنة بين هذا السجن والسجن المركزي ذي المساحة الشاسعة، الصمت الرهيب لقلعة المنفى. هنا يسمع هدير المدينة غير بعيد، أصوات بشرية، سيارات، وخصوصاً نفس هذه المدينة التي يخال المرء أنها تحمل السجن على ظهرها. يوم السبت، كان فرصة لرؤية مشهد الطريق، المارة اللامبالون، السيارات التي يعتقدها المشاهد تسوق نفسها بنفسها. الشعور وكأن لا شيء تغير: بضعة دكاكين إضافية، بعض الفيلات المتفاخرة، لكن دائماً مشاهد البؤس والفاقة نفسها، فضاء قمري بارد إنسانياً.

قضيت الليلة الأولى في قاعة مشتركة مكتظة بالمعتقلين. يستحيل وصف المشهد. لم أستطع النوم إلا قليلاً، لكنني فكرت كثيراً. كنت أشعر بالألم، إحدى تلك الآلام التي تنبعث عندما يلمُّ بالمرء عشق الآتي. فالحاضر عنيد مثل حقيقة موضوعية، لكن كم هو لا معقول!

أمس وضعوني في زنزانة مع كلِّ المستلزمات. ترقية سريعة كما ترين.

جرت لي حادثة مدهشة يوم السبت. عند وصولي إلى السجن، رأيت طفلة أعتقد أنها في سن قُدس. ما أن رأيتني حتى انطلقت نحوي وارتمت بين ذراعي. ضممتها إلى صدري كما لو أنها قُدس ذاتها. كم كان جميلاً هذا الاندفاع، هذا اللقاء الغريب. حقاً إن الأطفال يساعدوننا على الحب وعلى الحياة بالمعنى الفعلي والثام للكلمة (...).

23 ماي 1978

زوجتي الحبيبة، (47)

مر أسبوع منذ مغادرتي المستشفى. من قلعة منفي إلى أخرى. النفاذ إلى أعماق جهنم، ثم الصعود نحو الشمس المعتادة، الساحة الكبرى لمسيرتنا، وهذه الحديقة العجيبة، غابة مكثفة بفضل رعايتنا. كم أشعر بالانشراح في داخلي، مهجتي مطهّرة من كل خناراتها بالمياه الربيعية العاتية، حضورك اللامتناهي، البسمة التي لم تبح عنك قط، يقينياتنا المبرّرة كلها، التعرف على الأطفال. كم من ثمار الحرّة والحب. أترجم كتابة ما كنت قد تعوّدت (يا لها من عادة عذبة) على قوله بدون قيود، دون أن أطيل التّفكير عندما لم يكن هناك ما يمنعني من أن أمسك يدك. لكن دعينا من الماضي القريب، ستتاح لنا فرصة ذلك، وعندها سنغترف من كل منابع طاقته.

قلت لك من قبل إني تلقّيت رسالة منك متأخرة. إنّه مؤرّخة بالسّادس فبراير. أكاد أقول إنه خطاب متجاوز اليوم. هل تتذكرين كيف تنتهي هذه الرسالة؟ إليك ما جاء فيها: «حبيبي، لحظة حنان معك. كم ينقصني حضورك. أن أعيش إلى جنبك، يبدو لي حلماً، إلى درجة أنني متيقنة، أنه عندما تحين تلك الفرصة، فسيصعب عليّ تصديقها». تتسمين، أليس كذلك؟

كان قصدي تقبيل يدك فقط اليوم. فيما بعد، سأحكي لك أخبار السجن. إذن مرة أخرى أحبك، إذ أنه يحلو لك الآن جمع مثل هذه العبارات الجميلة.

هند، سلاماً، حلوتي! ألم أخيب ظنك كثيراً؟ المهم هو أن يحب بعضنا البعض، أليس كذلك؟ ياسين، إليك سلامي وقبلاتي على خديك، هل أنا حقاً صديقك الآن؟ فُدس... كم هو لذيذ اسمك!

لكم جميعاً (...).

28 ماي 1978

حبيبتي،

لا أزال لم أستطع استئناف وتيرة حياتي التي يدخل ضمنها انتظامي المشهور. منذ وصولي إلى هنا اجتزت مرحلتين: الأولى حيث لم أجد أي صعوبة في استرجاع عاداتي. كان ذلك يشبه الرجوع إلى البيت بكل ما يمكنك أن تتصوره من سعادة، وحب إطلاع، واهتمامات مختلفة. إن قطعة مثل هذه في مسار الرحلة صحية ومنعشة للجميع، وإن كانت الحالات مختلفة. يكتشف المرء من

جديد نوعاً من العذوبة في العلاقات البشريّة، كما لو أنّ أسسها قد أعيد تدعيمها.

أما المرحلة الثانية فهي تلك التي أعيشها الآن. إنّها العودة الحقيقيّة، إعادة الاندماج في المجال السّجني، انطلاق الرّمن من جديد دون مقاييس الأيام العادية. قلعة المنفى تبعث من بين أنقاضها، بخطافات الربيعيّة، موج صمتها العاتي، أبوابها الضخمة، سياجات حدودها. الآن فقط تصبح المقارنات ممكنة، ويشعر المرء بالشهور الأخيرة تدق في الذاكرة. إن هذا يبعث في النفس الشعور بالحرمان لكنه في الوقت نفسه يمدّها بثروة عجيبة. ففي منابع الحياة يمكن للمرء أن يذوق طعم الانشراح الحقيقي، يبلغ ذلك الاتساع في النظر الذي وحده من شأنه أن يتيح التقدم كيفاً. الأفق يعدو، ويضاعف القدرات (...). ياسين، هند، قُدس، يا لروعة استحضر حضورهم التام، ضحكاتنا، ألعابنا، مشاكساتنا، مناقشاتنا. إنّنا فتحنا ثغرة في جدار الفرقة. كم أشعر بنا متحدين، قوين بصداقتنا الجديدة.

8 أكتوبر 1978

جوسلين،

ها أنا أكتب لك من جديد. (48) أكاد لا أصدّق. هذه المسافة، في الوقت الذي كان قد أصبح عادياً أن نقتسم الحياة اليوميّة، أن نسعد بالحضور جنباً إلى جنب، وفاقنا العجيب. الآن، يمكنني أن أعبر عن كل سعادة هذه العودة ذات الحدود الهشّة، لكنّها مثيرة لكلّ ما أعادته إلينا: ثمار عجيبة واعتيادية في الآن نفسه، مستمدة من تراثنا الماضي والآتي. سعادة الحب بلا حدود، مسيرتنا المشتركة التي أذابت العديد من مناطق الظل، سعادة التجدّد دون الابتعاد عن الآخر، سعادة هذا الشعور بالنضج، في مواجهة المحنة. الحب في تقديرنا معناه الاحتفاء بالحياة الحقيقية، وضع الأمل في مركز القيادة، التجدّد باستمرار للعطاء.

كيف أتكلّم عنك، عما أصبحت، عنك بكل بساطة، بألفاظك، حركاتك، هيئتك، تفكيرك واندفاعاتك؟ صعب عليّ أن أراعي مثل هذه الموضوعية. نظرتي إليك لن يمكنها أن تكون باردة، نظرة محايد أو حكم. إنّني أرى كلينا في كلية حيث كل عنصر يمثل امتداداً للآخر، يلتقي به باستمرار. فلماذا حتى الانتقادات ما هي إلا مظاهر أخرى من التفكير، تعبير عن يقظتنا، عبارة عمّا يمكن أن يوجهه كل منا لنفسه. أجل، إنّنا لن نفرق. ورغم ذلك كم أخبار جديدة عنك طوال هذه اللقاءات. أخبار؟ إنّها تلك المظاهر من حديثك، تلك العادات التي لم أكن

أعرفها لديك، تلك الأفكار الجريئة، طريقتك في الكلام، في الفعل، والتي لم أكن أقتسمها معك في الحياة اليومية. وماذا عن عناداتك؟ أحبها فيك. وهذا قليل، كما لو أنني أنطق بحبِّك للمرة الأولى.

ينبغي لي وقت طويل كي أندمج من جديد في الواقع السجني. لم يتوفر لي بعد الوقت للتأمل. فالمهام العملية تأخذ مني كل وقتي. لم أستطع استصلاح فراشي إلا يوم أمس. أعتقد أنه أوتر فراش أنام عليه. صنعت كذلك مخدة ومسنداً. الآن أصبح ركني منظفاً بكل العناية التي يمكنك أن تتصورها. ما أن عدت إلى هنا حتى استأنفت حصص الرياضة، واستطعت التغلب على تعب التمارين الأولى. أنام جيداً نسبياً، لأنني أحاول الاستغناء تدريجياً عن المنومات. لم أعد أتناولها يومياً، وأنوي التخلي عنها نهائياً في أقرب وقت. سأكاتبك في بحر الأسبوع لأشرح تفاصيل أكثر. أتمنى أن أتلقى رسالتك المعلنة وغيرها، عديدة قدر المستطاع. إليك حبيتي.

27 أكتوبر 1978

حبيتي،

(...) لا تقلقي بسبب صحَّتي. لقد تعلَّمت كيف أعالج نفسي وكما يجب. بضعة أيام علاج، راحة نسبية ثم أعود إلى العدو، لأنني في حاجة إلى رياضي الصباحية، فهي تبعث فيَّ نشاطاً حقيقياً، وتريح أعصابي. الجوُّ جميل هنا، رغم فصل الشتاء الذي يقترب حثيثاً. الحديقة الصغيرة مزدهرة. إنَّها تمدنا بالنعنع خلال أيام العطل (أي عندما لا تكون الزيارات)، وكذا الفلفل الصغير مثل ذلك الذي كان لدينا في زنقة «باستور». ولدنا أيضاً بعض نباتات الباذنجان التي تثمر كثيراً. أكلنا منها مرتين منذ عودتي، وما زالت تنتج. وبالطبع كثير من الأزهار. إنَّنا نتمنى أن تنبت قريباً البذور التي أتيتها بها. عجيب كيف أن «النزلاء» هنا يولون أهمية كبيرة لهذا المربَّع الصغير. في كل وقت يمكن رؤية المعجبين الحالمين، أو بعض التجمُّعات بهدف حسم قضية نظرية أو علمية، أو تصنيف نوع هذه النبتة أو تلك.

إنَّها مشاهد نادرة حيث يبدو التأثير في أصفى مظاهره (...).

31 أكتوبر 1978

زوجتي الحبيبة،

(...) أن أكتب لك زيد الأيام المتواضع. الأحوال في تحسّن من الناحية الصحية، ولو إنّ الالتهاب في العين لم يشفَ بعد. أصاب بأمراض غريبة! ليست مؤلّمة كثيراً، ولكنّها تكاد تكون دائمة، معطىّ عادياً للمسار السّجني. هذا ما يمكنني من نسيانها في أغلب الأحيان مثلما أنسى آليات السجن.

عليّ أن أحدثك عن الحنين العذب إلى تلك الشهور من حضورك التام. ابتعدت بهذه السرعة! لكن الآن، مع المسافة التي تفصلني عنها، يمكن أن أدرك أحسن مدى قوّتها وجمالها. أتعرفين بماذا تذكرني هذه التجربة؟ كما لو أنّنا عشنا هذه الشهور في فضاء وزمان مغاير ومختلف اجتماعياً وتاريخياً. الحب المحاصر، لحظات عابرة من خرق المراقبة، وبالتالي تاريخٌ يذكر بمغامرات قديمة إذا استثنى الجانب المأساوي الذي لم يكن حقيقياً آنذاك. رواية بالمعنى الأصلي للكلمة. أليس كذلك؟ أكتب إليك، وأدخّن مثلما كنت أفعل وأنا أخاطبك، عادة سيّئة، لكنها تعبر عن الكثافة (...).

أمس، نظّمنا سهرة في زنانتنا. غنّينا مثل المجانين: ضحكات صاخبة، مشاكسات. أحصينا من جديد هفوات وعثرات اللسان لكلِّ واحدٍ منّا خلال الفترة الأخيرة. ولقد كانت الحصيلة غنيّة. تصوري، لم ينل منّي هذا الامتحان شيئاً!

الحي صاخب. تحوّلت ساحتنا إلى ميدان للفسحة كما يتم ذلك في الشارع الرئيسي للمدينة. أه! كدت أنسى أن أقول لك أنّ الرفاق عندما علموا بنجاحك طالبوا تعويضاً على نفقتك. حاولت دون جدوى أن أقنعهم بأنّ مطالبة من هذا القبيل تتنافى مع «الأخلاق البروليتارية». لكن دفاعي لم يحالفه التوفيق. لعلّ بطناً جائعاً لا يراعي كثيراً الحرص على المبادئ، لذلك لست أدري ما العمل. لنعتمد إذن على النسيان الذي يحلّ العديد من المشاكل ها هنا. إلى جانبك حبيبتى (...).

8 دجبر 1978

جوسلين،

كما قلت لك، فكّرت كثيراً فيك هذا الأسبوع. كان ذلك مؤلماً في بعض الأحيان لأنّ الذاكرة كانت تعيدك إلي على شكل مقتطفات مجرّاة، إحساسات خاطفة، هيّات عفيفة. ترين أنّني لم أكن أسبح في المجردات. إنّنا راكنا تجربة مشتركة إلى درجة أنّ صوابي يضيع أحياناً أمام هذا الكائن المزدوج الجنس الغريب الذي أصبحنا نشكله. يحدث لي أن أرى بعينيك، أن أكتشف أنّ يدي

تحوّلت وأصبحت يدك، أن أفكر داخلك وصوتك يغطي صوتي. إلى هذا الحد من التأجج. لعلك تفسرين هذا بتضخم رؤية السجين. حقا، هناك شيء من هذا. الخيال، هو قوتي، فضاء حرّيتي المتوحشة. أما التوازن فهو أمر آخر.

تعب، ضيق، لست في أحسن أحوالك... لكن في أشد حنانك. تعدّيني بأن تنفسي عنك تجاعيد الكآبة تلك؟ لا بدّ من هذا. بسمتنا نفيسة أكثر من كل تصور، باعتبار قوّة عدواها. إنّها شارتنا الشمسيّة كزوج أصبحت له نوع من الرّسالة. ليس بالأمر السّهل، المحافظة على ذات الوتيرة. بل إنني أفهم أن هذا أصعب بالنسبة إليك، لأنك في وسط دوامة من المشاغل والمهام التي تتطلب منك مجهوداً أكبر. لكن المهم هو ألا تتوقف، أن نصحّح عند الاقتضاء مجرى مسيرتنا ونكيّفها حسب الظروف الآتية. اكتب لي تعطيني أخباراً سارة عنك.

(...) أما أنا، فبخير، بحيث استأنفت من جديد مداعبة «ملهمتي الشعريّة»؛ ببطء حقا. ولكن ساستمر. قوي، معنويًا. كدت أقول... كالعادة. في المساء أميل إلى التّعاس. يحدث لي أن أنام وأنا ممسك بكتاب. ربّما السبب يعود كذلك إلى أنّي أقرأ في هذه الأيام الكتاب الضخم لشارل أندري جوليان «المغرب في مواجهة الإمبرياليات». أسلوب الكتاب يذكر بالقرن التاسع عشر، لكنّه ثروة هائلة من المعلومات عن الحقبة المدروسة (1415 – 1956). 1956! كالعادة...

أن أحبك، فهذه قوتي أيضاً، لكن في هذا المجال، لست في حاجة إلى التخيّل (...).

12 دجبر 1978

ابني العزيز ياسين،

مضى بعض الوقت لم أرك فيه ولم أستلم فيه رسالة منك. ولكن ذلك لم يمنعني من التّفكير فيك كما يحدث أن أفكر في جوسلين وأختيك بذات الحدّة التي أفكر بها في كل الأطفال من مثل سنك والذين يعرفون مثل مشاكلك ويشعرون بالغضب نفسه ويحلمون بمجتمع أكثر عدالة يضمن تفتح شخصية الإنسان ما دامت تنقرض فيه كل الأفكار البالية.

هل تعرف يا ياسين أنّه يحدث أن أشعر بالحزن عندما ألاحظ انعدام حوار مستمر بيني وبينك سواء كان ذلك بواسطة الرّسائل أو بصفة مباشرة عندما تأتي لزيارتي. أنا لا أريد أن أتهمك بالخطأ لأنّي أعرف أنّه يصعب عليك أن تقول ما تحسّ به وبشكل طبيعي. في مثل سنك يميل المرء إلى خلق عالمٍ

صغير، خاص به، له غرائبه ومآسيه الصَّغيرة. إنَّه ينغلق داخل هذا العالم الصغير ولا يريد اقتسامه مع الآخرين خوفاً من أن يكتشفوا ضعفه أو تناقضاته.

أنا أفهم جيِّداً هذه الحالة النَّفسية، ولهذا لا أوبِّخك على ذلك. فأنا كذلك (عندما كنت في سنك) مررت بذات الحالة وعرفت المشاكل نفسها مع هذا الفارق وهو أنَّه لم يكن هناك أحد يمكنه أن يفهمني أو يهتم بما كنت أعيشه. وبهذا كان عليَّ أن أحلَّ مشاكلي بنفسي. والأمر ليس كذلك بالنسبة لك، لأنَّ كلاً من جوسلين وأنا كُنَّا دائماً على استعداد للإصغاء إليك ومساعدتك وفهمك. وإذا كُنَّا ولازلنا كذلك نحن الاثنين فلأنَّنا نريد أن نغير العلاقات التي تجمع بين الأبناء والآباء كما نريد أن نغيِّر جميع العلاقات الاجتماعية الأخرى، لأنَّنا نعمل على خلق رجال ونساء من نوع جديد، متحرِّرين من كلِّ الأفكار البالية والعلاقات الاجتماعية الظالمة ومن كلِّ أشكال الهيمنة والاستغلال. وعلى أنقاض الانعزال والأنايَّة وكلِّ الشرور، نريد أن ننشر التَّفاهم والتَّضامن وروح العطاء، وأكبر قسط من العدالة.

هاأنذا قد وجهت لك خطاباً جاداً بينما لم يكن في نيَّتي إلا أن أقول لك صباح الخير وأن أسألك عمَّا تفعله وعن أحوالك الصحيَّة قبل أن أقبلك. إليك يا ابني الحبيب.

12 دجبر 1978

زوجتي الحبيبة،

(...) الأسر يتمدَّد. ثلاث سنوات متبقية. قصيرة وطويلة في آنٍ واحد. الحرِّيَّة أصبحت أقل تجريداً وبالتالي أكثر إغراء. لا يمكن للمرء أن ينزع من ذهنه العد العكسي. لا يصل الأمر إلى الفكرة الثابتة بالطبع، ولكن إلَّزمن يتأنسن، والمسيرة تصبح وثيدة. شيء واحد أصبح أكيداً، هو أنَّي كلما فكرت فيما بعد المنفى، لا يشغل بالي أبداً ماذا سأصبح أنا، وإنَّما ماذا سنصبح نحن، ووطننا، رجاله، عالمننا. هل أصبحت رجلاً بلا حاجيات؟ أحياناً أعتقد هذا، إذ أشعر بأنني تخلصت من كل ما يشكل ويؤسس الحياة والملكيَّة الخاصتين. أتمنَّى أن أمضي دائماً قدماً إلى أبعد حد في الانصهار مع الآخرين.

فترة عجفاء من حيث أخبار الرِّحلة. أليس السجن هو العرش الذي تستوي عليه الرِّتابة؟ أتساءل كيف أستطيع أن أكتب بكل هذا الانتظام وأجد مع ذلك دائماً شيئاً جديداً أقوله لك. ولا أرى من جواب آخر غير الرِّجوع إلى التبع المتدفق الذي يجمعنا (...).

22 دجمبر 1978

حبيبتى،

أجل، إني أؤكد هذا من جديد: كلما كان المرء واعياً (عبارة مبهمة ولكنها عملية) كلما أصبحت مسؤولياته أكبر. علينا نحن أن نفهم، أن نتسامح، أن نتنازل عن «حقنا» - من شتى أنواع الحطوط وأسباب الراحة - أن نأخذ على عاتقنا، أن نولي اهتمامنا... ولكن أيضاً أن نقنع، نصح، نشجع، نفد، أن نغني كل الإدراكات. صرامة وليونة، عطاء يثير ويستدعي العطاء، هذا شأن مسيرتنا، نسيج الأيام، نسغ الكلمة. لا علاقة لذلك بأي نوع من الوعظ. إن هذا هو شرط سعادتنا، لأن هذه السعادة موجودة، وهي المتمثلة في تحرير الحياة، عطاء كل واحد، تدريجياً، بعضاً وكلاً لطاقاته.

هذا مع العلم أننا لم نتغافل عن البلادة، الأنانيّة، الغرور وكل التواقص المألوفة التي يفرزها ويعيد إنتاجها النظام الاجتماعي باستمرار. لسنا أغبياء، ولا متوهمين، ولا مرضى بالتفاؤل. «لن تنطلي علينا الحيلة» (هل تذكرين؟). ذلك أننا متجدرون أئماً تجذر في الحاضر والمستقبل في الوقت نفسه. وهذا ما يسمح لي بأن أتكلم دون تردّد عن صحونا الخارق. تعرفين جيداً لماذا أتكلم هكذا. ملاحظة صغيرة أبديتها قبل قليل واسترعت انتباهي، وكذا تجربتي القريبة العهد والتي شحذت حماسي من جديد. لقد تبين لي مرة أخرى إلى أي حد أن اختيار الطريقة المتخذة لحل التناقضات حاسم لبلوغ الهدف، بغض النظر عن حجم أو أبعاد المشكل. وكم نحن في حاجة إلى مثل هذا الذكاء! فبدون توظيفه، سيحكم علينا بالخضوع لدوامه الأخطاء وتبعاتها (...).

بوذي أن أهتئ أطفالنا على نتائجهم المدرسية. لا ضرر في أن أكون فخوراً بكون أبنائي «تلاميذ مجتهدين». بالنسبة إلي، هذا يقدم البرهان على أنهم يستوعبون ما تقدم لهم الحياة رغم حدودها، أنهم يصارعون، ويتصارعون مع كل الأفكار. أنهم ليسوا مصابين باللامبالاة. أنهم يتمتعون بعافية النمو اللائقهر (...).

25 دجمبر 1978

هند، ابنتي العزيزة،

أعيد قراءة رسالتك الجميلة، المفعمة ألواناً والتي أفرحتني كثيراً كما تعلمين. أتمنى أن نستمر هكذا في المراسلة ولو من حين لآخر.

طيب، تقولين أنك تخجلين من أن تحدثيني عن بعض المسائل التي تهملك وعلى الخصوص أنك تخافين من أن لا أفهمك (هذه هي عباراتك).

ابنتي العزيزة، لقد قلت لك مراراً أنه لا يجب أن تخجلي من أن تحدثيني عن أي شيء. سوف يكون ذلك أمراً سخيماً إذا ما حصل. بالنسبة لي، أعتقد أن كل ما نفعله وكل ما يحصل لنا في استطاعتنا أن نتوصل إلى تفسيره، مما يساعدنا على تصحيح سلوكنا في الحياة. ففي كل يوم نقع في أخطاء، ولكن ليس ذلك أمراً خطيراً، على العكس فهو شيء عادي. المهم في ذلك هو أن نفهم أسباب أخطائنا وأن تكون لدينا الشجاعة الكافية لتصحيحها. شيء آخر: ليس لديك أدنى باعث على الخوف من أن لا أفهمك. على العكس، أنا على أتم استعداد لفهمك ومساعدتك على حل المشاكل التي تعترضك. صحيح، لقد كان الأبناء في الماضي يشعرون بهذا الخوف إزاء آبائهم. ولكن لماذا كان يحدث ذلك؟ لأن الروابط التي كانت تجمع بينهم كانت تقوم على عدم التفهم. فالأب مثلاً كان دائماً ينتظر من أبنائه الطاعة لأوامره وإلا عرّضهم لعقاب شديد. كما لم تكن هناك أبداً أي إمكانية للنقاش. أما علاقتنا نحن، فهي بطبيعة الحال مختلفة تماماً. فهي ليست مبنية على الإكراه بل على النقاش الحر والتفاهم. ودورنا، أنا وجوسلين، يتمثل في مساعدتك على أن تتوصلني في أقرب وقت للاعتماد على نفسك ولكي تتفتح شخصيتك وتحصلي علي أفكار صحيحة. ولا يمكننا أن نصل إلى ذلك إلا إذا كانت بيننا صراحة تامة، وإلا إذا اختفى الخوف والوجل من علاقتنا. هل تفهمين يا هند؟

إليك يا ابنتي الغالية.

9 يونيو 1979

جوسلين،

جو دخولٍ مدرسيٍّ هذا الصباح⁽⁴⁹⁾. ليس الجو فقط، فهناك دخول حقيقي. مدرسة متواضعة ولكنها تثير المشاعر حقاً. لو رأيت نظام وِجْدِيَّة «التلاميذ»، الحقائق الصَّغيرة المرتجلة - أكياس من البلاستيك في أغلب الأحيان - دفاتر، كتب، أقلام... كلُّ الأدوات باختصار، الجدية المتعطشة والمتواضعة للجميع، مدرسون وتلاميذ لا يصدِّقون أن كلاً من سيؤدِّي دوره من جديد. كلُّ هذا بعث فيَّ الحنين إلى الماضي حيث كنت ألتقي في بداية كلِّ سنة بشبيبة متجدِّدة، الثقة الآنية التي كانت تطبع العلاقات بين التلاميذ وبينني، علاقاتنا الرَّفاقية الفريدة من نوعها. لم أقبل أبداً بتأدية عملٍ مستلب. حقاً كانت هناك فترات أكثر متعة من أخرى. أحياناً كنت أكاد أسقط في الرَّتابة، ولكن بصفةٍ عامَّة، كنت راضياً عن هذه المهنة. لم أعطِ درسي الأوَّل إلا هذا الزوال. باستثناء بعض الحالات، فإنَّ الدُّروس التي ألقيتها هنا تلتقي بما كنت دائماً أقوم به (أهتمُّ بمستوى البكالوريا). أعتقد أنَّي لم أفقد شيئاً من كفاءاتي... ستسير الأمور على ما يرام.

لم أتلقَّ شيئاً منك منذ فترة طويلة. يخيل إلي أنك كتبت أقل عدد من الرِّسائل خلال الشَّهر الحالي: رسالتين فقط طوال شهر دجمبر. لا أواخذك على هذا، أشير إلى الأمر فقط، لا أنظرُ (...). امتداد نحوك، صورة عنيقة لتراثنا. كلما فكرت في هذا، لا أدري أين أوجه قلبي ورأسي. قصيدة تعدو في ذهني ويستحيل علي كتابتها، لأنَّ إيقاعها أقوى من أن تلتقطه الكتابة. هذا ما يجعلني يوماً بعد يوم مقتنعاً بأنَّ أجود الأشعار هي تلك التي لم نكتبها، والتي نتوقعها فقط. وإذا كان في وسعنا أن نكتب أشعاراً مع ذلك، فلأنَّ الأولى سابقة إلى الوجود، ترسل إشعاعها، تشكل منبعاً يجتذبننا، ويثير فينا باستمرار الجوع والعطش إلى الشَّعر.

بعض الكتب جنبي أقرأ فيها ببطء: مجموعة مقالات عن وضعيَّة المرأة، رسائل «لوسين»، وقرع الطبول من أجل رانكاس. ليس هناك اختيار «صارم» كما ترين. ورغم هذا فإنِّي أدخلت جديداً على قراءاتي، فقد بدأت أسجِّل هوامش على ما أقرأه. إن هذا أمر ضروري عندما يريد المرء أن يشكل «ذاكرة موضوعية».

أما عن الباقي، فكلّ شيء على ما يرام. سنة 79 دهمتنا دفعة واحدة، سنلتهمها مثل السنوات الأخرى. وأنت، ماذا تحكين؟ كتابياً...

إليك حلوتي، متناهية العذوبة.

7 يناير 1979

زوجتي الحبيبة،

توصلت برسالتك التي بعثت بها قبل يومين، وكذا أوّل رسالة حقيقية لـ قُدس. لنبدأ أولاً بهذه العفريّة.

لا أذكر إنجازات ياسين وهند عندما كانا في السن نفسه. ذلك ما جعلني أندھش (وأفاجأ إيجابياً) أن أرى قُدس قادرة على الكتابة بهذه الطريقة. أكيد أنني سأحاول إيجاد مراسلة من هذا الجانب. سأبدأ بالجواب على رسالتها بنصٍ قصير موجّه خصيصاً إليها. لقد علّقت لوحتها على الحائط، في الرُّكن حيث يوجد فراشي، وعلى أن أقول أنها مصدر إلهام بالنسبة إلي. أتعرّفين ماذا قالت لي في هذا الصدد؟ «إني اخترت ألواناً حزينة»، هذا ما أكدته لي بصيغة مهنية جدية!

لنعد إلى رسالتك. إنّها قمة في الإيجاز، ويمكنها أن تُقترح كنموذج لتمارين في ملخّص النص. لا تقلقي من هذه المداعبات، كانت جميلة تحيّيكَ الصباحيّة. كم تختلف صباحات الأمس عن صباحات اليوم! في الواقع، من وراء هذا الكلام المبتذل، ينبغي قراءة الامتداد نحو الحنانات المقبلة. كم أستبطنك حبيبتي! وسحقاً للمنفي، في أقرب وقت!

قلت لي بأنك أعدت قراءة رسائلي للسنة الماضية وأن هذا جعلك تعيشين من جديد هذه السنة المضطربة، ممّا جعلها تبدو لك مثل «جبال روسية»... فلماذا؟ أحس (بل إنه أكثر من إحساس) أن السنة الماضية كانت بالعكس من بين «أجمل» سنوات سجنني، مضطربة، أنا متفق معك على هذا، لكن بالمعنى الإيجابي، الأكثر إيجابية. سنة إعادة اكتشافنا لبعضنا، وتقييم حصيلة كل شيء. استراحة غنية، أمدتنا بمزيد من القوة لبقية الرحلة (...).

لا شيء يستحق الذكر عن أخباري. أنا لا أطرح على نفسي مشاكل «ميتافيزيقية» في الفترة الأخيرة. إني منهمك في المحسوس. أحاول أيضاً الكتابة شيئاً فشيئاً. الجو جميل جداً اليوم (...). أفكر فيك كما تعلمين ذلك (...).

21 يناير 1979

عزيرتي هند،

لقد كتبت للجميع، تقريباً، هذا الأسبوع، ولهذا لا يمكن ألا أكتب إليك أنت أيضاً، رغم أنك لم تبعثي لي ولو برسالة. لقد كنت سعيداً عندما رأيتك وقبلتك يوم الجمعة الماضي. لم نتكلم كثيراً بسبب الضوضاء ولتواجد عدد كبير من الزوّار، ولكن المهم هو أن نرى بعضنا، أن نعبّر، ولو بدون كلام، عن حنان كل واحد منا للآخر. أليس هذا صحيحاً؟ فلسنا في حاجة لكثير من الثرثرة لنقول إننا نحب بعضنا وإن لكل واحد منا الثقة في الآخر وإننا على اتفاق في الكثير من الأمور.

من جهة أخرى، أريد أن أعرف ماذا قررت بالنسبة لأذنيك؟ هل فهمت جيداً شروحاتي في الموضوع؟ باختصارها هو رأيي: (1) ليس مشكلاً كبيراً إلا تنفق في هذا الشأن، فإذا ما كانت لك رغبة أكيدة في إجراء عملية ثقب الأذنين، وإذا لم تجدي شروحاتي مقنعة، فتصرفي كما يحلو لك. (2) في العمق، إن ما كنت أحاول أن أفهمك إياه هو أن فكرتك ترجع إلى نوع من التأنق. أن ترتدي الأقراط معناه أنك تريد أن تكوني جميلة أكثر، وهذا ليس أمراً سيئاً في حد ذاته. ولكن يجب عليك ألا تهمل أمراً وهو: من أي زاوية ينظر بها مجتمعنا للمرأة أو الفتاة؟ إن الفتاة في مجتمعنا يُنظر إليها على أنها قبل كل شيء موضوع للزينة والإغراء أي كائناً لا يفكر ولا يفعل في الواقع، وهذه وسيلة لجعل المرأة أقل شأنًا من الرجل وحصر دورها في دور الدّمية الجميلة. «كوني جميلة واصمتي»، هذا كل ما يُطلب من المرأة.

هل تقبلين بهذا الدور وهذه الوضعيّة؟ لا أريد أن أقول إنّه إذا ما أجريت عملية ثقب الأذنين فإنك تقبلين ذلك، ولكن إذا لم تكوني حذرة في ذلك، فمن الممكن جداً أن تنساقى وراء رغبات مماثلة: فقد تبدئين اليوم بهذا، وغداً ترغبين في شيء آخر، وهكذا شيئاً فشيئاً تصبحين الدّمية التي حدثتك عنها من قبل، فتقبلي أن تكوني جميلة فقط وتصمتين. ولهذا يجب أن تكوني واعية بهذا الأمر منذ الآن.

أرجو أن تقرئي هذه الرسالة بكل تمعّن وأن تفكّري جيداً وتقوليني بكلّ صراحة رأيك في الموضوع. فلم يمضِ وقت طويل وقد كُنّا اتفقنا على أن نقول لبعضنا كل شيء.

حتى أقرأك يا بنيتي العزيزة.

24 يناير 1979

عزيزتي أندري، (50)

رسالتك التي تنفذ مباشرة إلى القلب، تمحو المسافات. انفعال الشَّعر عندما يتجسَّد فيصبح ملتقىً أخوياً. شكراً لمن، لماذا؟ لم أفعل شيئاً غير التعبير يوماً بعد يوم عن حياتي، أمالي، حبي... هل في هذا فضل؟

لكنه يصبح بالفعل فضلاً عندما ترى الثُّور رسالة مثل رسالتك. أتخيّل نضجها، طليقات العنف التي كان عليها أن تعبرها، ثمَّ اليد التي تنبسط، قوَّة، من أجل اللقيا. «بعيدة لكن في الحقيقة قريبة» كما عبرت عن ذلك.

إنَّ «معجزة» مثل هذه هي التي أعتبرها شخصياً نفيسة إلى أقصى حد.

صديقتي، في أوَّل رسالة لك تعامليني معاملة الحميم لأتَّك تعرفين أنَّ الأمر طبيعي، بل ضروري.. إذن تحيَّتي إليك، إلى أبنائك وجميع أهلك. كم أستعجل أن أعرفكم أكثر في أنشطتكم، مشاغلكم، محيطكم. إذن لا تترددي في مكاتبتني.

5 فبراير 1979

جوسلين،

أسف أن تسببت لك في قلق. كان ذلك رغماً عني. كنت قد كتبت لك في 28 أو 29 من الشهر الماضي، حيث كنت لا أزال في مصحَّة السجن. كنت أريد أن أطمئنك في الحال. الجانب المعنوي كان سليماً ولا يزال، وهذا هو الأساسي. تعرفين جيداً نظرتي حول القوَّة المحدَّدة في نهاية المطاف للجانب المعنوي على الباقي. أتمنَّى أن لا تكوني قلقة أكثر من اللازم. ها أنا إذن أقرب منك. (51) هذا أشعر به حقاً. ضجيج المدينة يتصاعد ويكتنفي، ووسط هذا الهدير لا بدَّ أن يكون هناك جزء منك، وأنا أدركه ضمن الباقي. أمس، عند عبور المدينة في ساعة حركة كبيرة وتحت مطر غزير، عشت كما لو أنني وسط أسطورة عجيبة. إني حيوان اجتماعي بشكل فظيع. الحشد، المدينة الصَّاخبة، الرِّجال والنساء حاملون حريتهم على ظهورهم دون أن يأنهوا بذلك. عيون بلا عمق، لا تبحث عن شيء، لا تستوعب من الحياة الخفاقة إلا النزر القليل. وأنا، مقيدَّ اليدين، أثير اندهاش أولئك الذين يكتشفون هذا مصادفة. في لحظات مثل هذه أشعر بمدى كرامتي. إني مثل ذات - شاهدة على مأساة شعبنا، وعلى علامات

الأمل التي تتعالى في أفق مسيرته المنهكة. في مثل هذه الأحوال لا يمكن أن يكون المرء مجرد عابر.

هنا، في الزنزانة، مع رفيقي، مجال ضيق. لكننا لا نغير لهذا أي أهمية. الأحلام تنبعث، منصهرة بحناننا المشترك. نضحك كثيراً من خلال استرجاع الذكريات واكتشاف بعضنا البعض.

متى سأرى الأطفال؟ كم أنا مشتاق إليهم. إليك حناني، حنان الأيام – الأعياد. أقبل يدك.

24 يوليو 1979

حبيتي،

لم أكن في صحّة جيدة كما أمكنك رؤية ذلك. هذا هو السبب الذي جعلني أبدي تلك الملاحظة الغيبية. أنت كنت مفعمة الأحاسيس وكنت تعبرين طبيعياً عن هذا الامتلاء، وأنا كنت أسبح في بحر آخر. ممّا يفسّر تلك العبارة الخرقاء التي تجاوزت فكرتي على أي حال. إن حسن الأحوال بالنسبة إلي لا يعني فقط سلامة الجسد. تعرفين نظرتي في هذا الصدد. كم أودُّ أن تفهمي ما أشعر به في هذه الآونة. إن كل شيء يغلي بلا هوادة في داخلي. أجل، إني قويُّ الأمل، ممّا يجعلني دائماً قادراً على رفع الرأس من جديد، ومداهمة الحياة من جديد، مواجهة المحن المتجدّدة، خيبة الأمل، إعادة النّظر المؤلمة. في السجن، وهذا أيضاً تعرفينه، كلُّ شيء يتخذ أشكالاً حادة، لأنّ الشعور بالحرمان، بالحدود، بحيل التّاريخ يكون أعمق وأقسى. لسْتُ قاتماً حبيتي. أريد فقط أن أكون في قمّة الصّحو، أن أرى الأشياء كما هي. وأحياناً يكون صعباً على المرء أن يكتشف أنّه لا يتجاوز التّمتمة والتردّي في تمتته في حين أنّ الرحلة تبدو طويلة. قلت لك إنّ هذا يلُمُّ بي أحياناً، وهذا بالفعل ما أعاني منه في الوقت الرّاهن.

هناك مع ذلك تعويضٌ هام. سأبدأ في مشروع التّرجمة. لديّ كل ما أحتاج إليه (أو يكاد). باعتبار أنّهم لم يعودوا يقفلون الأبواب ما بين الثانية عشرة والرابعة، زوالاً، يمكنني أن أعتزل في قاعة الدّرس كي أشتغل، وأحصل على منضدة ومقعد. وفي هذا الصّدّد يجب عليّ أن أستعيد عادة الكتابة فوق طاولة، لفرط ما تعودت على الكتابة على مكتب متنقل. نسيت أن أحدثك عن حديقتنا. عندنا الآن اثنتان، واحدة في كلِّ ساحة، وهما في أتمّ ازدهارهما، شجيرات اشترت عودها، نبات طماطم، ننع. إنّ المختصين برعاية النباتات أحدثوا تجهيزاً

للسَّقِي: استعملوا زجاجات من البلاستيك رأساً لرأس، وصنعوا بذلك أنبوباً يوصل الماء من الصنبور إلى الحديقة. لكنني لا أخرج إلا نادراً لأننا لسنا محظوظين، من حيث الشمس، هذه السنة. عليّ أن أراجع قصيدتي عن «الثلاث مائة يومٍ مشمس في السنة». أقبّل يدك، حبيبتي.

28 يوليو 1979

جسلان، أخي العزيز،

ذهاب وإياب أفراحننا، لقاءاتنا مهما كانت الظروف. المرونة كطبيعة إضافية. يوم الأحد الماضي لم يكن عمرك إلا اثنتين وثلاثين سنة. قليل بالمقارنة مع سنواتي السبع والثلاثين، لكنه مع ذلك عمر «المنجزات التّأضحة». مهما استخفنا بقضايا السن مثل هذه، فإنني أعتقد رغم كل شيء أنه لا بد من مرور بعض الوقت كي يتأتى لأفعالنا، لأفكارنا أن تعطي «ثمارها المشروعة»، لأنها تصبح نابعة عن بذورنا الخاصة، عن ممارستنا، مُخلصاً من ضوضاء الخطابات المتلقاة، تلك التي نبذها لأننا نأثرون عليها، أو تلك التي نستبطنها إلى درجة أنّها تلفظنا من جسدنا الخاص. عودة طبيعية كما تعلم ذلك. (52) إعادة الاستقرار (وهذا يتطلب وقتاً طويلاً في السجن). أستأنف عملي. ترجمة في الوقت الرَّاهن. هدفي في آفاق 1980 هو أن أعدّ كل ما يلزم بخصوص نصوصي. (53) وبعد هذا فقط، بعد أن يتم نشرها، سأنظر للمستقبل بصورة أخرى. هذا النوع من العمل مفيد بالنسبة إلي على مستوى آخر. فقد تبين لي إلى أي حد يمكن لترجمة نص ما أن تكشف عن عدد كبير من أبعاده. «فالخطاب الأدبي» يصبح شبه عار، وتظهر نقط الضعف، والإهمالات بوضوح، لكن أيضاً (ولحسن الحظ)، يتجلى العمق المشترك الذي لا يقبل الانكسار والذي من شأنه أن ينقل إلى أي لغةٍ أخرى، لأنه ليس رهيناً بـ «طبيعة الكتابة» (...).

3 غشت 1979

زوجتي الحبيبة،

لم أبعث لك إلا ثلاث رسائل منذ ذهابي (عودتي) بتاريخ 15، 24 و26 يوليو. وذلك يعود أساساً (لحسن الحظ) إلى الزيارات الأطول نسبياً والأقل توتراً ممّا كانت عليه في الماضي. وبالتالي فإنني أشعر وكأني لا أفارقك طويلاً. لكن الرسائل تبقى رغم كل شيء هي الرسائل (حسب تعبير من تعرفين). فضاء آخر، إمكانيّة أخرى للقول، للإحساس، للاقتسام. أعتقد أنّ على البشر ألا

يضيِّعوا أبدأ هذه الإمكانيّة، حتّى عندما يعيشون تحت سقف واحد. ألا تظنّين أنّ هذا سيعود بالنّفع على علاقاتهم وعليهم أيضاً؟ ستكون الرّسائل حينئذٍ، على صعيد الحياة اليومية وعلى الصّعيد الاجتماعي، إحدى لحظات الشّعور الضروري من أجل حب - حياة - كفاح أفضل. مرسلو عناية، حضور، معيش خاص ينبغي أن يصبح ملكاً للعموم. لكن لمن أحكي هذه القصة؟ أراهن أنّي فاجأتك وعلى ثغرك بسمه ساخرة، حنونة حقاً! ولكنها ساخرة من سذاجة مثل هذه. حسناً، لنعتبر أنّي كنت أحلم.

حبيبتي، مفارقة هذا الزّمن الذي يمضي مُسرِعاً. مَنْ كان يظنُّ أنّ الزمن السجني سيكون هذا السّباق الجنوني من أجل المعرفة، والإفلات من التّهميش الذي يترقّب، الحيلولة دون ضياع ثمار الحساسيّة والدّكاء، أنسنه جزيرة المنفى بواسطة الأعمال، الألعاب، الملاحظة، الضحك؟ عدم إضاعة أيّ شيء قصد إعطاء أقصى ما يمكن أن تبذله الذات. لا يفارقني الاندهاش ممّا يشكل حياتي العادية ها هنا. في الواقع إذا عمّقنا النّظر فإنّ مصدر هذا هو اندهاشي الدائم أمام الحياة، وظاهرة الحياة فينا. أجد هذا الواقع، هذه البديهية الإنسانيّة عجيبة جداً. أن يعيش المرء في ذاته، فهذا أوج المتعة السّعيدة، والألم المأساوي. أقول الحياة حقاً لأنّ هذا يقتضي الوعي بخطورة ومستلزمات هذا الواقع. هناك البعض الذين يوجدون، ولا أقول يعيشون، يوجدون فقط لتدمير الحياة. لكننا نحن لا نتحدث عن هذا النوع من الحياة (...).

4 غشت 1979

عزيزي ياسين.

اليوم فقط، توصلت برسالتك المؤرّخة في 26 يوليوز والمرفقة بالقصيدة. بطبيعة الحال، لقد توصلت من قبل بالبطاقة البريدية التي تمثل جسر «بورديو» المعلق والتي أعلنت لي فيها عن بعث رسالتك. ولهذا انتظرت كلّ هذا الوقت حتّى أتمكن من الإجابة عليها. قالت لي جوسلين أمس بأنك كنت تنوي العودة في 13 المقبل. فليس لرسالتي هذه إذن إلا الوقت اللازم لوصولها قبل سفرك. هذا على الأقل ما أتمناه لأنني أرغب كثيراً أن تعلم كم هزّنتني قصيدتك في أعماق نفسي.

هل رأيت يا ياسين؟ أنّ الشّعور وسيلة رائعة للتّعبير عن مشاعر الإنسان، عن رفته، عن حبه وقلقه، وللتّعبير كذلك عن تواصله مع الآخرين بشكل أكثر عمقاً ممّا هو عليه الحال في الأحاديث العادية. ولكن لا يجوز أن أتحدّث عن الشّعور بصفة عامّة. بل إنّي أريد أن أحتفل بقصيدتك أنت، ولقد بدأت فعلاً في ذلك، إذ

أَطَّلَعْتُ عَلَيْهَا مَجْمُوعَةً مِنَ الرَّفَاقِ، وَقَدْ عَبَّرُوا عَنِ ذَاتِ الْقِنَاعَةِ الَّتِي تَوَصَّلَتْ إِلَيْهَا: لَقَدْ وَجَدُوهَا بَسِيطَةً وَدَقِيقَةً وَجَمِيلَةً. هَلْ تَعْلَمُ يَا يَاسِينَ أَنَّهُ لَشَيْءٌ رَائِعٌ أَنْ تَفَكَّرَ فِيَّ بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ، وَبِهَذِهِ الْحَدَّةِ، وَأَنْ أَعْرِفَ كَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ الَّذِي أَعِيشُهُ يَهْمُكَ بِكُلِّ تِلْكَ الْقُوَّةِ الَّتِي عَبَّرْتَ لِي عَنْهَا! أَعَانُكَ يَا بَنِي وَصَدِيقِي وَأُخِي.

وَأَجِيبُكَ عَنِ اسْتِئْتَابِكَ، فَإِنِّي لَا أَتَرِيضُ كَثِيرًا هَذِهِ الْأَيَّامَ، بِسَبَبِ دَاءِ الْمَفَاصِلِ. عِنْدَنَا الْآنَ حَدِيقَتَانِ صَغِيرَتَانِ عَامِرَتَانِ بِشَتَّى أَنْوَاعِ الرَّهُورِ وَالنَّبَاتَاتِ: شَجِيرَاتُ الْوَرْدِ، يَاسَمِينِ اللَّيْلِ، لِبْلَابِ، كَسْبِرِ، رِيحَانِ، فِلْفَلِ، نَبَاتِ طِمَاطِمِ، ذِرَّةِ، زَهْرِ الشَّمْسِ وَشَجَرَتَانِ كَبِيرَتَا وَاشْتَدَّ عَوْدُهُمَا. هَذَا كُلُّهُ فِي مَسَاحَةٍ مِنَ الْأَرْضِ لَا تَتَعَدَّى عَشْرَةَ أَمْتَارٍ مَرْتَبَعَةً. الْجَدِيدُ فِي الْأَمْرِ هُوَ أَنَّ بَعْضَ الرَّفَاقِ صَنَعُوا قِنَاةَ مَوْصِلَةٍ لِمِيَاهِ الصَّنُبُورِ الْمَوْجُودِ فِي السَّاحَةِ، وَبِهَذَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَسْقِيَ الْحَدِيقَتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ.

(...) إِلَى اللَّقَاءِ يَا بَنِي الْعَزِيزِ. أَنَا مَتَشَوِّقٌ كَثِيرًا لِرُؤْيُكَ وَلتَقْبِيلِكَ بِالْفِعْلِ.

16 غشت 1979

عزيرتي أندري،

تَلَقَّيْتُ رِسَالَتَكَ مِنْذُ بَعْضَةِ أَيَّامٍ، وَبِدَوْرِي تَرَكْتُهَا تَنْضِجَ، لِأَنَّ صَوْتِكَ الْأَخُوِيَّ، الْجَسِيمَ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُنْصَتَ إِلَيْهِ بِنَفْسٍ مُسْتَهْوَاهِ إِذَا أُمِكنَ التَّعْبِيرُ. وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَطْمَئِنِّي. رِسَائِلُكَ لَا يُمْكِنُهَا بِنَاتًا أَنْ تَشْكَلَ حَاجِزًا أَمَامَ غَيْرِهَا مِنْ الرِّسَائِلِ. فَبِسْمَةِ لَا تَشْبِهْ أَبَدًا بِسِمَةِ أُخْرَى، وَإِنِّي أَثْمَنُ طَرِيقَةَ كُلِّ وَاحِدٍ فِي بَسْطِ يَدَيْهِ. كَمَا يَجِبُ اعْتِبَارُ أَيْضًا خُصُوصِيَّاتِ الْعَالَمِ السَّجْنِيِّ: مَكَانُ الْفَرْقَةِ بِالْأَسَاسِ. وَبِالْتَّالِي فَإِنَّ رِسَالَةَ مَا تَشْكَلُ جَسْرًا كَمَا عَبَّرْتَ عَنِ ذَلِكَ، وَيَجِبُ أَنْ تَتَعَدَّدَ مِثْلَ هَذِهِ الْجَسُورِ كِي لَا يَغْرُقُ السَّجْنِيُّ فِي هَذَا الْمَنْفَى الدَّاخِلِيِّ، كِي «يَعِيشَ عَلَى إِيقَاعِ نَبْضِ الْعَالَمِ». مَطْمَئِنَّةٌ؟ تَحَدَّثِيْنِي عَنِ هَذَا الْحَدَثِ – الْإِشْرَاقِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَسْقُطَ فَجَاءَةً أَقْنَعَةُ الْوَاقِعِ وَيَفْتَحُ أَعْيُنَنَا فُورًا عَلَى الْاِقْتِسَامِ، وَيَحْمِي فِينَا نِدَاءَ الْعَطَاءِ. مَا قَوْلُكَ عَنِ امْرِيَّ يَعِيشُ هَذَا الْحَدَثَ كَنَسِيحٍ مُبْتَمِرٍ لَوْجُودِهِ؟ إِنَّهُ لِأَمْرٌ قَاسٍ وَحَلُوهُ هَذَا الْإِحْسَاسُ بِالْعِيشِ فِي جَسَدٍ مُفْتُوحٍ، كُلُّ الْأَعْضَاءِ تَنْبُضُ، مَشْتَّتٌ وَفِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ وَاعٍ بِكُونِهِ بِرَمْتِهِ فِي كُلِّ جَزِيئَةٍ، لِأَنَّهُ حَاضِرٌ فِي كُلِّ مَجْهُودٍ يَبْذُلُهُ الْبَشَرُ لِإِزَاحَةِ كَفَنِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ. يُمْكِنُ أَنْ نَسَمِّيَ هَذَا «قَلْقًا»، لَكِنِّي أَعْتَبِرُ أَنَّ اللَّفْظَةَ لَا تُوَدِّي الْمَعْنَى الْمَطْلُوبَ. فَالْقَلْقُ حَالَةٌ انْتِظَارٍ فِي حِينٍ أَنَّ مَا وَصَفْتَهُ يَشْكَلُ انْفِتَاحًا عَمَلِيًّا، رَغْبَةً فِي الْاِقْتِسَامِ، وَثَبَةً وَجُودٍ. هَذَا مَا يَجْعَلُنِي أَبَاشِرَ الْاِخْتِيَارَاتِ الَّتِي فَرَضْتُهَا عَلَى نَفْسِكَ. سَيَكُونُ تَسْرُّعًا مِنْ جِهَتِي إِنْ أَنَا حَاولْتُ مَنَاقِشَتَهَا، عَلَى الْأَقْلِ فِي هَذَا

المستوى من حوارنا النَّاشئ. إِنَّ ما يهْمُنِي أن أقوله لك هو أن المرء، ابتداءً من مستوى ما من اليقين حول انتمائه الخاص، جذوره الحقيقية، يبدأ الأفق يتَّضح له. وبصفة أدق لا يتعلق الأمر بأفقنا الخاص الفردي الذي نسعى إلى استجلائه، وإنما هو أفق كلِّ الآخرين. حينئذٍ يتهوَّى جسدنا، تبصر أعيننا، تنمو أجنحتنا، مستعيراً إحدى صورك. أجل في حياة كلِّ رجل/ امرأة، هناك بالضرورة حاجة إلى وقفة كي تتمَّ هذه التساؤلات قبل انطلاقته الجديدة.

حالتني الصحيَّة تعرف نوعاً من الاستقرار. أحاول أن أفكّر فيما هو أكثر استعجالاً. تحيةً وديةً لكلِّ أهلك. في انتظار التعرّف عليهم.

30 غشت 1979

جوسلين،

اسمك الذي أظفه، عذب التَّسييح به، مُويجات حروفه على لساني. أن أناديك باسمك، أليس في هذا التَّعبير عن حُبِّي لك بلا مواربة؟ أمس، فجأةً ينفجر حناني، أشهدُ الأطفال على معجزتنا العادية. أبداً لم أشعر بالحاجة إلى أن أكون حرّاً بهذا القدر، حرّاً مثل أحد المائة الذين كنت أشاهدهم في المستشفى وهو لا يشعر بقيمة ما يحمله في نفسه، ولا يمكنه أن يتصوَّر الأمور غير ذلك. حرّاً بصورة عادية على عتبة الحرية العميقة، تلك التي تُخصِّب الأيدي، والتي تُعيد لنا كلَّ خصالنا الإنسانية.

كم من انفعال أمس! دموع فرح لرؤية تلك الوجوه التي غيرتها السنون أو لم تغيرها، الأعين التي تبرق، الأذرع التي تفتح، الشُّتات المقهور، الجميع مؤتلفون. كانت الحياة تنبض، تدوِّي. والقلب كالعادة لا يمكنه أن يحتوي هذا الرِّخم. كنت على وشك الانهيار.⁽⁵⁴⁾

في لحظات مثل هذه يشعر المرء بأنَّ السنوات قد مضت، أنّه لم يعد الإنسان الذي كان. أنه في صلب التاريخ. كم من أشياء تزدهم في الدَّهن. لكنني أفضل أن أترك الأمور تتَّضح. كان لا بدَّ لي من بعض الرَّاحة. وهذا الرِّوال، عندما ألقى نظرة على الروزنامة اكتشفتُ أنني لم أكتبك منذ الرَّابع عشر الفارط. يا للإهمال! بسرعة إليك هذه الكلمة القصيرة جدًّا. اكتبني إلي، حبيبتي. أقبل يدك.

5 شتمبر 1979

زوجتي الحبيبة،

هنيئاً سانحة لمكاتبك. أمس، انتقلت من الحي. (55) وإني لا أزال مضطرب
المشاعر، كما يمكنك أن تتصوّريني. كل هذه الوجوه الجديدة، هذه الأيدي
المصافحة، الذكريات التي يبعثها الحضور. سيكون صعباً تحمّل قمّة انفعال
مثل هذه، على الأقل في مرحلة أولى. لكنني سعيد باستنشاق هواءٍ نقي، بأن
أرى حياة «أزهى ورود شبيبتنا»، أن أقتسم حياتها. أقيمت مؤقتاً بمصحّة الحي
الجديد في إنتظار أن يجدوا لي زنانة خاصّة. القاعة شاسعة، 8 أسرة، مصابيح
كهربائية معلقة بالسقف عوض أن تكون مدمجة في الحائط، عدد من النوافذ
الكبيرة تطل مباشرة على ساحة الفسحة، طاولة خشبية تحيط بها مقاعد.
باختصار يخال المرء أنه في مخيم اصطيفي. مكتبة الحي جد غنيّة. فيها عدد
من الكتب باللغة الإسبانية. فكما ترين، الأمور بخير، ثلاث مرّات...

13 شتمبر 1979

حبيبتى،

(...) أتكيّف هنا شيئاً فشيئاً. يلزمني بعض الوقت كي أتحمّم في الإعصار، كي
أرتّب فيه فضاء صغيراً لوقتي الخاص، لسباقي مع الشّعْر، لمختلف أعمالى.

لقد عدت من جديد إلى «زنزانة السّجين» التي كثيراً ما وصفتها. سبق لي أن
تعوّدت على مثلها، ولو أنّ هذه أضيّق شيئاً ما لأنّ المرحاض منفصل عنها، وهو
يحتلّ خمس المساحة. السّاحة جميلة، أشجار حقيقية، نافورة في وسطها.
مكان يمكن للمرء أن ينسى ذاته فيه لولا الاكتظاظ. هناك ساحة ثانية، تذكر
أكثر بالسّجن، ولكن ما يعطيها صبغة إنسانية هي حديقة صغيرة حيث توجد
العديد من أنواع الأزهار. (هنا لا يطغى الاتجاه النفعي، لعلها نزعة المتقنين!)
الزّمن يمضي كقطار جشع (...).

19 شتمبر 1979

حبيبتى،

زيارتك قبل قليل، لم تطفئ جذوة شوقي إليك. آية حضورك، بسمتك
المحرقة، يدك الدافئة. حرّيتى هي أنت. وكم أنا في حاجة إلى هذا التمام.
عجّرت كل المحاولات، لا يمكنني أن أكون سجيناً. كلما طالبت المحنة، كلما

أجدني أقرب أكثر من منابع الحياة الأكثر حيويةً. جنوبيةً هذه القوة التي
تعبّرني، طاقة الحنان هذه التي تغمرني، وهذا كله بين أربعة جدران، في أوج
شتاء المنفى.

«ناغازاكي، دون صراحة ناكازاكي» (56). أتذكرين. لعلّ شيئاً من هذا القبيل هو ما
أشعر به. ويهتزّ له جسدي الثّافه هذا... أنْ أحبّك، من حيث أنا، وبالطريقة التي
أنا مضطّرّ للتعبير بها عن هذا الحب، يجسّد ويعبر جيّداً عن القصد الذي أرمي
إليه من وراء هذا. إنّنا نقرب من جوهر المأساة، لكن مأساة في زمننا، حيث
اكتشفَ المعدّبون في الأرض في طبّات شقائهم، الأمل، لأنّهم هم وحدهم
يحملون بذور عالم جديد. أن أكون واحداً منهم، فهذه هي قوّتي. حبيبتني، يا
لعنّف ما توقظينه في داخلي! في لحظاتٍ مثل هذه تبدأ عيناى تبصران، تريان
حقاً، أي من الدّاخل وفي «الأرجاء التي لا تعد». أن أحبّك، لا يعني مجرّد علاقة
رجلٍ بامرأة، بل إنّّه يعني العيش داخل العالم، وسطاً رجالٍ يصهرون
المستقبل، أن أقتسم معهم رغيّف الأخوة.

الأحوال تتحسنّ، حبيبتني، سواء منها الطّروف الصحيّة أو غيرها. وبالتّالي فإنّي
أستكشف عالمي الصّغير. فضاء جديد ستصبح كل جزئية فيه اعتياديةً بالنسبة
إلي، لكن لا يتعلق الأمر ببداية سجن جديد في رحلتي، إنّها حياة جديدة.

نظراً لقلّة رسائلك، فإنّي منذ فترة طويلة نسيّاً لم أعد أعرف شيئاً عن كيف
تقضين وقتك، ماذا يجري في البيت، ماذا عن تجوالك في المدينة إذا كنت
تتجوّلين؟ وعن الأزقة؟ حقاً، إنّ مثل هذه الأسئلة تبدو تافهة بالنسبة لمن
يعيش خارج الأسوار. المدينة دائماً هي هي، الأزقة لا تتغيّر تقريباً، المشاهد
نفسها، المازّة ذاتهم. عندما يكون المرء حراً لا تكون لديه ذات البواعث على
ملاحظة التّغيرات، والتوقّف عند مثل هذه «الجزئيات». أما بالنسبة للسّجين
فإنّ الأمور عكس هذا تماماً، إذ أنّه يعيش في رهبة مستمرّة من احتمال
انقطاعه عن الواقع، وبالتّالي فهو يسعى إلى أن لا يفوته أدنى شيء من كلّ
تغيير. أعترف أنّ «مهنة» زوجة سجين مهنة غريبة حقاً.

نوافذ، نوافذ كبيرة تنفّح في جدران الحجر، وتطلّ على السّاحة، الحديقة
الصّغيرة، السّماء التامة في رقة ألوانها الرّمادية. أصوات السّجن، نداء
المؤدّن، هدوءٌ في داخلي أستوحيه من سعادة حبّك. أقبل جبينك. معك. هل
تكتبين لي؟

9 أكتوبر 1979

جوسلين،

أفكاري المسائية إليك. وحيدٌ في زنراتي الضيقية، تعشيت قبل قليل وأعددت شيئاً أسود. السهرة تبدأ. انقباضٌ يلمُّ بي وأنا أفكر في الساعات الست من الوحدة قبل النوم. رغم العادة، العادات، فإن يوماً أو أمسيةً في السجن لا تشبه أبداً آلاف الأيام والأمسيات التي سبق لي أن قضيتها. ما دامت الحياة مستمرة، ما دامت هناك أسئلة جديدة تبرز عند كل خطوة، فإن كل يوم يعيد اختراع المرء، وإن كان هذا جزئياً. ثم عندما يتعلق الأمر بجسدٍ مثل جسدي، فإن الصدمات ترسل إشعاعها إلى الأعماق.

إليك، حبيبتي، إلى أن آخذ بيدك. أتخيلنا جنباً إلى جنب في هذا المستقبل القريب والبعيد في آن واحد. كتفك وصمتنا. الزمن الذي يمرُّ على إيقاع حنانك. جنون أمر بسيط كهذا، والذي يتطلب مني بعض المجهود كي أعيد تركيبه وسط ضباب الحلم. بالنسبة للآخرين هذه صورة مبتذلة، أمّا بالنسبة إلي فهي تمثّل قدس الامتلاء. و صوتك الذي من شأنه أن يثير كل مشاعري لو تأتى لي أن أسمعهُ في هذه اللحظة. تحية المساء، ضحكة، إحدى عباراتنا الاعتيادية. يبدو هذا لا معقولاً، ولكن كم أنا راغبٌ في أن تكوني هنا، بالقرب مني، كي يمكنني أن أعرفك على بيتي الصغير، أن أريك رسم «أنيس» الذي علقتهُ على الحائط، مباشرة بإزاء الباب. المرأة الصغيرة التي تنمق وحدها الحائط اليميني، أدواتي المنزلية، دفاتري وكتبي، صورك وصور الأطفال، قميص أزرق جميل معلق على مسمار ويشكل لوحده قصةً كاملة (رأيتهُ صباح اليوم يرتديه أحد الرفاق. قلت له بأنه قد أعجبني. وهذا المساء، عندما أغلقت الباب وجدت القميص مطويّاً داخل إحدى صناديقي الكارتونية. جميل، أليس كذلك؟). ألن يكون عجباً أن تتمكن من التفسّح سويّاً في هذه اللحظة وسط الساحة الخالية، والمضاءة بنور القمر؟ كفى حلماً! ينبغي التفكير في أمور أخرى. هناك خبرٌ سار: منذ ثلاثة أيام أرغمت نفسي على النوم دون تناول المنوم الاعتيادي، وتوصّلت إلى ذلك، كما أنني استغنيت عن الوسادة، وهكذا فأني أستريح أحسن. لكنني لا أزال أتابع العلاج ضد التهابات الروماتيزم. ورغم هذا فأني سعيدٌ بهذا التحسّن. اقرأ قليلاً فقط. بما أنه ينبغي الانتظار طويلاً قبل وصول المجلات العربية والفرنسية فأني ألجأ إلى المجلات الإسبانية بل وحتى الإنجليزية (...). وأنت، كيف تفكرين فيّ؟

9 أكتوبر 1979

جسلان، أخي العزيز،

اعذرني على كلِّ هذا التَّأخير في الإجابة على رسالتك المؤرَّخة بالثَّامن عشر. ليسَ هذا نسياناً كما تعلم. في الواقع، أنا سجين من نوع غريب. وبالآحرى فإنَّ حياتي هي الغريبة. إنَّها سباق مستمر ضدَّ الساعة، ضدَّ صدا الوجود، ضدَّ قوى الجمود، ضدَّ نفسي. رغم «تقدُّمي في السن» فإنَّ نفس الغضب يَلوي أحشائي ويندفع بي، حثيثاً إلى الأمام، في الاتجاه المعاكس تماماً لذلك التعلُّل الذي أمروني باكتسابه كي أصبح «اجتماعياً» في نهاية المطاف. فالسجن يشكِّل مكاناً هائلاً للوفاء. لكن يكفيننا هذا القدر من التصفُّف السجني (...).

9 أكتوبر 1979

زوجتي الحبيبة،

(...) هذا الصَّبَّاح، باكراً، استيقظت على صوت المطر. تعرفين ذلك الإحساس الذي نشترك فيه والذي يعترينا في لحظاتٍ مثل هذه. الموت/ الانبعاث، التَّهْيئة والعودة، حنين بلا بوصلة، لحظات لا نهائية حيث نصبح جزءاً من الأرض، من العناصر الطبيعية، حيث ترعد حركة الكون في أعماقنا. أذكر انفعالاتك في مثل هذه اللحظات، عندما أشعر بك أكثر بعداً وقرباً في آن واحد، أكثر عذوبة أيضاً، امرأة رائعة. إذن، هذا الصَّبَّاح، بقيت طويلاً أنصت لإيقاع المطر من داخل فراشي الدَّافئ. لحظات استيقاظنا تعود فجأة إلى ذاكرتي، سعادة أن أكتشفك من جديد إلى جنبي، أكثر دفئاً منِّي، عذبة كما ستبقين دائماً، وأوَّل قبلة كنت أهديها إليك. بَعِيدُ كلِّ هذا، علينا أن نقرَّ بذلك ونتخيَّل بالآحرى مثل تلك اللحظات في المستقبل.

حبيبتي، قبل قليل، عندما فكَّرت في مكاتبتك، كنت أتساءل ماذا عساي أن أقول لك. كنتُ أفكر في حالة علاقاتنا خلال الفترة الأخيرة. وما أثار انتباهي هو أولاً المستوى الرَّفيع لحناننا – وذلك ما لاحظته أنتِ نفسك في إحدى رسائلك الأخيرة – ومن جهة أخرى غياب مناقشةٍ طويلة النفس. ألا ترين أن في هذا نقصاً لا بدَّ من تداركه؟ ربَّما تقولين لي أننا تمكَّنا خلال هذه السنة من توضيح العديد من القضايا، وأنه نتج عن هذا وفاق في مستوى أعلى. هذا صحيح، لكنني أعتقد أن وفاقنا هذا لا بد وأن يعمَّق باستمرار. ثمَّ هناك قضايا جديدة تبرز في كلِّ حين وتطلب منا أن نتقدَّم بتفكيرنا ونقاشنا. إنَّه في علاقةٍ مثل هذه التي تربط بيننا، تمثِّل المناقشة والتقدُّم الآخوي وسائل لليقظة والحنان، ضمان استمرارية مسيرتنا. ما رأيك؟

كان الأطفال قد وعدوني بأن يكاتبوني لبيعثوا إليَّ بجدولهم الزماني وبرامجهم الدِّراسية. مازالوا لم يوفوا بوعدهم. تعرفين، إنَّهم ينقصونني جدًّا. لا أعتقد أنني

سأستطيع الانتظار أسبوعاً آخر قبل رؤيتهم. كم أودُّ أن أعرف ماذا يفعلون في هذه اللحظة، ماذا يشغل بالهم (...).

22 أكتوبر 1979

حبيتي،

(...) عدتُ من جديد إلى المصحَّة. أزمة سكني، ثمَّ لأنَّ هذا أعقل. فنظراً لمرضي، لم يكن من المعقول أن أبقى في تلك التَّلاجة غير الصحيَّة التي تمثلها زناتي، موطن الرُّطوبة والنتانة. هنا، رغم قلة الهدوء فإنَّ الجوَّ صحِّي نسبياً. ترين أنني أيضاً يمكنني أن أكون متعلِّلاً.

أبام كئيبة. ولهذا السَّبب فالموت قدرٌ أحقُّ عندما تفاجئنا بغتةً. (57) لكن عند التأمل، نرى أنَّ هذا الأمر جزء من الحياة التي نعيشها، فقط هي مسألة درجات. لم أستطع التخلص من التَّفكير جدياً في هذا الحادث. في نهاية المطاف، توصلت إلى نوع من عهد الشرف مع واقع الموت. لم يعد الأمر يتعلق بتأجيل المواجهة إلى مرحلة من الحياة تصبح فيه هذه المسألة ملموسة أكثر. لا بصفة نهائية، أتقبَّل هذه الحقيقة كأمرٍ بديهي، ليست أكثر ضرراً ولا أكثر بشاعةً من حقائق أخرى نواجهها في كلِّ لحظة. وإلى ذلك الحين لا بدَّ من الكفاح كي تصبح الحياة قابلة للعيش حقاً (...).

إليك يدي، قصيدتي الدائمة.

25 أكتوبر 1979

عزبتي أندري،

من «قلعة منفاي» كنت أعتقد أنَّ سويسرا توجد في الطَّرَفِ الآخر من العالم. لكن لا، رسالتك المؤرَّخة بالتَّاسع عشر وصلتني قبل يومين. فترة انفراجٍ إذ الرسائل تدخل وتخرج بدون عوائق. نَعَم هذا، إذ تتواصل هذه الفرحة التي تسقي أحاسيسنا، وتحطم بعذوبتها أسوارنا الدَّاخلية. أجل، أفهم قلقك من العيش هناك حيث يميل المرء إلى أن يعتبر نفسه ليس «فوق الشُّكوك» بل خارج الصراع... كم يصعب عليَّ أن أتحدَّث عن كلِّ هذا. فكم عانينا هنا من ادِّعاء إعطاء الدُّروس للآخرين بحيث أصبحنا نتجنَّب هذا النَّوع من الخطب الأبويَّة، القِيم الكونيَّة والوصفات النموذجيَّة. لكن رفضنا لنزعة المركزية عند

الغرب ولكل خطابٍ وعظيٍّ لا يمنعنا من البحث عن سبل اللقاء، فضاء
الاقتسام، ما يجمع بين كل المتحدّين في الألم، كيفما كانت درجة استلابهم
واستغلالهم. فالاضطهاد لا يُقاس بمستوى سوء التغذية والقمع الجسدي
فحسب، فمن الممكن أن يكون أكثر حدّة أو بالأحرى خداعاً في مجتمع
الرّفاهية المزعومة. ممّا يفسّر فضاء أخوتنا وحوارنا، ويفسّر ضرورة الخروج
من الصّمت المفروض ومن الصّمت الدّاتي، تفجير الغيتوات الضّيقة التي
نفرضها على أجسادنا لحماية طمأنينة أيّامنا، عيون الأناثية المكتسبة والخلج.
بدون هذه الانتفاضة لكلّ امرئٍ، فإنّنا سنتخبّط وسط الوّحل الذي تتحدّثين عنه
وفي تعايش كابوسي مع أزمة الضّمير. أيخيفنا أن نعيش؟...

7 نوفمبر 1979

جوسلين،

محرّجٌ أن اكتبَ لك بكلّ هذا التّأخير. لم أستطع تجنّب هذا. ثقلُ في الرّأس. تتضمّن في الرّمن. السّجن يحصر، بدهاءة لا يجوز نسيانها. كلّ يوم يمرُّ إلا وأتعلّم
أشياء جديدة عن عالم الأسوار الخارجيّة والدّاخلية هذا. صعب عليّ أن أحكي
لك حياتي اليوميّة. على كلّ فأحلامي القديمة لا تحتل فيها إلا حيزاً ضيقاً. لا
أستطيع إطلاق العنان لتأمّلاتي إلا في نهاية الرّوال عندما تصبح السّاحة خالية.
أنتهز فرصة بعض الدّقائق الإضافيّة التي تتاح لنا نحن المرضى كي أقوم ببعض
الدّورات في السّاحة، أنظر إلى السّماء، إلى التّخلّة المنتصبّة وسط السّاحة
الخارجيّة للسّجن، والتي يمكن أن نرى نصفها من هنا. التّافورة تستعيد كلّ
موقعها وسط السّاحة، يمكن للمرء أن يسمع خريرها، الخريبر نفسه الذي
صحب طفولتي والذي ساهم كثيراً ربّما في استيقاظي للشّعر. وهذا لا يعني
أنّي لا أفكّر فيك في أوقاتٍ أخرى من النّهار أو اللّيل. لكن هذه الأفكار تعبرني
مثل انقباض في القلب أو انسيابٍ دافئ وسريع من الحنان. في حين أنّني
عندما أكون في هذه السّاحة القفراء، وسط هذه الشجيرات التي بدأ يخيم
عليها الظلام، أمام هذه التّافورة الهامسة المتلائيّة، أسترجعك كاملّة، أتخيلك
تمشّين إلى جنبي، ماسكةً ذراعي (أو العكس).

(...) هذا الأسبوع بدا لي طويلاً. غداً الاستحمام. ربما سأحلق شعري، قليلاً فقط
كي لا أغضبك. وبعد غد، أراك. والأطفال؟ على ذكرهم، أنت لا تحدّثيني عنهم
إلا قليلاً. لم أعد أعرف ما يفعلون بالضّبط. حاولي أن تخبريني بأحوالهم، أن
تحكي لي الحياة الجماعية في البيت، مناقشاتكم في الفترة الأخيرة، المشاكل
التي تطرح. أشعر بنفسني منفصلاً عن هذا الواقع، وهذا غير طبيعي. لا تنسي

أني طلبت منك في إحدى رسائلي الأخيرة أن نستأنف مناقشاتنا. أشعر أنّ رسائلي متفككة هذا المساء (فقدت عادة الكتابة). لا يهم! لست أسعى إلى البرهنة على أيّ شيء، ولا أقصد إقناع أحد. فقط أقبلك على جبينك وأضمك إلى صدري.

4 دجبر 1979

زوجتي الحبيبة،

أسبوعٌ مُجهد بعض الشيء. يوم الأحد الماضي أصابتنى نوبة من جديد. بقيتُ يومين طريح الفراش كي أستعيد قواي. منذ صباح اليوم الأحوال بخير. ينبغي للمرء أن يكون قاسياً مع المرض، أن لا يستسلم له، أن يصمد في وجهه إلى أقصى حد. ثمّ كان عليّ ألاّ أضيّع فرصة موعدي معك عبر رسالة، وإن كانت رسالةً وحيدة خلال هذا الأسبوع. أن أكون قوياً كي أكتب إليك. كي الأطف يدك، أن أحدثك عن هذه الأمور البسيطة التي تشكل حياة السّجين: عشائي الذي أعددتَه قبل قليل والذي هو الآن فوق الموقد، برنامج أمسيّتي الذي سأخصّص جزءاً كبيراً منه لقراءة «موسوعة أفريقيا الشمالية» التي أحضرتها لي، الأشياء التي تحيط بي (إنك تعرفين مظهر زنزانتي، وديكورها... لكن هناك جديد: استطعت الحصول على فراش من فضلات القطن عوض فراش الحلفاء التي كانت هنا. وبالتالي فإنني أنام في ظروف أحسن من الماضي). هذا المساء، أجد زنزانتي جميلة إلى حدّ ما. إنها نظيفة، مرتبة جيّداً، وكل شيء في متناول يدي. فكرة حمقى مثل العديد من الأفكار الأخرى التي تخترق الذهن في العزلة السجنية.

توقفت لحظة عن الكتابة كي أتناول طعام العشاء. أعددت شيئاً بالياسمين، وأنا الآن أرتشف منه، ومن جديد معك. أمس، بعد العديد من الطوارئ خرج ستة رفاق بعد انتهاء مدة اعتقالهم (5 سنوات). في الساحة أقمنا لهم حفلة حقيقية، ورافقناهم إلى باب الحي كما لو كانوا عرساً في ليلة زفافهم. فرحة صافية. السجن ليس أبدياً، فالعودة تنتهي دائماً بالتجلي في الأفق. الجميع كان يشعر بأنه حر شيئاً ما.

بعد ذهاب هؤلاء الرفاق، خفّت أزمة السكنى (الجادة ها هنا). وهكذا فإنني أمل أن تكون لي عما قريب زنزانية خاصة بي، لأن تلك التي أقيم بها «ملك» رفيق آخر سمح لي باستعمالها مؤقتاً. يجعلني هذا أفكر في أن أكتب لك رسالة أصف لك فيها بتفصيل الحياة الجماعية في حيّنا. إنّ لها بعض الجوانب الطريفة

التي تستحق أن تُروى. أترك هذا لفرصة أخرى عندما تكون قريحتي أكثر خصوبة (...).

7 دجبر 1979

جسلان، أخي العزيز،

كيف أقول لك كل الأثر الذي تركته في رسالتك (27 نوفمبر)؟ منعشة، صائبة، منبثقة عن حرارة الاقتسام. يتراءى لك في ثنايا المواضع اللغوية، ما ينبع من أعاصير الحياة. خفقان الألم ينساب مع سيل الأمل، الجسد فاقد الصواب من فرط ما هو مقيد ومنفطر في الوقت نفسه، العيون نازحة في ركاب الذكرى الهائمة، زخم السنين الصاخب يجرف المخاضات والولادات. كل هذا المعيش الذي يمتنع شيئاً فشيئاً عن الوصف، لا يمكنه أن يكون بضاعة في سوق الخطاب. وفي الحقيقة، منذ فترة طويلة نسبياً، أصبحت أنفر من الأدب. الصفحة البيضاء، التي أرغم نفسي على الجلوس أمامها، تثير أعصابي. فالكتابة دون القدرة على ترجمة الكلمة إلى فعل، تبدو لي مجرد عبث، ورؤاي لا تعدو أن تكون شطحات باطنية. إنني أبلغ نوعاً من الحدود. حينئذ، أجمع أوراقى، أقطع الاتصال، وأكتفي بالإنصات لهدير هذه الثورة الغريبة المنبعثة في أعماقي، ثورة الممكنات في داخلي، ضد حدودي، أو ثورة النسغ ضد القشرة (لاستعادة تعبير يعجبك). ما يتعدّر عن الكتابة. أتمدّد، أطفئ الثور في زنزانتى، وأواجه الأمواج المتضاربة إلى أن يكتنفي النوم. في الصباح، يحدث أن يسألني أحد الرفاق إن كتبت قصيدة، أجيب بالنفي، بلهجة حادة بعض الشيء، ونمضي لأخبار اليوم المتنوعة. وتعود البسمة.

نقاها. عشرات الأشغال، ذهاب وإياب، مطالعات خاطفة، رسالة تصل، رسائل تبعث، فسحة. ها أنا قد نسيت مواجهة الليل القاسي، الكابوس الذي يلم بالمرء لكونه شاعراً. لست أدري لم أحدثك اليوم عن كل هذه الأمور، دفعة واحدة. ربما لأنّ صداقتنا الأخوية تتطلب منا أن نعبر عن حقيقة انفعالاتنا كما تتجلى تلقائياً، في كل مرحلة من مسيرتنا (...).

12 دجبر 1979

عزيزتي أندري،

تلقيت أمس رسالتك المؤرخة بـ 30 نوفمبر، وها أنا أسرع في إجابتك. مع الأسف لم أتوصل برسالة التاسع نوفمبر التي تتحدثين لي عنها. إن آخر مراسلة تلقيتها منك مؤرخة بالتاسع عشر من أكتوبر. وبدوري كاتبك يوم 25 أكتوبر ثم 22 نوفمبر – واضح أن رسالة على الأقل لك منا قد «ضاعت».

نصطدم هنا بإحدى الحدود المفروضة (وإن كانت بسيطة بالنسبة لحدود أخرى)، والتي تثير الغضب في وضعيَّة مثل وضعيتي. رسائل بسيطة للحضور والصداقة تصطدم بجدار الصمت الأخرق، أسلوب لتفكيك الحوار، وعرقلة بطريقةٍ بلهاء. لا علينا. لنستأنف حوارنا. لقد واجهت فعلاً بعض المشاكل الصحيَّة خلال الأسبوعين الماضيين. وسألتنقي ببعض الأطباء عمَّا قريب، لكنه ليس من المحتمل أن يُسمح لي بالدُّخول إلى المستشفى كي أتلقى الكشف الطبيَّة والعلاج الذي أمله. سنرى. لكن ما يمكنني أن أقوله لك هو أن الأمور في تحسن. أعالج نفسي حسب الإمكانيات المتوافرة، أحتمي قدر المستطاع (جوسلين أتت لي بمشدَّات أعصب بها أكتافي وحوضي. إنني أشبه مومياء مع كل هذه العدة!). ثمَّ إن ما يساعد أكثر من أي شيء هو المعنوية العنيدة نفسها، تلك التي سأحتفظ بها رغم كل النَّوائب وفي أعلى مستوى. وعُدُّ شاعر...

هذا يعود بي إلى فقرة من رسالتك. أجل، بكلِّ تأكيد، لا مجال لإحداث ميثولوجيات جديدة، ولكن علينا أن نكتشف، أن نوقظ ونفتح في ذواتنا المرأة، والرجل الحقيقيين. القوة أو الضعف رهينان بالاختيارات الواعية التي تتبناها. وعلى كل حال فالعطاء لا يمكن أن يكون موضوع مساومات وإلا فهو ليس بعطاء. ليس من قبيل المصادفة أن يكون المحرومون هم الذين يملكون القدرة على العطاء هذه إلى درجة غريزية تقريباً. أقول تقريباً لأن لا أحد يفلت من إيديولوجية الأسياد. هذا يعني أن على «المحظوظين» أمثالنا (وفي مجتمع مثل مجتمعنا، مجرد «رأسمال ثقافي» يشكل امتيازاً في حد ذاته) بذل مجهود استثنائي للخروج من الوحل كما تقولين. وكما تقولين أيضاً بحق، ينبغي ألا ننسى «أننا تعلمنا المشي في يوم ما»... إليك صديقتي. إلى «ويليام» وإلى أطفالك. أتمنى أن تنتظم المراسلة من جديد. شمس أخوية.

20 دجمبر 1979

أندري،

تلقيت رسالتك المؤرختين بالسادس والتاسع دجمبر. أجيئك مع التَّأخير لأنني نقلت إلى سجن الرباط المدني من حيث أكتب لك هذه الرِّسالة. لن أمكث هنا

طويلاً (وقتما تُجرى لي بعض الفحوص الطبيّة)، وبعدها سأعود إلى قلعتي العادية.

يسرُّني جداً أن أُعيدَ قراءة رسائلِك هذا المساء، هنا في الرِّباط، في هذا السجن الصَّغير والذي يحرك في داخلي العديد من الذكريات. إنَّه أوَّل سجن عرفتُه في سنة 1972. بعد اعتقالي، قضيت به حوالي شهر. ثلاثة أيام قبل إطلاق سراحِي (المؤقت) بلغني نبأ ميلاد طفلي الثالثة، قُدس. بعد خروجي استطعت رؤيتها عن كثب. الحياة إلى جانبها، لم تكن طويلاً، إذ أنني اعتقلت من جديد بعد 20 يوماً ودخلت جحيم السؤال ثمَّ بعده سجن الدَّار البيضاء المدني، محاكمة 1973، ثمَّ السجن المركزي بالقنيطرة. خلال كلِّ هذه السَّنوات، احتفظت بحنين غريب إلى سجن الرِّباط، إحساس يشبه ذلك الشعور الذي ينتاب المرء عندما يرى من جديد البيت الذي ولد فيه بعد غيبة طويلة (...).

25 دجبر 1979

جسلان، أخي العزيز،

أني أكتب إليك دون انتظار... أجل أن أبُدِّ الصَّمْت، أن أصمد في تيار انجرافات الليل، ألا أكتفي بتلك الأحلام الشرسة التي تلهب الأعين بوخز الأرق. أن أعيش مثل قبضة مشدودة تدق وتدق على صنح تمرّد الذات. أن أتكلم، أبسط ذراعي لأبعد عني الجدران الأربعة. أن أتبسّم. لا بدّ من هذا حين تؤدي بك المضايقات إلى ترديد العبارات الأكثر سفالة. أن أستعيد هكذا بعض قواي. لديّ في هذا الصدد رأي يجر عليّ سخرية جوسلين. أنا أعتبر أنّ الحالة المعنويّة من شأنها أن تخفّف من وقع المرض، مهما كان عضويّاً. لا يبدو الأمر صحيحاً من وجهة نظر مادّيّة، لكنني أومن به قوياً. أكيد أنني لا أدعي أن المعنوي يشفي، لكنه يساعد على الحصول على نوع من التوازن، على التحمُّل، وعلى مواجهة المرض. على أي حال فإذا كنت قد استطعت أن أصمد حتى الآن فذلك بفضل وصفة مثل هذه. لكن أعترف أن هناك مرحلة يصبح فيها العلاج المتعارف عليه ضرورياً.

عودة إليك، تشابهاتنا/اختلافاتنا. لقد فهمت جيّداً سبب الحواجز التي تحدّثت لك عنها في آخر رسالة. إنّ ما أكتبه لا يمتُّ بصِلّة إلى الخيال الذي يتطلب مجرّد التخيل وحيل المهنة. عليّ أن أستمّد كل شيء من صلبي، من هذا الهيكل المطنطن في الفضاء المغلق الذي قذفوا به في وجهي «كديكور» نهائي. كلما أغترف من ذاتي، كلما أصبحت مهتداً بفقر الدّم، دمي كله لا يكفي. وهذا ما

يفسّر نوبات غضبي العارم ضدّ ذاتي أولاً، ثمّ ضد الحدود الخرقاء للكائن البشري. هكذا...

أما من جهة «جدليّة الفردي والجماعي»، لا بأس. هل من الممكن أن تكون الأمور غير هذا؟ وإلا لماذا أنا أكافح من أجل «الفاضلة» في هذه الأرض؟ ترجمة «يوميات»⁽⁵⁸⁾ ومختارات قصائد من الدّواوين الأخرى تتقدّم. لا بدّ من الانتظار ثلاثة أو أربعة أشهر قبل عملية النشر. حلم لا بدّ وأن يتحقّق (...).

26 دجبر 1979

جوسلين،

رسالة منك، رائع! لكن هذه على الخصوص، بلا تاريخ، ولا توقيع، تقول بالصّبط تلك الأشياء التي رجوتك كثيراً أن تحدّثيني عنها: ما يدور في ذهنك، قلبك. الصور التي تمثّل أمام عينيك وأنت تواجهين صفحتك البيضاء. تفكرين فيّ، فيما يجمعنا، فيما كنّا، فيما نحن عليه وفيما سنصبح. هذا النوع من الرّسائل التي تمّنتين عادةً - مع الأسف - عن كتابتها لي، معتقدة ربّما أنه لا ينبغي لنا أن نكتب إلا الأشياء «الهامة»، والتي تستحقّ ذلك حسب مقاييس لا أدري ما هي. في حين أنّك في رسالة عفويّة مثل هذه تعيدين إليّ كلّ ما يلهب مشاعري فيك! عذوبتك، طريقتك في التّعبير عن ذاتك كاملة عبر هيئتك، تفكيرك، عشقك. أقبل يدك التي تعبر عنك، تعيدك بدورها: تنساب حوراً طبيعياً، نشيطة ورقيقة. لن أنتهي من تعداد كل هذا. هل أنا في حاجة إليّ وصف شيء ما؟ وإن كان الأمر لا يتعلق بوصف البنت. لكن كل ما يمكن أن نعبر عنه بكلمات «يختزل» حتماً كما كتبت هذا أنت نفسك. أن أكون بالقرب من حبيبتي، هذا هو الأهم. حلم بسيط مثل هذا ولكن كم هو بعيد. سنحقّقه، أليس كذلك! رحلتنا العجيبة بدأت تقربنا من يابسة هذه القارّة التي لم نكفّ عن تأهيلها بكلّ العطاءات التي أثمرت فينا عبر سنوات المحنة. سنبلغ أخيراً «أطلانتيد» حينا، «أطلانتيد» الإنسان الجديدة.

لن يكون هذا عودة إلى الخرافة، إلى أسرار الحضارات المنقرضة، لكنه اكتشاف جديد لقارة شيّدناها بأيدينا، بدمنا، بالآلام والآمال، بالشّعور الذي كان يومية رحلتنا، بالعناد الذي مكّنا من الصمود في وجه الأعاصير رغم صخب الأصوات المعادية للكرامة والمقاومة. غريبٌ كيف أنّ علاقةً في مثل هذه البساطة (علاقة الرجل بالمرأة)، لكن باعتبار جميع أبعادها الاجتماعية، الأيديولوجية، الإنسانية، من شأنها أن تُمكن المرء من تجاوز حدوده الخاصة، وأن يبذل أكثر من صلبه، ويبلغ إلى أعماق المتطلبات. الحب (كما نتصوره

ونعيشه) هو نوع من التطرف في البحث عن الحقيقة. هل تفهمين ما أقصد؟
(...).

6 يناير 1980

حبيبتي،

(...) في الأيام الأخيرة، استطعت ربط الاتصال بالشعر، عربياً وفرنسياً. صعوبات الإقلاع من جديد، لكن حاجة حقيقية إلى الوقوف في وجه الصمت، إلى طرد جيمي، إلى إزالة الحواجز من طريق سيل الحياة. لكن في هذا النوع من النشاط ليست الإرادة وحدها العنصر الحاسم. تتدخل عناصر أخرى لا يمكن الإحاطة بها بدقة. هكذا، كثيراً ما يكون لدي الكثير ممّا يمكن قوله، وكذا الحاجة الملحة إلى التعبير عنها، لكنني أقضي ساعة أو ساعتين أمام الصفحة البيضاء عاجزاً عن صياغة أيّ شيء. القصيدة لا يمكن كتابتها. لا يمكن إلا أن تُعاش. هذه الأيام، يختلف الأمر. لكن هذا لا يعني كذلك أن كلّ الحواجز قد حُطمت. ومع ذلك فأني أتشبّه وأعيد الكرّة... ترين أنه مهما قيل، ففي بعض الميادين علي الأقل السجن يحصر. الشعر يقتضي من بين ما يقتضيه معيشة كثيفاً، محيطاً بشرياً وطبيعياً فسيح الأرجاء، وإلا فهو مهدّد في السقوط بين طيات التجريد (...). كانت هذه إحدى مشاغلي. أمّا الأخرى فهي المجتمع الصّغير الذي أعيش فيه. قريب، من بعض الجوانب، من النموذج الذي ينبغي تشييده، ولكنه في الوقت نفسه مُثقل بالعديد من أغلال العالم القديم. هذا طبيعي في نهاية الأمر، إذ أن الإنسان الجديد هو نتيجة عمل طويل النفس. وما نعتبره أحياناً ذلك الإنسان لا يعدو أن يكون مجرد بذرات يبقى نموها رهيناً بعملية معقدة من الصّراع على العديد من الجبهات.

إن إحدى الأمور التي علّمتني المحنة إيّاها، هي التّمييز بين الزمن التتابعي والزمن التاريخي. كل هذا بالطبع، لا يمتُّ بصلّة بـ «الواقعية» الرائجة (...).

15 يناير 1980

عزيزتي أندري،

تلقيت رسالتك المؤرّخة بـ 30 دجمبر ببعض التّأخير. (لعلّه اكتظاظ نهاية السنة). قضيت أسبوعاً بالصّبط في سجن الرباط، وفحصني طبيبان وصفاً لي بعض الأدوية، لكن مستحيل قبولي بالمستشفى لإجراء فحوص شاملة، وتلقّي

العلاج النَّاجع، موقف جديد لا يحتاج إلى تعليق. إذن عدت بسرعة إلى القنيطرة وأحاول أن أتتبع العلاج حسب الإمكانيات المتوافرة. لا بأس. يكفي للمرء أن يحتفظ برباطة الجأش، ألا يتفوق داخل جسده، ألامه. يستطيع هكذا أن يستعيد توازنه كي يثب من جديد ويواصل مسيرته.

بدأ فصل الشتاء يقسوها هنا. منذ بضعة أيام تتهاطل الأمطار بدون انقطاع. لذا فأبني أمكث كثيراً داخل زنزانتني، أقرأ باستمرار، أكتب قليلاً، وأردش مع الرفاق حول كأس شاي... أفكر في أصدقائي الطيبين والذين يقتسمون معي المحنة، كل حسب حساسيته الخاصة، قدرته على العطاء أو «المساهمة». هكذا عبر رسالتك، مشيت لحظة إلى جنبك فوق الثلج (يعجبني كثيراً مشهد الثلج). مساهمة؟ عطاء؟ لم التصنيف؟ لم البحث عن اسم لهذا الاقتسام؟ انشغالات قديمة طالما كافحتها. أفضل أن أتصور هذا من خلال تعابير إنسانية: بسمة، يدُ تنبسط، صمْتُ ملؤه الوفاق. بالنسبة للأدب العربي، هناك مع الأسف عددٌ قليلٌ من الأعمال المترجمة. مؤخراً بذلت دار «السندياد» للنشر مجهوداً في هذا الصدد، وتصدر «جاليمار» من حين لآخر بعض المؤلفات. لكن كلُّ هذا يبقى محدوداً ولا يمكنه أن يعطي صورة عن حيوية هذا الأدب، خصوصاً تلك الأعمال التي أتتجت في السنوات العشر الماضية (...).

16 يناير 1980

عزيزي جسلان،

هذا المساء، أمام عيني رسم «أمنية» ورسالتك الكبيرة، يزيئها طابع إدارة السجن. المطر يهطل بغزارة في الخارج، لكنه لا يشوش على الصممت المأثور لمحل إقامتي. تصور أنني أقيم الآن في الزنزانة نفسها التي عشت فيها في 1975 - 1976 خلال خمسة أشهر من العزلة. ذات الزنزانة التي تعودت فيها بصفة نهائية على لغة الصممت. وها أنا ذا اليوم وسط الديكور ذاته، الذي لم يعد مجهولاً بالنسبة إلي، ومن هنا أكتب إليك. كم طوعت من سنوات السجن، كما ترى. أما ما تبقى فأبني لم أعد أفكر فيه كثيراً.

رسم «أمنية». رسالتك. العاصفة تجلد الجدار من وراء ظهري. جوسلين التي أنتظر زيارتها بعد غد. قصائد شعر سأعود إليها وأستأنفها بعد أن تركتها تنضج. رسائل من أصدقاء ينبغي (أريد) أن أجيب عليها. حلم تراءى لي أمس حيث أمحى من السجن كل ما يرمز إلى السُّلطة، وتحولت القلعة إلى مدرسة إباحية، رأيت فيها لأول مرة عيون أطفال تشع سعادة. كل هذا يدور في ذهني، ويمنعني من التفكير كي أقول لك أشياء جدية، اعتبارات عن الكتابة، العمل،

المشاريع... لكن ها أنا أنتبه إلى أنّ هذا الدوار ما هو إلاّ تعبير عن حياتي في أبسط ملامحها، مجموعة متواضعة من الحماسات، من الأشياء المُقتسمة، من الصور المجسّدة من خلال القوّة التي تمثلها. كلمات الدم. إني أحلم أمام ورقتي وأنا أكتب إليك (...).

8 فبراير 1980

عزيزتي أندري،

رسالتك، قصيدتك. هكذا إذن يمكننا أن نقهر الأسوار – السُدود الداخلية عندما يتجدرّ الحوار في الكفاح من أجل وجهنا الإنساني، في تشبثنا بالحقيقة العمليّة.

في البداية، قصيدتك. هل أكون مبالغاً إذا قلت إنها تشبهك؟ إن ما أقوله هنا ليس من باب تحصيل الحاصل ولكنّه تعبير عن تقديري لك. العديد من أولئك الذين يمارسون الكتابة، يبذلون جهداً لا متناهياً كي ينفوا ذواتهم ممّا يكتبونه، باسم موضوعية لا أعرف ماهيّتها. ممّا ينتج عنه هوّ عبثيّة بين الإنسان وإنتاجه. وهذا ما يُفسّر التكلّف والتّصنّع والتزيين والتّنميق. فيصبح الكاتب يؤدي أدواراً عديدة عوض تادية دور حياته بالمعنى الحقيقي للعبارة. تلاعبات صالونيّة لم تعد تهمني منذ أن فتحت عيني على العطاء. أثرت اسم «كلوديل». يمكنني أن أذكر «سيلين» كي أبرز الفكرة أكثر. بالنسبة إلي على كلّ حال، يتعدّر عليّ تقبل هذا. خصوصاً عندما يتعلق بأشخاص لا يزالون على قيد الحياة، معنيين، ومدركين بالرهانات. لكن الأمر ليس بسيطاً، أتفق معك، خصوصاً إذا اعتبرنا عامل المسافة الزمنيّة. أفكر الآن في «بلزاك» مثلاً، رغم نزعت المتعصّبة الشرعيّة، رغم رجعيته العنيدة، فقد استطاع أن يكون الذاكرة الخارقة لمجتمع زمانه. ذكرت أيضاً «جوركي»، «مايا كوفسكي»، هذان الشقيقان اللذان تحدّثا لغة الدّم، لغة الأجساد الجريحة والحية. إنتاج وحياء يتداخلان مثل قلبٍ ونبضه.

إذا قلت بأن قصيدتك تشبهك، فإن قصدي من وراء ذلك هو إبراز ميزتها في نظري، ألا وهي الأصالة. قلت ذلك أيضاً لأنّها تعبّر بصدق عن صراعاتك وعن طبعك الخجول إذا أمكنني التّعبير. «هل أكون دائماً ذلك الطفل الذي يعطي كل شيء؟» هذا ما تقولين في بداية رسالتك. أولاً، وحفاظاً على الصّورة التي استعملتها، من يعطي الآخر، هل الطفل أم الراشد؟ أعتقد أنّ العطاء، في هذه العلاقة، ليس وحيد الاتجاه، وإن كان الطفل دائماً ضحية العطاءات التي يدعي الرّاشدون تقديمها إياه؟ لكن لتجاوز هذه الصّورة، أعتقد أنّ المشكل في نهاية المطاف خاطئ الطرح، عندما يتناول على أنه مجرد علاقة تبادل. لعل الأمر يتعلق أكثر باقتسام، لأن ما يغني كل واحد منا هو ثمرة العمل المشترك،

المحنة المشتركة. ومن ثمَّ تتجلى ضرورة الاتجاه نحو ما يؤسِّس حياتنا، مشروعيةً وجودنا. اعذري هذه العموميّات، فالمراسلة لها حدودها، مع الأسف (...).

22 فبراير 1980

أخي العزيز جسلان،

رسائلنا فجأة مسترسلة، نيازك الاقتسام. حقّاً الطائفة موجودة، لكنني تعودت على ألا أتمثل وأتلقى إلا أصداءها المثيرة. عدوى رسالتك المؤرخة بالثاني عشر، موجة عاتية من السعادة المحققة، سباق عبر الحواجز لتقويض الجدار، الصمت. وتعود الكتابة من جديد. شيء رائع. لا بد للمرء من حد أدنى من السعادة كي يمكنه أن يكتب بشيء من المتعة. أليس كذلك؟ إن ما أقوله هذا من قبيل المفارقة، بالنظر إلى الرأي الشائع....

ينبغي أن أستعد لمحاكمة جديدة،⁽⁵⁹⁾ ربما علمت بالخبر. إنها قمة السخافة، ولكن

لا بأس، لقد تعودت على أخذ هذه الأمور من جانبها الإيجابي... أجل، شمس أخوية.

4 مارس 1980

زوجتي الحبيبة،

كلمة قصيرة إليك هذا المساء. أن أعيد ربط الصلّة مع عادة مكاتبتك بدون أيّ مبرّر، لمجرّد مؤانستك، وإبلاغك صوتي. حضورك، حبيبتني. رأيتك في حلم قيل يومين. حلم في مطلق الحرية، حيث فكرة السجن نفسها كانت ملغاة تماماً. أفكر فيك كثيراً، تعلمين هذا جيّداً، سواء كان الربيع أم لا. على ذكر الربيع، ففي هذا الحي نشعر أكثر بقدومه. سبب ذلك هو أشجار الساحة. في ظرف أسبوعين، أزهرت جميع أغصانها. لقد تتبعت هذا الانبعاث يوماً بعد يوم. كان رائعاً منظر هذه الشجيرات الهزيلة الأسيرة وهي تخضر تدريجياً وتتفجّر نسيجاً. عادت الخطاطيف بصحّتها وخفتها. إنّها تُحدث جلبةً صاخبةً صباح مساءً، لأنّها تبني أعشاشها داخل ممرّنا. ثم هناك أيضاً الحمام (لدينا الآن خمسة منها).

الأُنثى التي رأيتها، وذكر أتيهاها به، وثلاثة فراخ لا يستطيعون الأكل وحدهم (بعد).

الحديقة الصَّغيرة مزدهرة أيضاً. وأخيراً، السَّماء أكثر شساعة من السَّاحتين معاً. الجدران هنا ليست عالية والسَّاحات مرَبَّعة، ممَّا يجعل قطعة السَّماء التي نراها كبيرة نسبياً. وأنت، كيف تعيشين عودة «الفصل الجميل»؟

أمس، رتبت زرناتي، غطيت صناديق الكارتون، حيث أضع كتبي وثيابي، بالورق الملون الذي أتيته به. كما غطيت الرف الذي أرتب عليه أمتعتي. إني فخور بالنتيجة. تغير مظهر زرناتي تماماً. استطعت بشكل ما أن أقضي على الكآبة التي كانت تخيم على المكان، غريب! الأمسية تمرُّ بسرعة في العزلة. نادراً ما أتمكن من إنجاز برنامجي قبل الساعة الثانية عشرة ليلاً حين أهدم بالنوم (...).

ليلة سعيدة حبيتي (...). أمر غريب، لكنني أحس وكأن العودة تبتعد (...).

9 مارس 1980

جسلان، أخي العزيز،

رسائلنا – البرقيات حيث نختزل القول إلى أقصى حدّ كي تعبّر أصواتنا حواجز التَّفاهة! لكن هذا كثير بالمقارنة مع بعض الحالات الأخرى. هنا، بدؤوا يطبقون المثل الذي يقول: «أكتب ما تشاء، وأدفع الثمن الذي نريد». وهذا أسلوب لا يخلو من حذق، لأنَّ هذا يحتفظ ببعض المظاهر الخادعة. فالفضيحة تفقد من حدّتها إذا روعيت المرونة الشَّكلية. عهد حقوق الإنسان، زمن التَّفاق. التَّخفيف هو الوصفة الرَّائجة. يصبح «المُنشَقُّ» محاطاً «بالعناية» كأيِّ معوّقٍ آخر يبرز تحت ضغط الزَّمن، النظام، الرُّاسمال. في هذا مفارقة، لكن أحياناً يُخيَّل إلي أنَّ السجن هو المكان الوحيد حيث أوجد حقاً في المكان اللائق بي. وبالتالي فإنَّ قطيعاتي لا تحتاج قط إلى استدلال. «شظيَّة عاصية». لا علينا...

لم أتمكن من إنهاء هذه الرِّسالة التي أستأنفها اليوم، 14. من جديد في الرِّباط لأحاول مرَّة أخرى أن أتلقّى علاجاً جدياً. الأمر يتطلب ترخيصاً من دوائريِّ عليا. سأستمرُّ إذن بدون ياس، إلى أن أرى كيف سيكون ردُّ فعلهم. من المؤكد أن لا شيء يضع من كل ما يتم فعله أو تروجه حول حالتي. فميزان القوى يكاد يتوازن.

أخي العزيز. كيف يمكنني أن أتحدّث عن الكتابة من وسط الدوّامة التي أعيشتها في الوقت الرَّاهن؟... بالنسبة إليّ، (وإن كانت هذه حقيقة شخصية ليس إلا)، فالكتابة هي أن أبقى حيّاً. هذا يكفيني كـ «نظرية»...

3 أبريل 1980

جسلان، أخي العزيز،

رسالتك المؤرّخة بـ 21، تبيّني إلى سجن الرّباط المدني، الذي سأغادره، بدون شك، غداً. بقيت هنا شهراً تقريباً دون الحصول على العلاج الذي تتمناه لي. كتبت إلى «أندري» أروي لها تقلبات هذه المسرحيّة المأساوية – الهزلية على طريقة «كافكا» التي عشتها خلال الفترة الأخيرة. لو كان هناك مهووسين بالمواضيع الأدبية لألف رواية عن هذه الأحداث، لكن يبدو أنني لست موهوباً في هذا المجال. حياتي ليست للبيع.

رائع، أخي، أن تذكرني بالتّفاؤل. هل كنتُ مكتئباً إلى هذا الحد في رسائلي السابقة؟ هذا يحيلنا إلى استعمال الألفاظ في ظروف مثل ظروفك. تعرف كم هم من يقرؤون رسائلي. الجزء المرئي من الكلمة هو أيضاً أداة حرب في ذات الوقت الذي يسعى إلى إيصال الأخوة. ممّا يفسر احتمالاتها المتعددة وضرورة التحكم فيها. عندما أكتب إليك، أكون مجنناً تماماً. لكن هناك بعض مناطق الظل (أنا أيضاً أدركها وأعيشها) يصعب عليّ أن أطلعك عليها. إنّه معيش خام ينبغي لمسها كي يمكن تكوين فكرة عنه. كم ستكون لنا من أمور نحكيها عندما «نشبخ»! البسمة، كما ترى، لا تفارقني. هذا يعني أنّ عناد الخصم لا ينال منّي شيئاً. أنا سعيد بأن أجد في أعماقي معين الكرامة هذا، والذي لا ينضب...

دعني أحدثك عن نهاري: قبل قليل ودّعْتُ جوسلين. لقد أتحت لنا الفرصة للتحدّث طويلاً إذ كانت ردهة الزيارة خالية تقريباً. كم أثرنا من ذكريات، كم ضحكنا مثل مجنونين! حاولنا تصور العودة (يحدث لنا هذا من حين لآخر، إنّه في الوقت نفسه لعبة حنان، حلوى للاقتسام، حلم بالمعنى المتعارف عليه بين الأحرار من البشر). لذلك فأنا أشعر بنوع من «الهُيام» (هل هذه الكلمة لا تزال تستعمل؟). سعادة السّجين التي أصبحت تعرفها بدورك. أضُمَّك إلى صدري.

22 ماي 1980

جسلان،

منذ أمس وأنا في السجن المركزي. بيت «راحة» بالمقارنة مع المستشفى الذي كان من المفروض أن أتلقى فيه العلاج وأستريح بعد كل الصّخب والإرهاق اللذين عانيت منهما في الفترة الأخيرة.⁽⁶⁰⁾ إذن سأتابع علاجي هنا (كشفت الفحوص عن قرحة في المعدة، ممّا يعقّد الأمور أكثر إذ أنّي لن أستطيع تناول الأدوية المضادة للروماتيزم لعدم توافقها مع حالات القرحة. وبالتالي فسأضطر إلى الاكتفاء بتناول مسكنات فقط في حالة نوبات الالتهابات).

على كلّ، لا بأس، سترى. كانت المحنة صعبة، لكنني عشت وتعلمت كثيراً. قارّرتنا، ليست لفظاً أجوفاً، عندما ينفذ المرء إلى أقصى درجات جحيم عالمنا هذا، يرى، يتحسّس، ويلمس هذه القارة التي تنبض جذورها في عروق أيدينا. أنا سعيد بصدّاقتنا. صدّقني. سأكتب إليك وقتما تحسنت حالتني الصحية.

16 يونيو 1980

جسلان،

أن أتوصل أخيراً برسالة منك، رائع! كنت أخشى أن يكون هناك حاجز يعرقل حوارنا بصفة نهائية، ويحرمني من اندفاعك الأخوي الذي يمزق قضبان منفاي. أعانقك أخي، بمناسبة هذا اللقاء الذي تهديني إيّاه عبر رسالتك – القصيدة المؤرّخة بالرّابع والتي تسلّمته منذ قليل، قبل إغلاق الأبواب مباشرة. دعني أستضيفك في مكعبي الذي رتبته وكأن ذلك تم قصداً (أجل، لقد غطيت الجدران من حولي بالملاءات والموكيت المقوى، وبالتالي فإنني محصن ضد الرطوبة. علقت كذلك صورة ساحرة لُقُدس. إنها تنظر إلي باستمرار، وأشعر كأن رأسي يصطدم بالنجوم). حقاً، العلاج مستمر (لديّ الآن علاج جديد لقرحة المعدة التي اكتشفت عندي ومنذ بضعة أيّام تبيّن لطبيب الأعين أن لديّ «لابؤرية»، ومن ثمّ يجب عليّ أن أستعمل نظارات). أصبحت أخشى أن أرى أطباء جدداً. ابتسم معي أخي، لأنني، صدّقني، رغم كلّ هذه الدوائر التي تبدو وكأنها تشدّد الحصار من حولي، أشعر بموجة عاتية تتصاعد من مركز إنسانيتي، حاملّة معها أملاً قوياً، طاقة لا تتصوّر، السعادة أجل سعادة أن أعيش حياتي كما هي، صراعاً مستميتاً ضدّ كل ما يحدّ ويشوّه، حبّاً مجنوناً لكلّ ما يستحق ذلك في هذا الوجود.

الآن، أتتبع العلاج بجديّة، ولو أنّي هنا: عرضُ جسدي لأشعة الشمس، تدليك، رياضة، حمية غذائية صارمة، بعض الأدوية. لقد استعدت قواي جيّداً. أمّا العمل

الفكري، فلا أزالُ عاجزاً عنه. أقرأ قليلاً، لا أكثر (حالياً «موت الوزير مختار» لصاحبه «تيناونوف»، هل تعرفه؟). أكتب أيضاً جميع أصدقائنا المشتركين...

لقد علمت بالجائزة⁽⁶¹⁾. هل دخلت أنا أيضاً عالم الموضة؟ ربّما تفاجئك سخريتي، لكنك تعرف موقفى السّاخِر من التّمثيل. باستثناء هذا، أنا منفقٌ معك، إنّه خبرٌ ساوٍ لعدّة أسباب (...).

16 يونيو 1980

زوجتي الحبيبة،

افهمي هذا على أنّه نزوة شاعر (قديمًا كنا نتحدث عن نزوات المرأة). أخرق الصّمت وأكتب إليك. كيف أترك لقاءنا لهذا الصّباح دون أن أمسك يديك من جديد لأقبلهما. «معجزة» حبّنا كما رددت ذلك كثيراً، أجل إنّها معجزة، حقيقة. لأنّ كل المعجزات الأخرى، تلك التي تنمق التّاريخ السّاذج ما هي إلا تزوير؟ في حين أنّي في علاقتنا، وبكل افتخار، هناك ملحمة مقاومة، عشق، حساسية وإبداع. وكلّ هذا إنّما استمدّدناه من جسدنا ودمنا الحيّين، من أعماق إنسانيتنا. أجل، إنّني أخرق صمتاً ما. مفارقة، إذ أنّنا تكلمنا كثيراً بشكل مباشر هذه الأيام الأخيرة. بشكل مباشر، قلت... لكن هناك الطريقة الأخرى في الحديث، تلك التي لا تجد ألفاظها إلا بعد التأمّل، بعد تمثّل حقيقي للإحساسات...

احتجت إلى كلّ هذه المقدمة كي أقول لك أنك حاضرة هذا المساء، أنتِ الحضور الدائم، العذوبة التي لا يمكن تسميتها دون أن تفقدها شيئاً من عذوبتها، زوجتي وصديقتي.

صديقتي. الأمور بخير، رغم كل ما يمكن أن تعتقدي. أنتِ تعرفيني. لست إنساناً يستسلم لليأس مهما كانت طبيعة الميدان ونوعيّة المِحَن. إنّ لي بوصلة جيدة: إنّها عشقي للحقيقة والعدل. وإذا حدث لي أن تعثرت أو ترددت أحياناً، فذلك لأنّه يصعب عليّ تصديق ما تشير عليّ به بوصلتي. لكنني أنتهي دائماً باتباعها.

إليك حبيبتى، حناني المسائي. الجوّ جميل في زنانتى، أعرف أنك تحبينى (...).

26 يونيو 1980

عزبتي أندري،

أعتقد أنّ المراسلة بدأت تنتظم. توصلت اليوم برسالتك المؤرّخة بالثاني والعشرين. رقم قياسي حقيقي! (فيما قبل توصلت برسالتني الثالث والسادس من الشهر). إنّ هذه الرقاية بيننا تؤثر فيك بشكل عميق. أعتقد أنه لا ينبغي أن نكتب أنفسنا أكثر من اللازم وإلا فإن ذلك سيكون على حساب الحوار. ثم، إنّ الأمر يتطلب التعود على التعبير عن الأفكار والأحاسيس في هذه الظروف الخاصة. أعرف أن الأمر ليس هيناً بالنسبة إليك، لكن ألسنت في حرب مع العديد من الأسوار، الدروع، الأقنعة؟

أودُّ أن أطمئنك أولاً عن حالتي الصحيّة. إنّني أعتني بها بشكل جدّي. بالنسبة لقرحتي، أتتبع علاجاً طويل المدى. أما الروماتيزم: تشمس يومي، تدليك الظهر. أراعي حمية غذائية صارمة. كما أنّني أترى قليلاً كل يوم. أستريح. وأتجنّب كلّ إرهاق فكري. ترين، إنّني أصف لك ها هنا فترة اصطياف جميلة. على كل حال أشعر الآن بتحسّن كبير، والآلام لم تعد شديدة إلى درجة إيقافني ليلاً.

كلُّ من رسائلك تثير قضايا وددت لو أمكنني مناقشتها. حياتي كانت عبارة عن إعصار خلال الشهور الأخيرة. لم يكن في وسعي أن أبعث أكثر من رسائلٍ الحضور. أتمنى أن أستطيع تجاوز هذه السطحية في المستقبل عندما أتمكن من تنظيم أحسن لوقتي وأفكاري.

اليوم، أود أن أحدثك عن أشعارك كما وعدتك بذلك في رسالتي الأخيرة، لكن يتبيّن لي الآن أنّ هذا الوعد من جهتي كان متسرّعاً. كيف يمكن الحديث عن الشعر هكذا، في بضعة سطور دون السقوط في حكم اختزالي أو انطباعية عشوائية؟ إنّ الشعر موضوع خطير، لأنني أعتقد أنّه يمثل إحدى وسائل التعبير الإنسانيّة الأكثر عراءً، إذا أمكنني استعمال هذه الاستعارة. فالشاعر يتخيّر بكامله فيما يكتبه، أكثر ممّا يفعل الروائي أو الكاتب المسرحي. إنّ الأمر يتعلق بجسد حي، بصوت إنساني في أصفى معالمه، بدون وسائط. القصيدة فعل استباحة في أحشاء المبدع، رغماً عنه. هذا بالنسبة للولادة. أما في التّواصل فهي عطاء مأساوي بشكل ما، لأنّها لا تفهم في هذا الجوهر. إنّ الأمر يشبه شخصاً يمدُّ يده لأجد لا يفهم المغزى منها ويتركها معلقة ومنبسطة. كلّ هذا لأقول لك إنّني أشدُّ على يدك بحرارة. أشعارك يوماً بعد يوم تصبح أكثر قوّة، أكثر دقّة، حفلة اقتسام. إنّك تكتبين بكلماتنا يدك، لأنك تبذلين كلّ قلبك، كلّ عشقك الحائر والأخوي. اكتبني إذن، أكثر ما يمكن، إلى أن تستنفذي نفسك لأنّ ما لديك قوله لم يعد ملكاً لك شخصياً. سأعود إلى هذا.

4 يوليو 1980

جسلان، أخي العزيز،

رسالتك المؤرّخة بالسَّابع والعشرين وصلّنتني منذ يومين. كنت أجزّرها في ذهني، في النظرة التي اكتنف بها الأشياء، الكائنات. كنت أتغدّي منها، مثل هذه الحديقة القزمية المزدهرة. وسط حديقتنا (الرّفاق يعتنون بها يومياً، يكتنفونها بكلّ الحب العجيب الذي يكنه السجين لمفاتن الحياة). أجل كيف يمكن فصل ما يتفجّر من ذات المنبع: رسائل/ شعر/ صرخات رفضنا وعشيقنا المتعدّد، بذرات التّكويّن التي توصلنا بشقاء البشر، كدحهم القاسي لحفر آبار الحُرْبَة العنيدة. مع العلم بأنّ القصيدة أحياناً (عندما يكتبها المرء بينه وبين ذاته)، تكون أكثر إرهاقاً، وعندما تنفصلُ عنك، تنتصب أمامك متحديةً، مهدّدةً إياك بشئى الالتباسات. ممّا يفسّر أحياناً ذلك الصّيق المضطرب الذي يتتابك أمام ثمرة أحشائك هذه. هل تفهم، أخي في الشّعْر؟ (...).

السّجن ينساب ببطء في الأيام الأخيرة. إنّ لديه جيّله، شأنه شأن التّاريخ. مصدر هذا ربّما يعود لعدم انتظامي. عدم الاستقرار يمنعني من أن أسطر برنامج عمل وأحترمه. ممّا يؤدّي إلى فترات من الإهمال، لكنّه ليس إهمالاً عقيماً: فأنا أتكاسل عن قصد، أحلم حسب هواي. أسمع، أتأمّل الجزئيات الصّغيرة وأحداث خلية التّحل التي أعيش وسطها. أنصت إلى نبض الرّمن وأتعلّم كيف أحدث نفسي، كيف أتعرّف على هويّتي. كل هذه الأمور التي يمكن أن تفهم في ظروف أخرى على أنّها نزع نرجسية، تصبح أحياناً حيويةً ها هنا. لكي يمكن للمرء أن يتحمّل عبء ذاته باستمرار، ينبغي له أن يلتصق بذاته، ويعاين قدراته ومدى فعالية هذه القدرات. فالصّراع ليس ضدّ فحسب وإمّا هو أيضاً مع (...).

أخي العزيز، إنّها لمتعةٌ حقيقيّةٌ أنّ أكتبَ إليك. أشعرُ بنفسِي مُرتاحاً هذا المساء في زنزانتي، مرتاحاً مثل بحار في عرض البحر، مُحاطاً من كلّ جهة بالأفق، ولا يتوقّع عن قريب أي مرسى...

أفكّرُ بقوةٍ فيك، في كلّ الذين أحبّهم. (62)

سيرة مختصرة

وُلِدَ عبد اللطيف اللّبي في مدينة فاس المغربية 1942، وإضافة إلى مكانته البارزة في الأدبين العربي والفرنسي، حققت أعماله التي كتبها بالفرنسية وُترجمت إلى لغات عديدة تقديراً عالمياً، إذ نشر أكثر من خمسين كتاباً في الشعر والرواية والمسرح والمقالة والسيرة وكتب الأطفال.

أسّس اللّبي مجلة أنفاس عام 1966، التي ساهمت في حركة الحداثة الأدبية العربية، ووسّعت فضاءات الحرية والالتزام في المغرب العربي، وقدّمت أبرز الأصوات الأدبية المغاربية التي نالت شهرة ونجاحاً لاحقين.

اعتُقل اللّبي عام 1972 بسبب نشاطه السياسي التقدمي، وحُكم عليه بالسجن لعشر سنوات، ليخرج بعد حملة دولية للإفراج عنه بعد قضاء ثماني سنوات في السجن، وخلالها كتب مجموعة من أعماله البارزة ومن بينها «يوميات قلعة المنفى». وقد أنجز المخرج المغربي عبد القادر لقطع فيلماً سينمائياً عن حياة اللّبي، بعنوان «نصف السماء» مقتبس من رواية «رحيق الصّبار» لرفيقة دربه جوسلين اللّبي.

حاز اللّبي على جوائز وتكريمات عديدة، من بينها: «جائزة آلان بوسكيه» (2006) و«جائزة غونكور» للشعر عن مجمل أعماله (2009)، و«الجائزة الكبرى للفرانكفونية» من أكاديمية اللغة الفرنسية (2011)، و«الجائزة الدولية للشعر: عصر ذهبي جديد» من المكسيك (2017)، و«جائزة محمود درويش للثقافة والإبداع» من فلسطين (2020)، و«جائزة روجيه كووالسكي – جائزة الشعر الكبرى لمدينة ليون» الفرنسية عن مجموعته «لا شيء تقريباً» (2021).

إلى جانب مسيرته الغنية كشاعر وروائي ومناضل، ترجم اللّبي إلى الفرنسية أعمالاً لعدد من الشعراء والروائيين العرب، من بينهم: محمود درويش وعبد الوهاب البياتي وسعدي يوسف ومحمد الماغوط وغسان كنفاني وحنا مينه، كما أصدر أول أنطولوجيا للشعر الفلسطيني الحديث وأخرى للشعر المغربي الجديد.

تم إدراجه في مقدمة الطبعة الفرنسية الأخيرة.
منشورات لاديفيرانس. باريس 2004.

– اعتقل ع. ل في 27 يناير 1972 بتهمة إعادة تكوين
حزب محظور والإخلال بالأمن العام. ثم أطلق سراحه
مؤقتاً في 25 فبراير 1972. من رسائل هذا الاعتقال
الأول الذي قضاه الشاعر في سجن لعلو بالرباط
ننشر فقط هذه الرسالة والتي تليها.

– كانت جوسلين حاملاً وعلى وشك أن تضع. وُلدت
«فُدس» يوم 20 فبراير.

– اعتقل ع. ل من جديد في 14 مارس 1972 بتهمة
المس بأمن الدولة ووضع في السجن المدني بالدار
البيضاء.

– في سنة 1972 كان عُمرُ ياسين سبع سنوات وعمر
هند خمس سنوات ونصف.

– «العين والليل». رواية – رحلة للمؤلف كتبت سنة
1967 ونشرت عام 1969.

– «القصيدة السرية»: مقطع من القصيدة – الديوان –
التي سينشرها المؤلف فيما بعد تحت عنوان:
«أزهرت شجرة الحديد» (منشورات «البديل»؟
1982).

– أول إضراب عن الطعام الذي يشارك فيه ع. ل.
والذي دام 32 يوماً، خاضه المعتقلون السياسيون
بسجن الدار البيضاء للمطالبة بتعجيل محاكمتهم أو

إطلاق سراحهم.

– «كيف حول يوكونغ الجبال؟» أسطورة صينية مغزاها أن الإنسان بفضل عزمته وعناده، يستطيع أن يحقق الخوارق.

– في 31 مارس 1973 اتخذت بعض الإجراءات القمعية ضد مجموعة المعتقلين التي كان يوجد من ضمنها ع. ل. تراجعت الإدارة عن المكتسبات التي تحققت بعد إضراب دجمبر 72 يناير 73. تم تشتيت المجموعة في زنازن انفرادية وطبق على المعتقلين نظام العزلة والحراسة المشددة كما تم تقليص وقت الزيارة والفسحة.

– منذ أيام، رفع إجراء العزلة.

– كان التحقيق قد انتهى وبدأ موعد المحاكمة يقترب.

– هذه الرسالة كتبت بعد المحاكمة التي استغرقت شهر غشت بكامله، ثم النطق بالحكم في فاتح شتمبر عشر سنوات سجناً بالنسبة لـ ع. ل.

– كان ع. ل. قد أخبر منذ قليل بموت أمه.

– بعد صدور الحكم، أصبحت الزيارة أسبوعية وتتم يوم الجمعة.

– حرب أكتوبر 1973.

– جسلان ريبو: صديق فرنسي قديم. كاتب. مدير مجلة «باربار» الأدبية.

– في فبراير نقل ع. ل إلى السجن المركزي بالقنيطرة حيث يقضي السجناء المحكوم عليهم بأكثر من خمس سنوات عقوبتهم.

- كان ع. ل قد علم وفاة إيفلين السرفاتي، أخت المناضل أبراهام السرفاتي وصديقة العائلة.
- بمناسبة عيد الأضحى.
- في بداية يناير اعتقلت جوسلين وتم استنطاقها لمدة بضعة أيام ثم أطلق سراحها. هذه الرسالة هي الأولى التي يكتبها المؤلف بعد هذا الحدث.
- قصة حب يُجْهَلُ مؤلفها كتبت باللغة الفرنسية القديمة خلال القرن الثاني عشر.
- Gabriel Bounoure: أستاذ بكلية الآداب بالرباط، وناقد أدبي.
- أول ديوان شعري ألفه الكاتب. لم ينشر بعد.
- منظمة إرهابية معادية للثورة الجزائرية شكلها المعمرون خلال الحرب.
- إيليت بلوك، مساعدة التحرير في مجلة باربار.
- نصف السماء لكلودي بروايل. شهادة عن الصين والمرأة الصينية خلال الثورة الثقافية.
- إيماءة لمقطع من قصيدة للشاعر الفرنسي أراغون حيث يقول «ليس هناك حب سعيد».
- قبل أيام، اتهم ع. ل. وثمانية من رفاقه في قضية جديدة للمس بآمن الدولة وتم عزلهم عن باقي المجموعة. شن المعتقلون ابتداء من 18 نوفمبر إضراباً عن الطعام للاحتجاج على هذه التهمة وللمطالبة برفع العزلة عنهم. توقف الإضراب في 5 ديسمبر بعد أن وعدت إدارة السجن برفع العزلة بمجرد انتهاء التحقيق. لكن العزلة ستستمر لمدة

شهور (زنزانة انفرادية، في حي المحكوم عليهم بالإعدام، خمسة عشر دقيقة للفسحة في اليوم) القضية ستنتهي بقرار عدم متابعة المتهمين وذلك خلال سنة 1977.

– أصيب ع. ل. بالنوبة التي يتحدث عنها خلال الإضراب عن الطعام.

– خلال هذه الفترة من اعتقاله في زنزانة انفرادية، كتب ع. ل. ««قصة مغربية»» وبعض المراثي وكذلك العديد من القصائد التي ستنشر فيما بعد تحت عنوان «قصائد تحت الكمامة».

– طاغور: ربيندرانات طاغور، الشاعر الهندي.

– نيكول موزا: صديقة فرنسية لـ ع. ل. عضو في هيئة تحرير مجلة باربار.

– كتبت هذه الرسالة بعد رفع إجراء العزلة.

– سينمائي هولندي.

– قصيدة لـ ع. ل. كتبت سنة 1971 ونشرت في ديوان «عهد البربرية».

– كتبت هذه الرسالة خلال حصار مخيم «تل الزعتر».

– يتحدث هنا ع. ل. عن نقله إلى مدينة الرباط حيث كان يجري التحقيق معه في قضية نوفمبر 1975 (انظر الهامش ص 1).

– 28 فبراير، عيد ميلاد جوسلين.

– في هذه الفترة وصلت إلى سجن القنيطرة جماعة المعتقلين السياسيين (جماعة 137) بعد صدور الأحكام (محاكمة 1977 بالدار البيضاء).

- رواية صينية ألفت خلال الثورة الثقافية.
- كان ياسين وهند قد قضيا عطلتهما الصيفية عند إ. بلوك و.ج. ريبو بمنطقة الألب العليا.
- في أواخر نوفمبر 1977، تم الإفراج عن ثمانية معتقلين من بين رفاق عبد اللطيف اللعبي وكذا عن عدد من المعتقلين السياسيين الآخرين، إثر عفو جزئي.
- يلمح اللعبي في هذه الفقرة إلى وفاة سعيدة المنبهي، بتاريخ 11 دجمبر 1977 إثر إضراب عن الطعام.
- إشارة إلى الزيارة التي قام بها للعبى أصدقائه الفرنسيون: جسلان ريبو، إيليت بلوش وجيرار هوف.
- من جديد ساءت الحالة الصحية لعبد اللطيف اللعبي.
- رسالة كتبها اللعبي بعد فترة قضاها في المستشفى.
- بعد قضاء فترة جديدة بالمستشفى، يعود من جديد إلى السجن.
- قام السجناء بفتح مدرسة فيما بينهم لرفع المستوى التعليمي للمجموعة، وتسهيل متابعة الدروس بكل مستوياتها.
- صديقة سويسرية ل.ع. ل.
- إثر نوبة قلبية تم نقل اللعبي إلى سجن الرباط قصد إجراء فحوص طبية.
- بعدما قضى اللعبي فترة بالمستشفى ماي 1979، للمرة الثالثة عاد إلى السجن من جديد.
- يشير المؤلف هنا إلى نصوصه الشعرية الخاصة

والتي شرع في نقلها إلى العربية.
- بمناسبة أحد الأعياد سمحت إدارة السجن لمجموعة المعتقلين الذين كان معهم اللعبي أن يزوروا مجموعة محاكمة الدار البيضاء (يناير 1977) التي كانت في جناح آخر. وتمكن المؤلف من رؤية عدد من رفاقه وأصدقائه القدامى بعد سبع سنوات من الفراق.

- انتقل اللعبي إلى حي مجموعة معتقلي محاكمة الدار البيضاء (1977).

- مقطع من قصيدة قديمة للكاتب. وناكازاكي هي المدينة اليابانية التي دُمرت بالقنبلة الذرية خلال الحرب العالمية الثانية.

- يلمح اللعبي إلى وفاة رجال جبهة (من مجموعة محاكمة الدار البيضاء) والتي حدثت إثر محاولة فرار.

- يعني قصيدة «يوميات قلعة المنفى» المنشورة في ديوان بعنوان «قصائد تحت الكمامة».

- يشير الكاتب في هذا الصدد إلى المحاكمة التي مثل أمامها في 10 أبريل 1980. في الواقع يتعلق الأمر بقضية قديمة مرتبطة بأول اعتقال لعبد اللطيف اللعبي في يناير 1972، والتي وجهت له فيها تهمة الإخلال بالأمن العام وإعادة تأسيس منظمة محظورة. وبعد أن قضى شهراً في السجن مُنح السراح المؤقت يوم 25 فبراير 1972. ومنذ صدور الحكم النهائي في حقه في غشت 1973، أخرج هذا الملف عدة مرات، وفي كل مرة تُوجَل المحاكمة

لفراغ الملف.

– أبريل 1980: تدهورت الحالة الصحية لـ ع. ل. أمر العديد من الأطباء الذين كشفوا عليه بضرورة نقله إلى المستشفى. لكن إدارة السجن رفضت الاستجابة لهذه التعليمات الطبية. وأمام هذا الرفض دخل اللعبي في إضراب لا محدود عن الطعام ابتداء من 30 أبريل، دام 10 أيام، استجابت إثرها الإدارة لمطالبه... لكن سحب هذا عدد من الإجراءات (حراسة مشددة، تفتيشات متعددة طوال الليل، تحديد مدة زيارة أفراد العائلة في 5 دقائق) اضطرت اللعبي إلى المطالبة بالعودة إلى السجن.

– يتعلق الأمر بـ «جائزة الحرية» لسنة 1980 والتي منحتها رابطة القلم الفرنسية لكل من اللعبي والكاتبة السوفياتية ليديا تشوكوفسكايا والشاعر الكوبي أرماندو فاياداريس.

– تم إطلاق سراح اللعبي يوم 18 يوليو 1980.